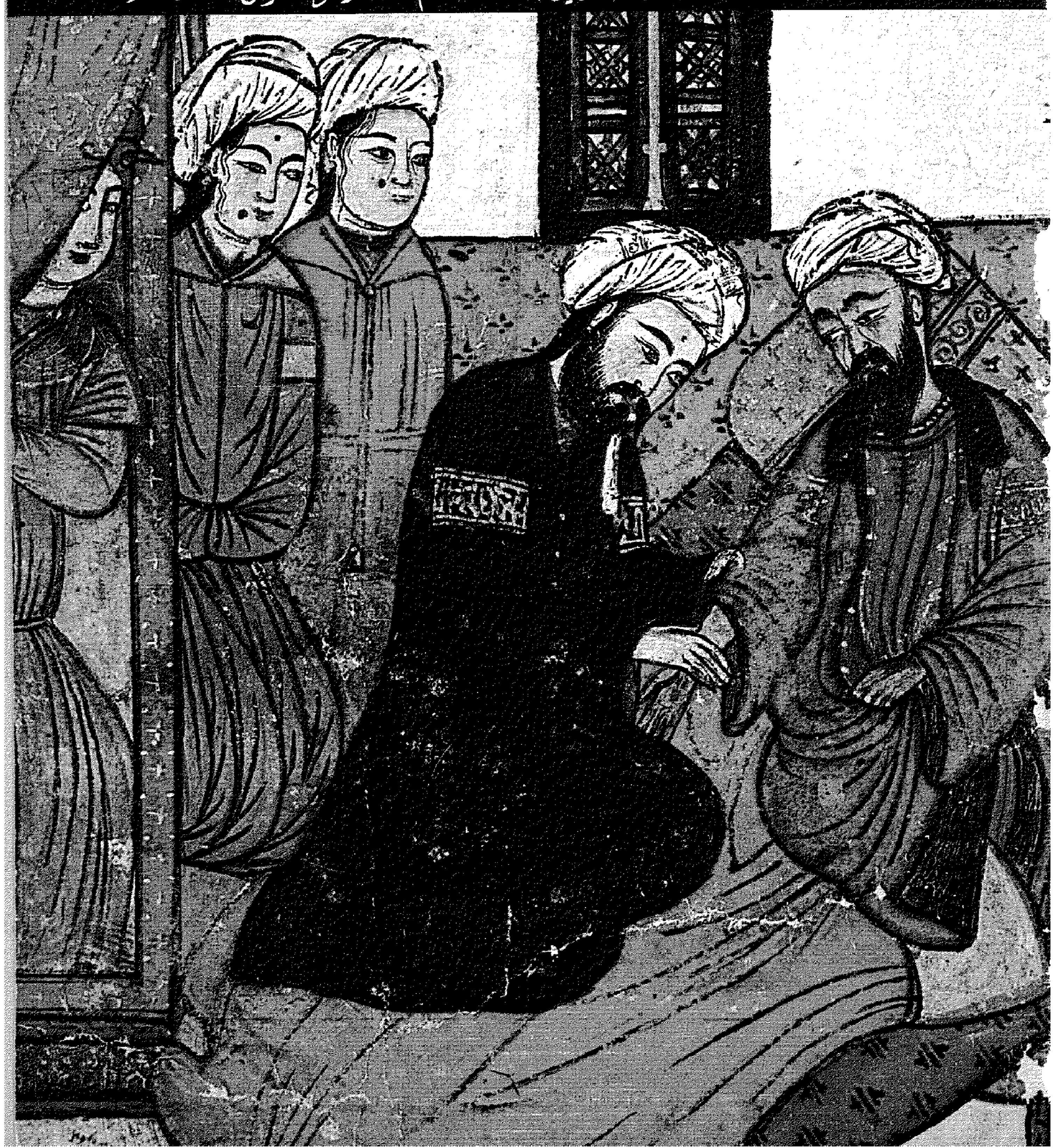
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة . العدد ٥٧ . تموز (يوليو) ١٩٨٣ م .. الموافق شوّال ١٤٠٣ هـ .



مدينة تازة، في المغرب، تقع بالقرب من وادي ايناون. وهي تحتل آخر سلسلة جبال الأطلس المتوسط قبالة سلسلة الريف.



الغلاف الأول

□ استشارة طبية، من مخطوطة قديمة تعود إلى القرن الرابع عشر. (المتحف الوطني — القاهرة).

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بشؤون التاريخ

العدد ٥٧ ــ تموز ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	السعر	البلد	السعر
لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع الساداث ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5 No. 57 July 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

تطور حياة البدو في الجزيرة

في ضوء المادة الأثرية

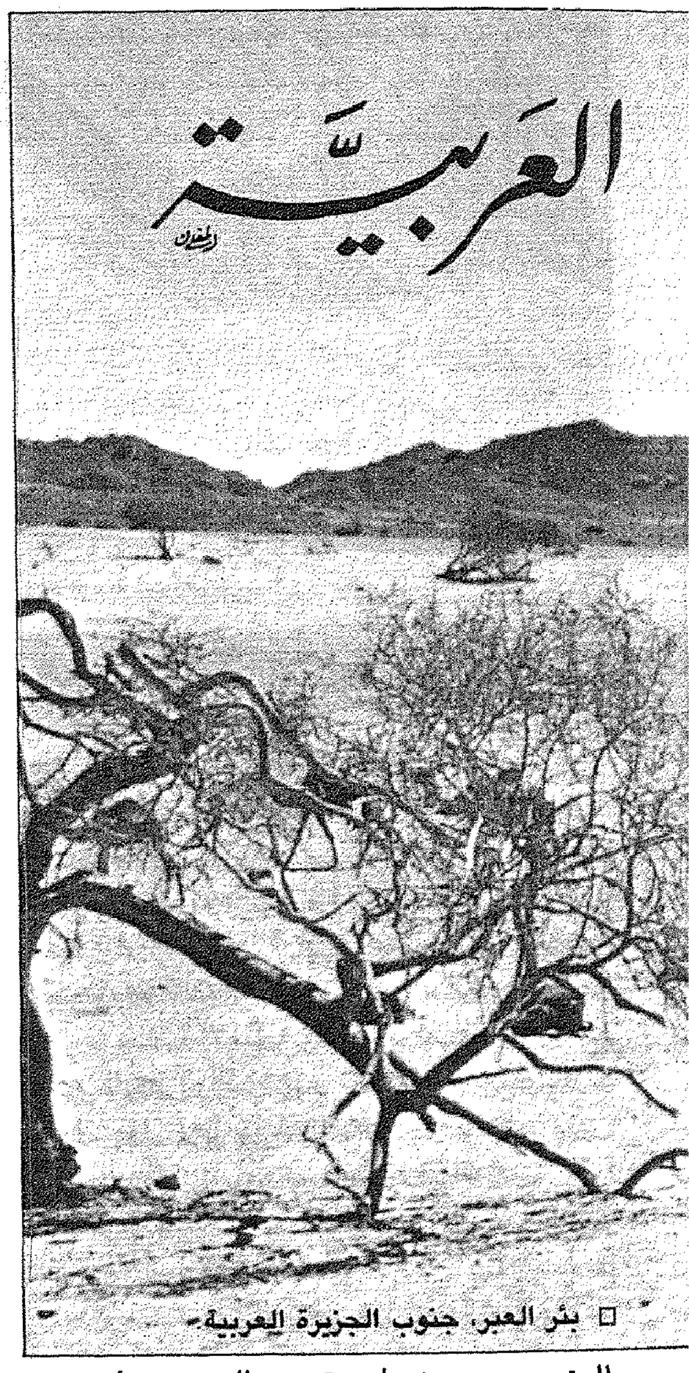
ڤالتر دوستال



تحاول هذه الدراسة أن تتبع تطور تراث رعاية الإبل (للبدو) في الجزيرة العربية، وذلك من خلال المعلومات المتوفرة والتي يمكن الاستناد إليها[1]. وتقضي الأمانة العلمية أن أعترف بالثغرات التي شابت النتائج التي توصلت إليها وبقصور هذه النتائج، وذلك بسبب عدم ثبوت المقدمات التي بنيت عليها هذه النتائج، ومن ثم فإنه يجب اعتبارها مجرد احتمالات. وبصراحة فإن الحقائق وراء هذه المقدمات تعتمد على الحالة الراهنة لدراسة الآثار، وهي دراسة قد تؤكدها أو تظهر تناقضها الاكتشافات التي قد تستجد في المستقبل... هذا وأنا أدرك نقص الأسس التي بنيت عليها نتائجي فيما يختص بالأنواع المختلفة من الرحال (جمع رحل)[2] والأوضاع وأساليب الركوب الخاصة بها. وإنني لأسجل في هذا المقام المثير للجدل:

١ ــ أنه ليس لدينا في الوقت الحاضر طرق أخرى.

٢ ــ أن إقامتي بين قبيلتي مطير وعجمان ــ وهما من القبائل البدوية ــ أتاحت لي فرصة الاطلاع على الكثير من دقائق ركوب الجمال وأوضحت لي بالذات الأهمية الأساسية لهذين



□ بئر العبر، جنوب الجزيرة العربية.

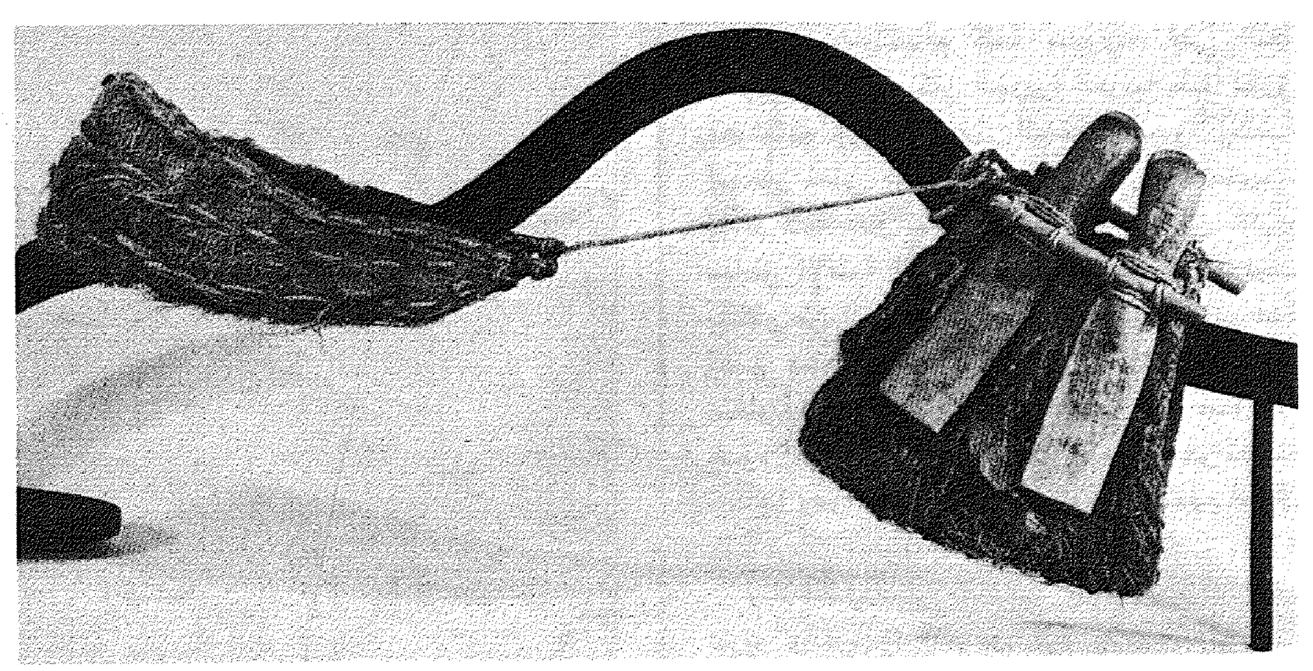
العنصرين. وعندما يعترض البعض بأن هذه «الرحال» كانت منتشرة على نطاق واسع بحيث يمكن القول إنها لابد وأن تكون قد اكتشفت على حدة في عصور مختلفة وأماكن مختلفة، فإني أتساءل ببساطة لماذا أدخل الرومان سرج خيل الفرسان القائم على قبو السرج (منحنى السرج) أولاً في القرن الأول بعد الميلاد أي بعد احتكاكهم مع البارثيين (Parthians)(٣).

وحتى نتجنب اللبس الذي قد ينشأ عن المعاني المتشعبة التي تعنيها الكلمة العربية «بدو»، أعتقد أنه من الأفضل أن أبدأ بتحديد ما أعنيه باستخدام كلمة «بدوي»، ففي اللغة العربية ينقسم سكان الجزيرة العربية طبقاً لطرق معيشتهم إلى قسمين: الحضر والبدو، وكلمة الحضر تعني بصيغة عامة السكان المستقرين، بينما كلمة بدو تطلق على الذين يعيشون خارج مناطق الإقامة الدائمة... وهذا التعريف محفوف بالكثير من الصعوبات، حيث إن مفهوم البدو هذا يضم مجموعات مختلفة تمثل مراحل حضارية متفاوتة. وفي سبيل إعادة تعريف لفظ «بدو» في ضوء المادة الأثرية، اقترحت في مقام آخر تعريفاً محددا وهو: رعاة الإبل، الذين من عادتهم القتال كالمحاربين الخيالة.

ونلاحظ في كتاب «النقائض» للشاعرين العربيين جرير والفرزدق أنه من بين ثلاثمائة وثلاثة وتسعين كلمة وردت في وصف رعاة الإبل الرحل وحياتهم، نحو ٣٧ ٪ في مجال الحرب وأساليبها... هذا التقسيم إلى بدو وحضر هو حقيقة اجتماعية معقدة، يمكن تقديرها على نحو أفضل إذا ما نظرنا إلى التعارض الذي يوحي به بين الاصطلاحين، هذا إذا ما تجاهلنا مؤقتاً كل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الفعلية.

وتتضح في كتاب «النقائض» قوة هذا التعارض، على النحو الذي يشعر به البدو أنفسهم، من استخدام كلمة قعود للجمل الذي يركبه من يرعى المواشي ذوات القرون... والأصل الثلاثي هو «قعد» بمعنى جلس واقعى، ومن هذه الكلمة تشتق أيضاً كلمة «قعاد» (بكسر القاف وفتح العين) للإشارة إلى أولئك الذين لا يذهبون للحرب والقتال. وقد حدد عالم الاجتماع العراقي «علي حسين الوردي» هذا التضاد بقدر أوفر من الوضوح في المحاضرة التي ألقاها عام ١٩٥١ عن شخصية العراقي، فهو يرى أن ثمة نظامين أو نسقين مختلفين للقيمة في المجتمع العراقي: «ثقافة بدوية تميل إلى الحرب من ناحية»، «وثقافة قروية مسالمة من ناحية أخرى».

«وقد ترتب على هذا وجود نسقين مختلفين للقيم في العراق: أحدهما أساسه الاعتقاد في القوة والشجاعة والغلو في تقدير الكبرياء، والثاني أساسه الاعتقاد في العمل والصبر وقبول الضرائب والطاعة والكد»(٤).



□ رحل حولاني، متحف الشعوب، ڤينا، مجموعة فالتردوستال.

وكما ذكرت آنفا فإنني في منهج هذه الدراسة أبدأ من الأنواع المختلفة للرحال (جمع رحل أو سرج) وأوضاع الركوب المرتبطة بها، وفي الجزيرة العربية يستخدم رعاة الإبل حاليا نوعين مختلفين من الرحال، ومن ثم يمكن تصنيفها في قسمين: أحدهما خاص بالمحاربين وهو معد لهذا الغرض، والثاني معد بحيث يصلح للنقل فقط.

(أ) المجموعة الأولى وتوضع على سنام الجمل، ورحلها الخشبي معد وفقاً لمبدأ القبو (المنحني)، (أنظر ٣ ــ ١) ويتصل القبوان (زلاف) كل بعقدته المطولة (رأس) بالجانبين بواسطة دعامتين متقاطعتين (المسكبين). أما الرحل كله فيبلغ ارتفاعه ٥٨ سنتمترا، وعرضه ٥٢سنتيميترا وتوضع العقدة الأمامية على بعد ما بين ٤٨ سم إلى ٥٠ سم من العقدة الخلفية، في حين يتم ربط الأجزاء الخشبية بعضها مع البعض الآخر بواسطة شرائط من جلد الغزال ــ المعد قبل أن يجف، ويلف حول المفاصل بحيث يجعل الرحل في وضع يسمح ببعض المرونة. أما حزام الرحل (المحقب) والوسادة التي يجلس عليها (المفراي) ووسادة أخرى للقدم (مرقأ) فتربط بالقبو الأمامي، وجميع هذه الوسائد من الجلد المحشو بصوف الأغنام... وقد أطلق على المجموعة التي تستخدم هذا النوع مجموعة «الشداد»، من الإسم العربي لهذا النوع من الرحال... وتنتمي إلى هذا النوع معظم قبائل رعاة الإبل الموجودة حالياً في الجزيرة العربية.

(ب) والمجموعة الثانية تجلس على عجيزة الجمل أو (المذيلة) (وهي الحزام الذي يربط تحت رباط الذيل) وذلك على وسادة (حاوية) توضع خلف السنام وتثبت بواسطة حبل مع قبوي الرحل والذي يتم تثبيتها بواسطة حزام الرحل حول أعلى كاهل الجمل... وهذا النوع من الرحل يطلق عليه في الجزيرة العربية لفظ «حولاني» ولهذا فأنا أطلق على هذه القبائل المجموعة الحولانية.

ويكشف هذان النوعان من الرحال الاختلاف في تطور الركوب عند القبائل المستخدمة للابل... وسأحاول من خلال فحص الرحال التي عثر عليها ضمن البقايا الأثرية المتخلفة عن الشرق القديم أن أعطي فكرة عن هذا التطور، ونظرا لقلة ما عثر عليه من هذه البقايا التي أمكن التوصل إليها من بعض الأماكن، فإن ذلك يحتم علينا أن ندرس من حيث المبدأ قيمتها من حيث إنها دليل وبرهان مع مراعاة أن يشمل هذا الفحص، بالإضافة إلى التماثيل، عظام الدواب من فصيلة الإبل، وبعض الخطوط والنقوش التي تشير إليها... وتتكون هذه المادة من حيث الكمية والمصدر من بقايا متفرقة خلال المراحل المختلفة

العديدة لمراكز الحضارة المتقدمة في العراق وفيما بين النهرين وما يجاوره، وتعتبر المخلفات دليلاً بالغ الأهمية على وجود اتصال بين شعوب الحضارات المتقدمة وبين غيرها من الجماعات التي تقتني الإبل، ومع أن هذه البقايا تدل على أن هذا الاتصال لم يكن وثيقاً، إلا أن ذلك لا ينفي وجود الجماعات التي تقتني الجمل العربي وحيد السنام خلال العصر الألفي الثالث قبل الميلاد، والتي نمت وبرزت في فترات غير منتظمة على مشارف وداخل المنطقة ذات الحضارة المتقدمة. وهذه المقولة العامة هي كل ما نستطيع أن نستخلصه من هذه المخلفات، ربما مع استثناء أن بعض هذه الآثار يبين كيف كان ركاب الجمال يمتطون جمالهم وكيف كانوا يستقرون فوقها. كذلك يجب أن نتذكر:

(أ) أن شبه الجزيرة العربية كانت تعتبر أرضاً مجهولة في الفترة السابقة لظهور المؤرخين.

(ب) أنه من الصعب الحصول على دليل أثري لثقافة القبائل الرحل، حيث إن معداتهم صنعت من مواد لا تتحمل البقاء لأمد طويل، وبناء على ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول الكثير عن الأصول السلالية لمالكي الإبل، أو القول فيما إذا كانت هذه السلالات عبارة عن شكل متطور من أشكال الاقتصاد الزراعي المختلط، أو أنها نشأت من مرحلة أكثر سمواً من مراحل مجتمع الصيد، كذلك فإننا لا نستطيع أن نحدد بشكل قطعي مكان وزمان هذا التطور لتاريخ الجزيرة الثقافي[٥]، وكل ما يمكننا أن نقوله في الوقت الحاضر هو أنه منذ العصر الألفي الثالث قبل الميلاد حتى النصف الأول من الألف الثاني كانت توجد جماعات مالكة للإبل قد اتصلت عرضياً وبصورة غير منتظمة بسكان الحضارة المتقدمة، ولا نعرف هذه الجماعات من حيث أصولها السلالية أو لغتها، ويصعب جغرافيا تحديد أراضيها على وجه الدقة.

ومن العسير تحديد قيمة المصادر التي ناقشناها من قبل، وذلك أن المادة الأثرية المتوفرة كان مصدرها الوحيد أصحاب الحضارة المتقدمة، ولم تكن من نتاج رعاة الإبل أنفسهم، وبالتالي فإن هذه المادة الأثرية تتحدث فقط عن رعاة الإبل الذين ارتبطوا بصلات مع أصحاب هذه الحضارات المتقدمة. وعلى الرغم من هذا التحفظ، فإننا سنمضي في فحص المادة الأثرية من حيث ما قد تدل عليه من عادات الركوب، والأسلوب الفني (التكنيك) الخاص بالركوب، ومن حيث تكوين الرحل. ومن هذا المنطلق سنحاول مناقشة بضعة أسئلة هامة، منها على سبيل المثال: كيف يمكن — لأغراض الدراسة المقارنة — تقييم جماعات رعاة الإبل التي لم تترك دليلا ما ينبيء عن أنها كانت يوما من فئات «المحاربين الراكبين». والملاحظة الأولى، وهي أن الإبل تمتطى حتى عصرنا الحاضر على السنام وعلى العجز على حد سواء، تثير عدة أسئلة:

(أ) أين يمكن لراكب الجمل أن يأخذ مكانه؟

(ب) أي مقعد من المقاعد يحقق الركوب الأفضل؟

(ج) أي مقعد كان الأسبق في الاستخدام؟

يستخدم الراكب في ركوبه ثلاثة مقاعد هي: أعلى الكاهل — السنام — العجز (المنطقة الخلفية). وبشكل عام يستعمل النوع الأول في المسافات القصيرة، ويكون غالباً وسط قطيع من الدواب أثناء الرغي، ويمكننا اعتبار كل من العجز والسنام من المقاعد.

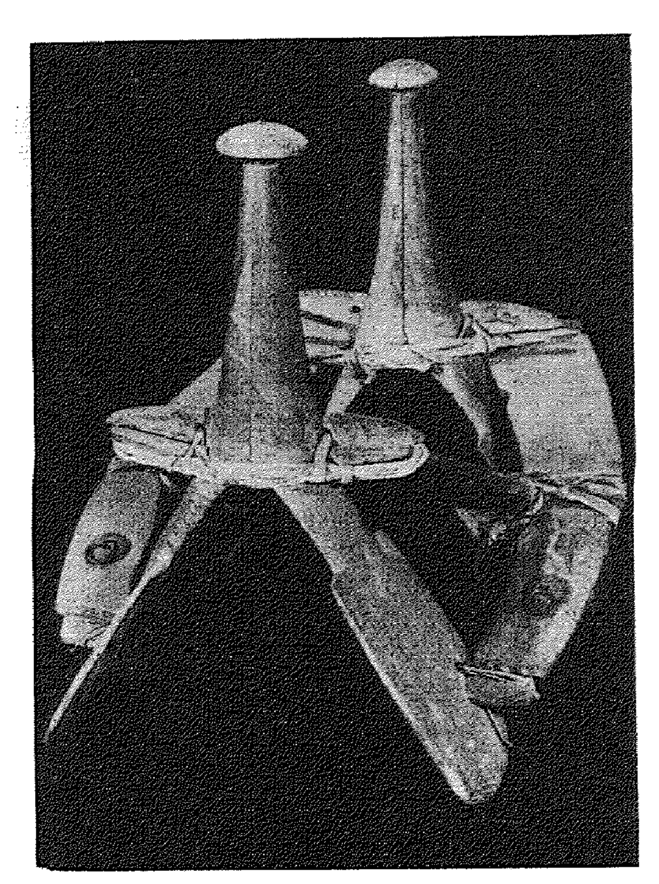
وفيما يلي بعض البقايا والمتخلفات الأثرية التي توضح وضع بعض الرجال وهم يمتطون عجز الجمال:

١ — أثر من الحجر الجيري لراكب جمل من تل الأسمر (العصر الألفي الثالث قبل الميلاد).

٢ — تمثال صغير لرجل يمتطي جملاً سريعاً من «تل تاناخ» (العصر الألفي قبل الميلاد).

٣ — تمثال صغير لجمل من اليمن (العصر الألفي الأول قبل الميلاد)[٦].

وتشير هذه الآثار إلى أن الرعاة كانوا يمتطون الإبل من عند عجزها، وذلك في العصر الألفي الثاني والثالث قبل الميلاد، أما بالنسبة للجنوب فكانوا يتبعون هذه الطريقة في العصر الألفي الأول. ويرجع الدليل الأثري على امتطاء سنام الجمل إلى النصف الأول من العصر الألفي الأول، ويتضح على سبيل المثال من الرسم البارز لراكب جمل «تل حلف» (القرن التاسع قبل



□ رحل شداد، متحف الشعوب، فيينا، مجموعة فالتر دوستال.

الميلاد) ومن رسوم راكبي الجمال السريعة في عصر الآشوريين المحدثين، ومن ثم فمما لا شك فيه أن الركوب على العجز كان الطريقة الأولى لركوب الجمال بين قبائل رعاة الإبل، ويتضح من الأدلة الأثرية أن الركوب على السنام كان مرحلة تالية، وهنا يواجهنا أول تباين أثنوجرافي[٧]. فقد كان راعي الإبل في شمال الجزيرة العربية أول من يركب على السنام، في حين استمرت القبائل في جنوب الجزيرة في ركوب العجز وذلك حسبما تنبىء الأدلة الأثرية والأثنوجرافية. وكما ذكرت من قليل فإن التحول في الشمال من طريقة إلى أخرى في الركوب، حدث في النصف الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد.

ومما لاشك فيه أن الطريقة الثانية كانت تطورا حاسما جدا في وقتها في أساليب الركوب، حيث إنها على النقيض من الطريقة القديمة، أتاحت للراكب تحقيق أعلى معدل للسرعة بواسطة جمله، ويعد هذا عاملا أساسيا في تطور رعاة الإبل كقوات محاربة راكبة، ومنذ ذلك الوقت أصبح في مقدور راكب الجمل في شمال الجزيرة العربية أن يقطع مسافات كبيرة على نحو أسرع، وترتب على ذلك اكتشافه للمراعي بطريقة ايسر، وأن يشرف على رعي أعداد من الإبل أكبر من ذي قبل. وهذا التفسير لا يعتمد على أرقام مقارنة عن مدى السرعة في كلتا الحالتين، وإنما يعتمد في المقام الأول على أقوال البدو أنفسهم، أي على التقدير الذاتي. ومع ذلك فإنه لا يتعارض مع البيانات التاريخية القليلة المتاحة عن غزو رعاة الإبل للأراضي الخصبة وإنني أميل كذلك لهذا الحكم استنادا إلى عدد البقايا الأثرية التي تبين راكب السنام في مقابل راكب العجز)، وهي كبيرة بدرجة غير عادية، وأرجع ذلك إلى التطور الذي طرأ على أسلوب الركوب، لأنه منذ ذلك الحين أصبح رعاة الإبل يشكلون تهديداً لسكان المدن الذين بدأوا يهتمون بهذه الظاهرة. ومن الدلالة بمكان في هذا المقام أن نجد تقريرا في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ رعاة الإبل يرجع تاريخه إلى عام ٨٥٤ قبل الميلاد. عن المساعدة التي وضعها الجندوبي العربي تحت تصرف الأمير الحاكم لإحدى المدن السورية، وهي عبارة عن (١٠٠٠) ألف من الإبل السريعة[٨].

وترجع الآثار الأولى التي توضح تركيب الرحل إلى الألف الأول قبل الميلاد وهي تكشف عن هوية الرحال ذات الوسائد، أو نوع هذه الوسائد، ومن أقدم الآثار المتوفرة في هذا المجال (من آثار «تل حلف» كما سبق الإشارة) نرى الوسادة قائمة الزاوية مثبتة بواسطة حزامي السرج المتقابلين. ويتضح من الرسوم الآشورية الحديثة أن هذا النوع كان مستخدما خلال الفترة التي تعنينا، حيث يبدو أنه مماثل لتلك الأنواع المستخدمة اليوم في حزام الرحال. كذلك فإن هذه الرسوم تعد أفضل دليل إثنوجرافي حيث إنها توضح أول أثر ثقافي خارجي يطرأ على قبائل رعاة الإبل الشماليين (من القرن الثامن حتى السابع قبل الميلاد). وبالنسبة للرحل ذي الوسادة في صورته التي عثر عليه فيها من قبل مزوداً بحزام يلتف حول بطن الجمل، فقد أضيفت إليه ثلاثة عناصر جديدة نشأت عن الفروسية المعاصرة: قماش الرحل والشرائط المرتبط به حول الصدر وذيل الحيوان، ولربما وصلت هذه الإضافات المتعلقة بالإبل إلى الرعاة عبر احتكاكهم بالحضارة

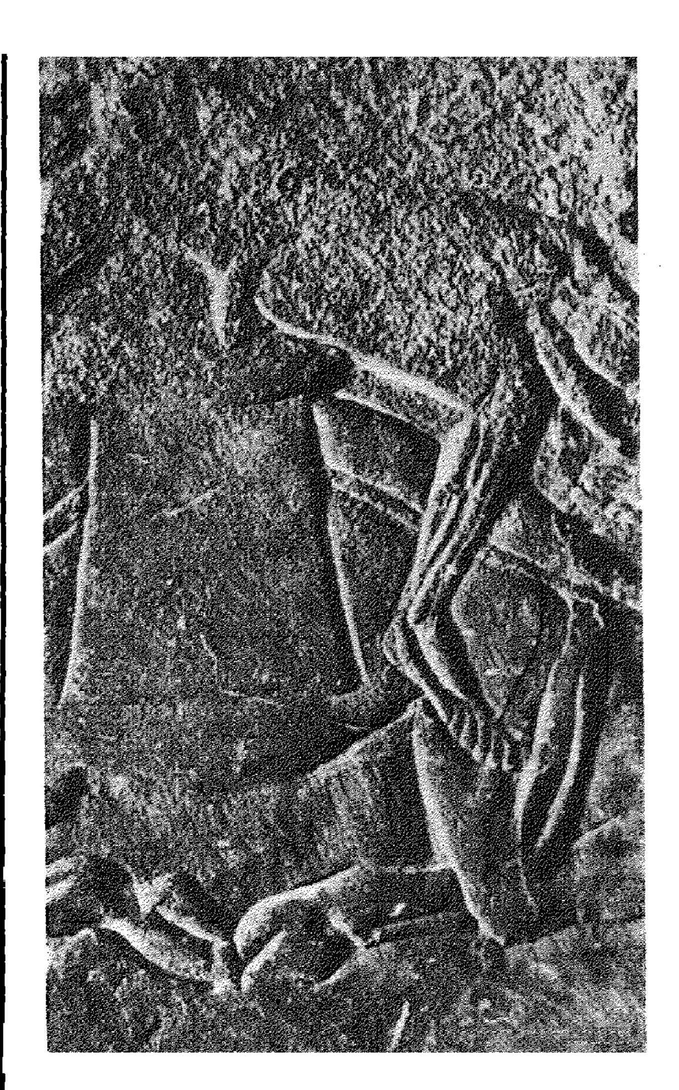
المتقدمة. ومن هذا المصدر نفسه تلقى رعاة الإبل ما حفزهم على التوصل إلى العديد من الاختراعات التكنيكية، وعلى سبيل المثال، يوضح الرسم ١٠ ـ ١١ من نسميه براكب العجز (المؤخرة) الذي يمتطي الجمل خلف الراكب تماماً، ويطلق السهام على العدو من مكانه وكأنه يركب عربة حربية. وهذا الشكل يظهر في الشعر العربي القديم مثل «الرديف» و «الزامل»، ولكن الرديف تغيرت وظيفته على النقيض من راكب العجز (المؤخرة) في العصور الآشورية الحديثة، فقد استخدم هجينه (جمله) فقط في الوصول إلى مسرح المعركة، وهناك يستبدله بحصان قد احضره معه ليخوض به القتال. وهذا الاختلاف بالنسبة لراكبي المؤخرة يمكن أن يتطور في حالة ما إذا ما صار لدى قبائل الإبل جياد ايضا[٩].

وثمة دليل آخر من هذه الحقبة، وهو تمثال صغير لجمل من اليمن يوضح رحلا مماثلا للرحل الحولاني الأخير، ولكن ينقصه القبوان الصغيران للشكل الحديث. ونستخلص من هذا أن قبوي الرحل الحولاني قد أضيفا إلى الرحل اليمني القديم ذي الوسادة، وأن الشداد لا يمكن أن يكون قد اقتبس من قبوي الحولاني. وبهذه النتيجة ينتهي تحليلي لآثار راكب الجمال من الألف سنة الأولى قبل الميلاد.

والموضوع الثاني الذي أتناوله هو ظهور «الشداد». ومعرفتنا بالشداد ـ وهو نوع من الرحال ـ ترجع من الناحية الأثرية إلى المخلفات التي وجدت في تدمر «بالميرا» (شمالي الجزيرة العربية) والتي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ومما يؤيد ذلك ظهورها على ألواح القرابين في نفس الفترة في تدمر أيضاً. وكما أشرت في مقدمتي فإن المصدر الرئيسي للشداد هو قبو الرحل الذي اخترعه خياله وسط آسيا[١٠]... ولنحاول أن نعد تصنيفا للرحل المقوس، وهو عامل مساعد ذو فائدة غير عادية بالنسبة للركوب، باعتبار أن الرحل المقوس لم يطور على مراحل وإنما اكتشف مرة واحدة، كما تشير الأدلة الأثرية، ومن هذا الرحل نشأت ـ كما أوضح يوهانسن بشكل مقنع ـ أشكال عديدة متباينة. وفي هذه الحالة ننتهي إلى أن الشداد هو عبارة عن تعديل لسرج الحصان ذي القبو بحيث يصلح للإبل. يؤكد هذه المسألة شيء لا يمكن أن نتجاهله في هذه المناقشة هو أن أول ظهور للشداد في الآثار يرجع تاريخه إلى نفس الفترة التي ظهر فيها أول أثر لخيالة الشرق الأدنى وهم يمتطون ظهر السرج المقوس (ذي القبو)، إن الفرق في التركيب بين رحال الإبل في الألف الأول قبل الميلاد والشداد يستبعد الافتراض البديل لنشوء شداد مستقل عند رعاة الإبل. ومن حيث الأدلة الأثرية فليس لدينا تفسير آخر لنشأة الشداد، فعلى ضوء المعلومات المتاحة يمكن القول أن البارثيين هم الذين ادخلوا الرحل المقوس (ذا القبو) إلى مشارف الجزيرة العربية. ومن ثم فإن الشداد يمثل التجديد الهام الثاني الذي تلقاه رعاة الإبل الشماليون من الفرسان. وهذا الرحل الجديد هو ثمرة الاحتكاك الثقافي بين الإيرانيين والساميين، ويعد أقوى العوامل في تطوير النواحي الحربية في حياة رعاة الابل. فلأول مرة يتوفر لراكب الإبل رحل يهيء له كل الاستقرار اللازم والمساندة المرجوة في القتال وهو فوق ظهر الجمل. وواكب ذلك تغير مماثل في أسلحته، فبدلا من القوس والسهام التي كان يستخدمها في مرحلة الرحل ذي الوسادة نجده الآن يستطيع أن يستخدم الرمح الذي يستخدمه الفرسان في حربهم.

وبقدر ما نرى الآن فإن هذه التطورات الفنية: الركوب على السنام، تطور إعداد الرحل نتيجة عناصر مستعارة من ركوب الخيل، تطور في أساليب الحرب عن طريق اقتباس مبدأ عربة الحرب وملاءمته (تكييفه) مع ركوب الإبل، استخدام القبو (المقوس) في رحال الإبل، فإن هذه التطورات قد تركزت في قبائل رعاة الإبل الشماليين. أما القبائل الجنوبية فقد تمسكت بنوع من الرحال ذات الوسادة التي ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا، كما كان الحال في الألف سنة الأولى. وعلى ذلك، واستنادا إلى مراحل التطور المختلفة كما أثبتناها، يمكن تقسيم رعاة الإبل المختلفة إلى مجموعتين: الشمال المتقدم والجنوب المحافظ.

وتبين من الدليل الأثري وعلم الإثنوجرافيا الحديثة أن الركوب على العجز (المؤخرة) كان



□ تصوير لراكب جمل في تل خلف، القرن التاسع قبل التاريخ.

الأسلوب الشائع بين كل رعاة الإبل في مرحلة ما من تطور هذه القبائل، ولا يمكن حتى الآن تحديد تاريخها على وجه الدقة. وظهرت بوادر تغيير بين رعاة الإبل حوالي نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول انتهت بتقسيم شبه الجزيرة إلى قسمين. ومن المحتمل أن يرجع ذلك التقسيم إلى الاحتكاكات المتعددة بين قسم المجموعة الشمالية ومنطقة الحضارة المتقدمة. وقد ورد في أحد النصوص وجود مركز لتربية الحيوان قريبا من «نيبور» يرتاده المشترون من بلاد ما بين النهرين وأيضاً من إيران، حيث كان هذا العمل يشكل جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد إذ ذاك، وهذا يشير إلى أن الحضارة المتقدمة في هذا المجال كان لها بعض الأثر فيما وراء حدودها المباشرة. ولذلك ــ وتحت ظروف معينة ــ يمكن تفسير التحول من الركوب على العجز (المؤخرة) إلى الركوب على السنام، بأنها وليدة هذه الاحتكاكات، ولكنني لا أستطيع إثبات ذلك، فلا يمكن إثبات أن رعاة الإبل الشماليين كانوا على اتصال مع الحضارة المتقدمة خلال موجات التوسع، وإن كان ذلك ممكناً، هذا بخلاف رعاة الإبل في الجنوب فلم يتح لهم الاحتكاك مع مراكز الحضارة المميزة، ومن ثم افتقدوا هذا الحافز الهام للتطور. وتكمن الأسباب الرئيسية لذلك في جغرافية جنوب الجزيرة العربية والوضع الثقافي هناك، وفي التطور المتأخر نسبياً للحضارة المتقدمة. في العصور القديمة ظهرت بعد ذلك بنحو ألف سنة تقريباً النتائج الأولى للحضارة المتقدمة في بلاد ما بين النهرين، فإذا ما رجعنا إلى تاريخ المرحلة الثانية لبلاد ما بين النهرين المتقدمة فعلا مع تأسيس المملكة السامرية (قبل عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد) وبداية الحضارة المتقدمة لجنوب شبه الجزيرة العربية خلال القرون الأخيرة من الألف سنة الثانية، فإن هذه الفترة تؤكد التأخير في التطور الثقافي في الجنوب الذي يمكن أن يرجع إلى العوامل الجغرافية فقط. وفي التحليل النهائي فإن حضارة بلاد ما بين النهرين هي نتاج احتكاكات حضارية وتأثرات حضارية عديدة، وهو أمر لا يمكن حدوثه إلا حيث تحول جغرافية المكان دون تكون جيوب ثقافية محلية منعزلة. ومن ناحية أخرى فإن شبه الجزيرة العربية كانت منعزلة تماما. ولم تشكل أي نوع من الجسور التي تصل آسيا بجيرانها في القارة بحيث تسهل الاحتكاك الضروري للإنجاز الابداعي، بل على العكس فقد كانت تعزلها عن المراكز الثقافية في الشمال مفازات وقفار وعرة (صعبة الاختراق).

لهذا السبب فقد بدأت التأثيرات الحضارية الحاسمة في زمن متأخر نسبياً ــ في السنوات الألف الأولى السابقة للميلاد ــ وراحت تخترق شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب، وكان لهذا أهميته الكبرى بالنسبة لرعاة الإبل الجنوبيين. وكانت البداية المتأخرة نسبياً للحضارة العربية الجنوبية عنصراً له أهميته في اتجاهاتها المتحفظة، لكن العامل الأكثر أهمية تمثل في نقص الاحتكاك المباشر لهم بالمجتمعات التي قامت بتربية الخيول، تلك التي استمدت

القبائل الشمالية منها أعظم دوافعها الكامنة. وإذا ما عدنا إلى تعريفنا للبدوي باعتباره راعياً للابل اعتاد على خوض القتال على صهوة جواده، يمكننا أن نصنف أولئك الذين ينتمون إلى الألف الثالث قبل الميلاد — وحينما لم تكن أسس المجتمع المحارب ذي المستوى الرفيع قد وضعت بعد .. بدوا أول، ويقصد من هذا الإسم أن نظهر كيف تولدت مرحلة عن أخرى. هذا التاريخ للانتقال من البدو الأول للبدو الخلص، تؤيده أبحاث ف. جاسكل (W. Gaskel)[١١]. فقد أكد في أبحاثه التي أقامها على مادة أخرى ومن منطلق مخالف لذلك الذي بدأنا منه ما يماثل هذا الذي ذهبنا إليه، وهو لم يتتبع تكوين المجتمع البدوي إلى تلك الفترة التي مضينا نحن إليها فحسب، وإنما أكد أيضاً نموه على يد رعاة الإبل الشماليين وتلك بالتأكيد ليست محض مصادفة.

لقد بدأت المرحلة البدوية المبكرة حينما بدأت القبائل للمرة الأولى في رعي الإبل (في تاريخ لا يمكن تحديده على نحو دقيق)، ودامت حتى القرن الثالث أو الثاني بعد الميلاد. وتشمل تلك المرحلة كلتا المجموعتين: المتطورة والمحافظة، وأعقبت ذلك مباشرة المرحلة البدوية الخالصة، ولكنها اقتصرت على المجموعة المتطورة وحدها، ويمكن أن يقرر علم الإثنوجرافيا اليوم موعد وجودها، بالطبع هنالك مخلفات لتأثير البداوة الخالصة يمكن اكتشافها داخل الجماعة المحافظة مثل تقوية السرج الحولاني بدعامتين عبر أعلى الكاهل على نحو ما وجد لدى هذه المجموعة، ولكن لماذا أصرت هذه المجموعة على الجلوس على العجز، واستخدام سرج غير مناسب للقتال حتى رغم معرفتهم بالشداد الذي يعطي لراكبه مثل هذه المزايا في الحرب؟ إن هذا الاتجاه الواضح للعادات القديمة للتشبث بالبقاء، بالإضافة إلى التمسك بالسمات المميزة للمرحلة البدوية المبكرة، يشير إلى أنه يمكن افتراضا وحتى اليوم أن نجد بعضنا من مخلفات مرحلة البداوة المبكرة.

انطلاقا من الدور الرئيسي الذي لعبته أنماط الرحال يجب أن نسأل أولاً عما إذا كانت هناك عناصر أخرى مميزة قد ارتبطت بالرحل الحولاني في منطقة استخدامه الحديث؟ إن الجزء الثاني



□ تصوير لراكب جمل اشوري، القرن الثامن والسابع قبل التاريخ.

من هذه الدراسة مخصص لبحث هذه المشكلة ضمن غيرها من المشاكل، ولسوف نقتصر هنا على النتائج الأساسية. إن المعلومات الإثنوجرافية تظهر الرحل الحولاني مرتبطا ببعض العناصر الحضارية وهو ارتباط أطلق عليه «وحدة الحولاني» (Hawlani unit). وهي تشمل: رحل للحمل (قتب)، ورحل مخصص للنساء يعرف باسم الطمة يقوم على فكرة الرحل الحولاني، وأنماط خاصة من السلال نشير منها إلى أوعية اللبن بصفة خاصة، وبعض الجاويات الجلدية مثل الركائب والأجولة المعدة لحمل الطعام والعقالات الجلدية والأنسجة البدائية، وكسمة سلبية: لا توجد الخيام إلا بين قبائل الصيار والكرب وآل رشيد الذين تبنوا جميعاً السكنى في الخيام من خلال الاحتكاك بقبائل الشداد. وقد اظهرت من خلال التحليل المقارن أهمية هذه

الوحدة الحولانية، وعبرت عن احتمال أن تكون هذه الوحدة ظاهرة أصلية. ومن منطلق الحقائق التي لخصتها من قبل، يمكن للمرء أن يجيب على ذلك السؤال بالايجاب. ولكن إلى أي مدى يمكن ان تشرح هذه الوحدة الحولانية باعتبارها من بقايا مرحلة البداوة الأولى؟

تعتمد الإجابة على العثور على عناصر حولانية بين قبائل الشداد، لهذا السبب فإننا يجب ألا نعتمد فحسب على الدليل الإثنوجرافي بل أيضاً على المؤلفين اللغويين العرب الذين يقدمون في بعض الأحيان إشارات مفيدة عن حياة القبائل العربية القديمة.

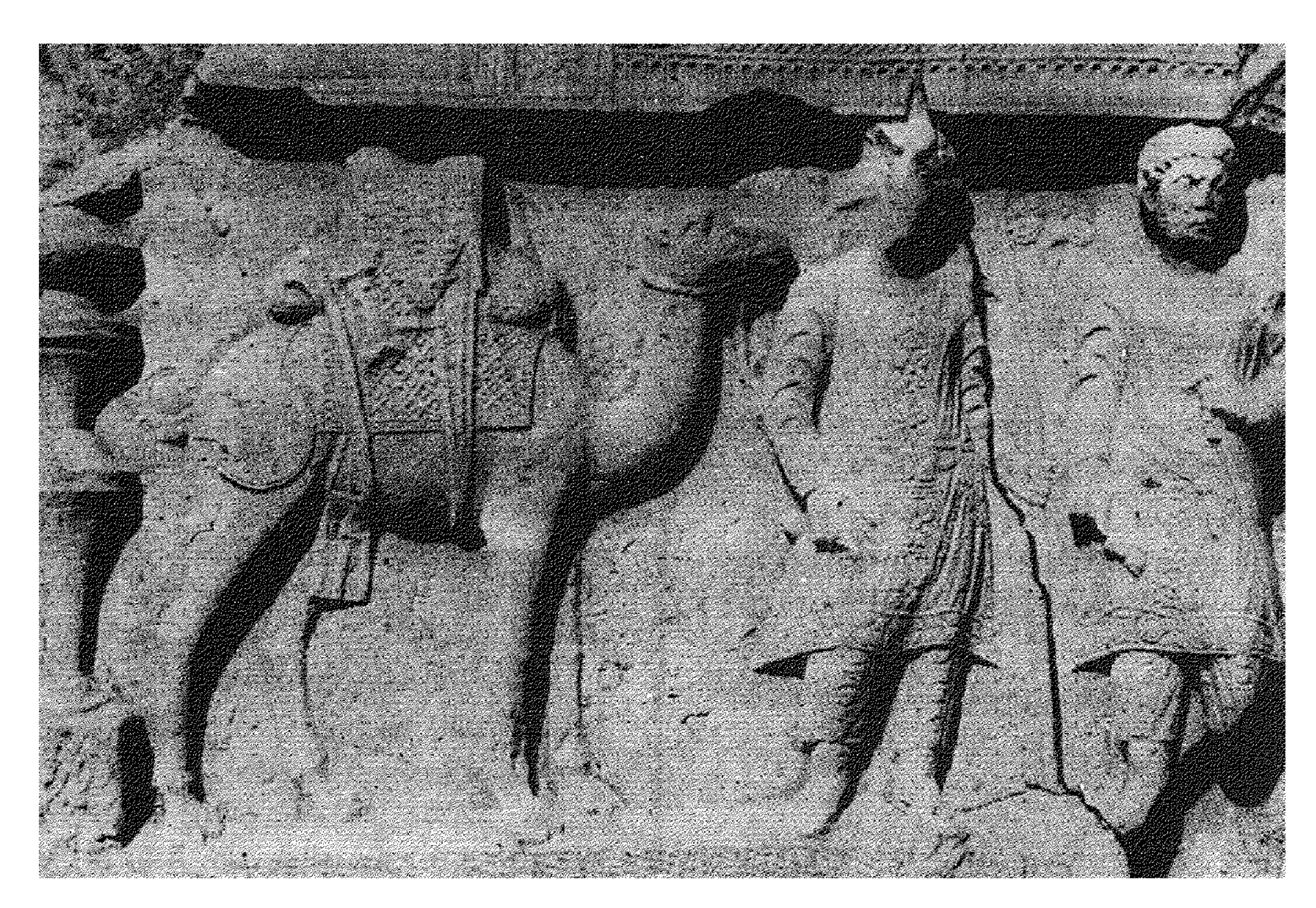
لا يجد المرء أي أثر أو إشارة في شعر الجزيرة العربية لأي من الأواني ذات القيمة التي ترتبط بالوحدة الحولانية، تلك الأواني المعدة من خوص زعف النخيل والمطرزة بالجلد، ولكن هناك نوعين من الرحال من النوع الحولاني هما القتب والطمة وجدا في قبائل الشداد.

(أ) ورد ذكر القتب في الشعر العربي القديم (انظر النقائض ص ٨٠٤) وفي لسان العرب، ولكن لسوء الحظ بدون وصف تفصيلي، فقد ذكر لسان العرب (في الجزء الثاني ص ١٥٤) أن النسوة الحوامل كن يستخدمن القتب للتعجيل بالوضع، وفي العصر الحديث يشمل التجهيز النموذجي «للروالا» صورة أكثر تطوراً من القتب، وهي عبارة عن وسادة على شكل حدوة حصان تسمى «وثرا أو ميثارا» توضع حول السنام، وثمة نمط خاص منها يسمى «الحيداجا» يستخدم في «الروالا» وهي توضع على الوسادة المسماة «بالوثر»، و «الحيداجا» تختلف عن الرحل الحولاني، وهذا «الوثر» يذكر المرء بالوسادة التي يطلق عليها إسم «الحاوية» في الشعر العربي القديم في الجزيرة العربية (انظر النقائض ص ٩٥٨ ولسان العرب ٢٢٨/٩) والتي قيل أن الرجال والنساء كانوا يستخدمونها على حد سواء.

وهناك صورة فنية لهذا السرج في إحدى مقامات الحريري التي يرجع تاريخها إلى عام ١٢٢٥ ــ ١٢٣٥، وقد أوردت هذه المصادر أنواعاً عديدة من السروج والرحال وذكرتها بالإسم، وربما ينتمي بعضها إلى النمط المعروف بالقتب وهي «الكفل، والكور، والرحل»، والكفل سرج يشبه الوسادة يوضع حول السنام ليكون بمثابة مقعد للراكب (لسان العرب ١٠٧/١٤) والكور يوصف بأنه مماثل للرحل ويستخدم في حالة ركوب المهور. ويثير وصف الرحل ذاته كثيراً من اللبس، فهو يشبه حسب وصف الجوهري (لسان العرب ٢٩٣/١٣) القتب وإن كان أصغر منه قليلاً، وإذا ما اكتفينا بإشارة الجوهري تعين علينا أن نسوق دليلا آخر على وجود النمط المعروف بالقتب حيث أن وصف الجوهري لهما يجعلهما متماثلين، غير أن الرحل يستخدم بصفة عامة لوصف سروج الرحال وهكذا نجد في لسان العرب (٣٩/١١) أن الشداد كان منذ وقت مبكر يسمى رحل «الزلافات»، وهو ما يعني في الحقيقة سرج الحيوان الحافر ويشير إلى أن الشداد قد استخدم بعد ذلك بوقت طويل للإشارة للسرج المنحني.

(ب) أما سرج النساء المعروف باسم الطمة فقد أورده اللغويون كسرج تحت نقاله بدون مظلة يعد للنساء، ويتفق هذا الوصف في جوانبه الأساسية مع الطمة الموجودة حالياً في جنوب الجزيرة العربية، لكن الإشارات التي وردت في لسان العرب لا تسمح باستخلاص أية نتائج عن تركيب الطواما، ونلاحظ أن هذه الأخيرة تشبه سرج المشاجير وهو ــ أي المشاجير ــ فيما ذكره لسان العرب نقالة للنساء أصغر من الهودج وذات بنية علوية لا سقف لها، وتعلو الهودج تركيبة على شكل قبة تصنع من الألواح الخشبية (انظر لسان العرب ٢١١/٢). ومن الجدير بالذكر لخدمة أغراض بحثنا أن نلاحظ أنه رغم هذه الأوصاف غير المتسمة بالدقة فإن الطمة والطواما اللتين ورد وصفهما في لسان العرب يمكن تمييزهما باعتبارهما سرجين تستخدمهما النساء ولا تحيط بهما الستائر، وتستخدمهما قبائل وسط وشمال شبه الجزيرة العربية.

وقد وجد في تمثال أثري لجمل (يرجع تاريخه إلى فترة تتراوح بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد) تكوين مشابه للطمة له تركيبة إضافية مماثلة يمكن أن ترجع إلى مرحلة البدو الأول من المجموعة المتقدمة. وإن لم يكن ذلك التكوين



□ نقوش بارزة لجمل عليه رحل من نوع الشداد، نحو القرن الثاني او الثالث بعد التاريخ.

مماثلاً بالضرورة أو مشابهاً لسرج المرأة، ومع ذلك ففي العصر اليوناني الروماني عثر على تماثيل فخارية في سوريا تبين مثل هذه التركيبة الإضافية متصلة بسرج المرأة ــ وهذا يثبت أنه قد وجد في مرحلة البداوة الأولى سرج للنساء مبني على فكرة السرج ذي الوسادة، ومن ثم يمكن الاعتماد على الدليل السابق الذكر لتقرير أن السروج المنتمية للنوع الذي يرجع إلى الوحدة الحولانية كانت منتشرة على نطاق واسع بين رعاة الإبل في الجزيرة العربية، ومع ذلك فإن القبائل المتقدمة أدخلت تطويرا على هذا النوع في تاريخ لاحق، بأن جعلت من الوسادة التي كانت تستخدم على الحزام وسادة طويلة تستخدم عند الركوب على السنام، وهذا الميل إلى التطوير معدوم لدى مجموعة القبائل المحافظة، ويقودنا انتشار السرج الحولاني إلى افتراض وجود تطور عام في مرحلة البداوة الأولى، وهكذا يتوفر لدينا تفسير أفضل لسلسلة من أوجه الشبه بين المجموعتين (أساليب وحدات الرعي، وتكتيكات القتال).

ويمكن للمرء أن يميز بضعة عناصر فحسب من الوحدة الحولانية في ثقافة قبائل الشداد، ولكن هذه العناصر كافية ــ إذ أن عددها بالطبع تحدده مصادر المعلومات المتاحة ــ نقول كافية لإعطاء درجة من إمكانية ترجيح افتراضنا بوجوب تصنيف الوحدة الحولانية القريبة العهد كبقايا من مرحلة التطور العامة للبداوة الأولى.

وكذلك يساعدنا تحليل الأصول الإثنوجرافية، ابتداء من الملابس المختلفة التي كان يرتديها الرجال من مجموعات الشداد والحولاني، في إلقاء بعض الضوء على ما أدى إليه قيام رعاة الإبل الشماليين المتطورين باستخدام الشداد، وقد وجدنا أن الغالبية الساحقة من رجال القبائل الجنوبية ممن درسناهم كانت ترتدي المئزر بينما كانت قبائل الشداد ترتدي قمصاناً سابغة تصل إلى الكعب وعباءات، وفي بعض المناسبات كانت ترتدي السراويل. هذا وقد أشرنا في مقام آخر إلى صعوبة التوصل إلى أية نتائج إثنولوجية حول الانتشار الكبير للمئزر في جنوب شبه الجزيرة العربية، ويبدو أن هذا النوع من الملابس قديم

جداً بين كل من الرحل والقاطنين في هذه المنطقة، فهل يمكن أن نأتي بدليل على وجود المئزر كذلك بين المجموعة المتطورة من رعاة الإبل؟ ولنصغ علاوة على ذلك في موضع التساؤل: إلى أي تاريخ يرجع الدليل على استخدام قبائل الشداد لملابسهم الحالية وما هو أصل هذا الرداء؟ إن السؤال الأول يعد نسبياً سؤالاً سهلاً. فراكبو الجمال حسب ما تظهره مخلفات الآشوريين الجدد كانوا يرتدون المئزر (انظر من ١١٠، ١١١). ومن الصعب الحصول على دليل فيما يتعلق بالملابس الحالية لقبائل الشداد وإن كان أقدم شاهد أدبي يرجع إلى الشعر العربي القديم ــ وعلى الأخص القصص الملحمية التي وردت في أيام العرب وحول البدو في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. إن بعض المصطلحات المستخدمة بالنسبة للملابس ما زالت مستعملة حتى الآن، على سبيل المثال لفظ «العباء» الذي يستخدم للرداء الذي يعلو باقي الملابس و(الثوب) للملابس بشكل عام، «والسروال» (وكان قبل ذلك لفظ السربال) للإشارة إلى ما نعرفه بالبنطلونات أن هذه المصادر ليست فقط دليلاً فيما يتعلق بالملابس، ولكنها تسمح بتحقيق بعض المدركات النفسية ذات القيمة لعلماء الإثنولوجيا، لأنها اظهرت بعض الفوارق الدقيقة التي غالبا ما تغفل (خلال مراحل التحول الحضاري)، هكذا يداخلنا العجب إذ ندرك من خلال ما ورد في «أيام العرب» إلى أي حد كان ارتداء الملابس بين البدو ــ كما هو الحال الآن ــ دليلاً على المكانة الاجتماعية، ولإيضاح هذا يمكننا أن نستشهد بعدة فقرات. فقد ذهب وفد للسلام من قبيلة عبس إلى الحارث بن عوف. وسأله أعضاء الوفد عما إذا كان قد رأى الحارث بن عوف، فأجاب وهو منهمك في العمل مرتديا رداء جلديا قصيرا، قائلا: إنه مع أهله ــ ثم ارتدى ملابسه. وذهب الوفد للبحث عنه ورجع أعضاؤه بعد أن ارتدى الحارث ملابسه، ولم تبدأ محادثتهم إلا بعد ذلك[١٢]. إن الدلالة الاجتماعية للملابس يمكن شرحها تفصيليا بصعوبة، إن حارث بن عوف بالتأكيد لم يكن عاريا، ولكنه كان يرتدي قطعة ملابس حول خاصرته أثناء عمله في خيمته. ولكن هذا كان مخالفاً لأسلوب حياة العرب إذ ذاك، تماماً كما هو الحال الآن إذا ما استقبل الوفد بالحالة التي كان عليها. وتوضح الفقرة التالية من الهجاء الشعور بالاحتقار حيال العري: «وتصفر الرياح حول خاصرتيه إذ سرق البعض قميصه»[١٣]. والقميص شأنه شأن الرداء الذي ورد في قصائد أخر. «كان أحد رجال بني زياد قد وقع في الأسر ولارجاعه فإن عمارة بن زياد استخدم الخديعة الحربية التالية ضد هبيرة بن عامر بن قشير بن كعب. فقد قال له: يقول الناس عنك إنك نحيل، فقال الآخر: لا سمح الله. فتحداه عمارة أن ينزع جبته، وبالفعل جذب هبيرة قميصه تمهيدا لخلع ملابسه، وفي هذه اللحظة بالذات انقض عليه عمارة وأخذه أسيرا»[١٤]. والتأكيد لوجود الملابس السابغة التي تغطي الأرجل أقل رسوخاً.

وعلى سبيل المثال يصف قاتل دريد بن الصمة ما صنعه فيقول: «وحين ضربته بسيفي خر صريعا على الأرض عاري الجسم وبدا باطن فخذيه وردفاه خشنا من أثر ركوبه الخيل عاريا»[١٥]. «ويروى عن الجساس أنه بعد مصرع كليب مر بقومه وقصبتا ساقيه عاريتان وهنا أدركوا أن ثمة كارثة قد حلت»[١٦] وفي موضع آخر من «أيام العرب» نجد إشارة مباشرة للسراويل: «لقد رأيت المحاربين بشعر متجعد وسراويلهم مصبوغة بالزعفران». وهناك إشارات عدة إلى العباءة.

وفيما يتعلق بأصل هذه الملابس فإن آثار العهد الأشوري الجديد التي تحمل صور المئزر، بالإضافة إلى ذكر ملابس «النهار» في القصص الملحمية، تحدد على الأقل الحدود الخارجية للفترة التي تغيرت خلالها ملابس رعاة الجمال في شمال شبه الجزيرة العربية، بالرغم من أنها دامت حوالي الف عام، وذلك بسبب الدلالة الاجتماعية المرتبطة بهذه الملابس، فهي تمثل نوعية من الحياة تختلف عن تلك التي ترتبط بالمئزر. وإذا استعدنا قصة الحارث بن عوف افترضنا أنه من المحتمل أن هذه الملابس لم تنشأ بين رعاة الإبل، وإذا بحثنا عن دليل أثري على هذا الافتراض من خلال الفترة المعنية، نجد نماذج مماثلة مدهشة لهذه الملابس في

المكتشفات الفنية من فترة حكم البارثيين الفرس في تدمر (بالميرا) التي كانت مركزاً أساسياً للتجارة في شمال شبه الجزيرة العربية حيث كان السكان قريبين من مجال التأثر بالحضارة الفارسية. ونحن نستخدم كلمة «مدهش» عن قصد، إذ إنه بالتحديد. من خلال تلك الجيرة، وفي هذه الفترة، نجد الأدلة الأثرية الأولى للشداد، وهذا كله يلقي ضوءا جديدا على عملية الاستعارة تلك. وقد نبه فيدينجرين (Widengren) إلى تأثير الإيرانيين على بالميرا (تدمر)، ليس فقط من حيث المعدات الفنية ولكن أيضاً بالنسبة لأسلوب الحياة والدين. وكما أكد سيريج (Seyrig) فقد كان سكان بالميرا يرتدون إلى جانب الملابس الأخرى، الزي الفارسي المكون من السروال والقميص والعباءة. وانتشر ذلك الزي بصفة خاصة بين أبناء الطبقة العليا[١٧]. وقد استعير السروال والعباءة من المحاربين الفارسيين، وأما القميص الذي يلبسه البدو فيمكن إرجاعه إلى ملابس الطقوس الدينية التي اكتشفت لوحة معمارية تمثلها في دورا ايروبوس (Dura-Europos)، ويعتقد انها تماثل الأردية التي كان الحكام الايرانيون يستخدمونها لأداء طقوس معينة[١٨]. ونحن نعلق أهمية كبرى على تفضيل الطبقة العليا من سكان مدينة بالميرا للملابس الفارسية، حيث يرمز هذا التفضيل إلى مستوى أرقى من الحياة تتأثر كثيراً بالمعتقدات الايرانية. وتوجد على سبيل المثال لوحة تمثل أحد أبناء بالميرا من ذوي المكانة الكبيرة يرتدي ملابس حامل النبال الفارسي. وكان الفرس يضعون الفروسية والرماية في مرتبة عالية، وذلك لأنهما مثال للفضائل الفارسية، ثم تبنتهما العناصر غير الفارسية المتصلة بالحاشية[١٩]. ومن خلال هذا كله، يمكننا أن نفترض بمزيد من الثقة أن الفرس قد نقلوا هذه الأشياء إلى الثقافة الحضرية للعالم الإغريقي السامي، ثم انتقلت بعد ذلك مع السرج المنحني إلى رعاة الإبل.

□ مناحيل أثناء الرقص، جنوب الجزيرة العربية.



وهناك لوحة أخرى من بالميرا تؤكد هذا الاعتقاد بقوة، حيث نشاهد جملا ذا سنام واحد عليه شداد يعتليه رجلان، أحدهما يتولى قيادته، وكلاهما يرتدي الزي الفارسي النموذجي على نحو ما أسلفنا ذكره. ونستطيع أن نتعرف على التأثير الفارسي بوضوح أكبر في «أيام العرب» حيث على سبيل المثال تصور لنا مطاردة أحد الجيوش لجيش آخر كما لو كانت سباقا للخيل، وهكذا فإنه في نهاية قصة حرب داحس والغبراء يقول قيس: «سوف أسمح بثلاثة اختيارات لشروط سباقنا، فإذا ما اخترت أنت أولاً فلي خياران زيادة عنك، والعكس صحيح إذا ما اخترت أنا أولا». ويجيبه حذيفة: «فلتبدأ أنت». فيقول قيس: «فليكن الهدف على مبعدة مائة رمية سهم». ويقول حذيفة: «سنسمح بالتدريب أربعين ليلة وسيكون المنطلق منطقة ذات الإصاد»[٢٠]. ومن المدهش كذلك أن نرى عمارة في قصة يوم الطلوح وقد ارتدى عمامة حمراء (وقد كان اللون الأحمر اللون الذي يرمز لطبقة المحاربين الفرس)[٢١].

ومن المحتمل أن هذه الرموز والعادات الفارسية التي ميزت الشريحة العليا من الجماعة المحاربة قد أدت إلى التطور الكامل بعناصر الفروسية بين رعاة الإبل، على الصعيد التجهيزي، من خلال السرج الجديد، وعلى المستوى الرمزي عبر تنظيم الرماية والسباق، للذين كانا على صلة وثيقة بأسلوب الحياة الجديدة والملابس التي مثلتها. وربما يمكن أيضاً إرجاع الشخصيات المثالية في الملاحم العربية القديمة إلى أنماط فارسية، فمن المؤكد أن فكرة الدم النبيل الراسخة بقوة بين قبائل الشداد لها جذور في عالم الفروسية الفارسي.

وأخيرا نود أن نشير إلى الارتباط الهام من الناحية الإثنولوجية بين المجموعة المتطورة والعرب العاربة، فإذا ما رجعنا إلى تطور الحياة البدوية كما أجملناها يجد المرء أن رعاة الإبل من المجموعة المتطورة الذين وجد لديهم أول أثر لمجتمع الفرسان هم من العرب العاربة، الذين كانوا، مرة أخرى، الفئة التي نقلت الفكرة الفارسية عن المحاربين الراكبين بين رعاة الإبل. هذا الارتباط الواضح يلقي ضوءا جديدا على الأصول العرقية للعرب، ويصور العناصر الثقافية والتاريخية التي حولت جماعة كان يطلق عليها أصلا الرعاة العاربة إلى طبقة حاكمة توسعت وشكلت أساس العرب على نحو ما نعرفهم الآن بمصطلحات علم الأجناس البشرية.

ملاحظات ختامية

لم يكن بوسعنا نظرا لعدم توفر المادة أن نناقش الزمان والمكان للذين بدأ فيهما رعي الإبل في شبه الجزيرة العربية، وكذلك لم يكن في مقدورنا الجزم بما إذا كان رعاة الإبل يشكلون فرعا متخصصا انبثق من مرحلة مختلطة بالاقتصاد الزراعي، أو أنهم انحدروا مباشرة من مرحلة كانوا يمارسون فيها الصيد، فما يذكره ما قبل التاريخ لنا عن الهيكل الاقتصادي الأساسي في مستوطنات العصر الحجري الحديث يحبذ فيما يبدو الافتراض الأول، لكن المكتشفات المادية تؤكد محسب الاحتفاظ بالماعز والأغنام والأبقار والخنازير، والجياد في بعض الحالات، في حين نظل نبحث عبثا عن أي أثر للإبل، وأنه لما يتفق مع الكشوف الأثرية، ومع ما يجمع عليه علماء الأجناس اليوم أن البدو قد انطلقوا في غمار شكل ثانوي للتطور من اقتصاد زراعي مختلط، وأن المجتمعات التي عاشت على هوامش مثل هذا الاقتصاد ذي التركيز الأساسي للحيوانات قد حفزتها التجربة التي استمدتها داخل هذه المناطق على البدء في رعي الإبل. هذا الافتراض، وهو أن عمليات النقل والتقليد قد نتجت عن طريق الاحتكاك، هو احتمال وارد بشكل أقوى من إمكان التطور نظريا من مرحلة الصيد. ومن سوء الحظ أنه ليس بوسعنا من خلال الأدلة المتاحة في الوقت الحالي أن نحدد مجرى الأحداث التي أدت إلى رعي الإبل. وفي ضوء نقص المعلومات وعجزنا عن حسم المسألة يتعين علينا التزام الحذر البالغ من التعميمات التي تماثل تلك التي توصل إليها باتيمور (Battimore) إذ يقول «أن أجداد البدو ــ سواء العرب أو الأتراك أو المغول ــ كانوا جماعة من البشر قررت استخدام هذه الحيوانات للتخلص من الفقر الذي حل بساحة القائمين بالزراعة، واللجوء إلى حياة أكثر أمنا باعتبارهم رعاة»[٢٢]. إن مثل هذه الصياغات تعطي فكرة

زائفة فحسب عن القرائن والأدلة المتاحة حاليا في شبه الجزيرة العربية، وهي قرائن لا تبرر مثل هذه المقولات ذات المضمون الشامل. وبالإضافة إلى ذلك، يتعين على المرء أن يتجنب خلق مقولات جامدة جديدة، ويجب عليه ببساطة أن يتقبل النقص القائم حالياً في مصادرنـا. كذلك ليس بمقدورنا أن نحدد السمات العرقية واللغوية المميزة لرعاة الإبل الأوائل، إذ من الثابت أن رعي الإبل لا يقتصر على مجموعة بعينها من الساميين، فقد وجد رعي الإبل بين المجموعات النـاطقة بلغـة الضاد، وكـذلك بين المتحـدثين باللهجات الحديثة للغات السامية الجنوبية.

ويتعين على المرء هنا أن يذكر بصورة عابرة شيئاً عن أهمية رعاة الإبل داخل الجماعات السامية المختلفة من البدو وأشباه البدو. لقد أودت دراسـة ج. هيننجر ـــ J. Henninger النقدية المتأنية «مساكن وأسلوب حياة الساميين القدامى» بأسس أسطورة الساميين باعتبارهم بدوا، وأضفت المزيد من الوضوح على حقيقة أنه إلى جوار شرائح معينة من النمط البدوي تجب الإشارة إلى الزراعة باعتبارها نمطا مبكرا للحياة السامية. ونحن نعتقد أننا بحاجة إلى النـظر بمزيد من الدقة إلى الأهمية التي علينا أن نعطيها لرعي الإبل طبقا لمختلف الصيـاغات الممكنـة. وبوسعنا أن نقوم بهذا بأن نعود بأذهاننا إلى المدى الواسع للأشكال المتباينة للحياة البدوية، فهي تشمل رعاة:

(أ) الأبقار والأغنام.

(ب) الحمير والأغنام.

(ج) الإبل والأغنام والماعز.

(د) الأبقار والماعز[٢٣].

والتكوينات السالفة هي بشكل أو بآخر داخل نسق زمني ـــ طبقا لما تذكره مصادر الأدلة ـــ لكنها لا ينبغي أن تؤخذ كما لو كانت تمثل جدولا زمنيا تقريبيا للتطور الفعلي، حيث إن المصادر لا تسمح لنا بتقـديم شيء يتسم بمثـل هـذا الطموح. هذا التعدد، يعكس ببساطة من وجهة نـظرنا، أنمـاطا مختلفة للتكيف مـع الظروف المناخية المختلفة أو مع المناطق المتباينة في شبه الجزيرة العربية. إنني في الحقيقة أحاول تجريب منهاج جديد فيما يتعلق بالمراكز المحتملة التي نبعت منها الجماعات السامية المختلفة. فالنظر إلى هذه القضية من وجهة المناخ من شأنه أن ينهي التكهنات حول ما يسمى بوطن الساميين، إذ إن الأقرب إلى الواقع. في ضـوء الظروف المناخية والمعلومات التاريخية المتاحة. أن نأخذ بامكانية التغيير المختلف والدائب للموطن بالنسبة للجماعات السامية.

وبوسع المرء أن يشير في كلتا المجموعتين من رعاة الإبل اللتين سبق لنا أن ميزنا بينهما ـــ إلى عدد من الأساليب المتماثلة والظواهر الثقافية المتشابهة التي تسمح لنا بافتراض أنه في مرحلة محددة من النمو ولكن غير مميزة على وجه دقيق زمنيا. شكلت ثقافة رعاة الإبل في شبه الجزيرة العربية وحدة متسقة نسبيا. هذا يفترض أن الاتساق الثقافي قد تحطم من خلال تركز التقدم الفني في جملة واحدة ـــ هي المتمثلة في عرب الشمال ـــ كنتيجة للاحتكاك بالحضارة المتقدمة، وقد حاولنا أن نشرح هذا فالتمييز بين نمطين ثقافيين مختلفين بين رعاة الإبل، نمـط متطور ونمط آخر محافظ.

وتبدو لنا مكتشفاتنا حول الظروف التي نمت من خـلالها الجمـاعـة المـتطورة ذات أهميـة اثنولوجية فمنذ البداية ذاتها، قـادت الدفعات التي تلقاها رعاة الإبل من احتكاكاتهم المتعددة بالمناطق المتقدمة حضاريا إلى نشوء نمط خاص للنمو. وهذا مثـال بارز عـلى كيفية اكتسـاب المجمـوعات البـدوية داخـل المنطقـة المتأثـرة بالحضارة المتقدمة للشكل الذي سيميزها فيما بعد ـــ كمجموعة بدوية تستخدم الإبل في القتال (كالمحاربين الخيالة) ولكن لذلك قيمة محدودة، إذ أن المصادر المادية التي بين أيدينا لا تسمـح بأكثر من نظرة متواضعة على التبادل الثقافي المتضمن. ولعل الأبحاث التالية تستطيع مـلء فراغ هذه الصورة القاصرة الوضوح، وليس ذا اهميـة كبيرة في هـذا المضمار مـا إذا كانت الاختراعات التي أخذها البدو قد كانت أصلاً من صنع الحضارة المتقدمة ذاتها (مثل العربة التي ترجع المعرفة بها إلى عهد السومريين) أو ما إذا كانت هذه الحضارات قد نقلتها فحسب (مثل السرج المنحني الذي أصبح يشكل في الحياة البدوية وحدها بعد انبثاثها في المنطقة المتقدمة

حضارياً ــ جزءاً ثابتاً من حضارتها في ذلك الوقت).

ذلك هو تلخيصنا للعلاقة بين رعاة الإبل والحضارة المتقدمة: إن رعاة الإبل قد قاموا بدور المستقبل (أو المتلقي)، وأثبت السكان الحضريون صلابة جمة جعلتهم يصدون النزعة العدوانية الأكيدة لدى البدو. ولكن ذلك يدوم فحسب طالما بقي النظام السياسي للمنطقة المتقدمة حضاريا متماسكا. ولا يمكن فهم نشأة الحضارة البدوية الخالصة والدور القيادي الذي اضطلعت به إلا إذا رأينا هذا في ضوء ضعف «دويلات المدن» الواقعة بين روما وفارس. لقد تأثر التاريخ الحضاري لشبه الجزيرة العربية تأثرا حاسما بالعلاقات الوثيقة بين المجموعة المتطورة، التي بلغت سمتها في مجتمع من المحاربين الراكبين (الخيالة)، وبين العرب العاربة. ومن هذا الارتباط البارز يمكننا أن نخلص إلى أن اللغة العربية قد انتشرت بصورة مطردة مع انتشار الحضارة البدوية الكاملة التي قدمت من الشمال، أي أنه قد حدث تمثل أو تكيف لغوي تحت تأثير لغة الطبقة الحاكمة الجديدة. وليس بوسعنا أن نكون أكثر دقة وتحديدا في بيان عملية «التعريب» هذه. ولابد أن العرب قد ارتقوا ادرج السلطة في الدول التي تدخل ضمن منطقة الحكومة المنظمة قبل الإسلام، عن طريق الانتظام في سلك الخدمة الحربية. أما في المنطقة الحرة خارج هذا النطاق، فلابد أن التحول والتكيف قد بدأ بفرض عناصر جديدة على السكان الموجودين بالفعل. وللتشكل (التكون) الحديث نسبيا للحضارة البدوية الخالصة أهمية كبيرة من وجهة النظر الإثنولوجية، إذ إنه يوضح أن النظام الاجتماعي الطبقي في الأجزاء البدوية من شبه الجزيرة العربية نظام حديث نسبيا[٢٤]. ■

الهوامش

(١) العرض التالي يستند إلى مؤلفي المنشور عام ١٩٦٧ عن «البدو في جنوب الجزيرة العربية» (انظر قائمة المراجع)، كما يتضمن إضافات وحقائق جديدة.
(تفصيل عناوين الكتب المشار إليها في الهوامش في ثبت المراجع).

(٢) المقصود كور أو رحل الجمل، وهو السرج بالنسبة للفرس.

(٣) البارثيون (Parthians): شعب عاش بين بحر قزوين وإيران.

(٤) الوردي: ص ٩.

(٥) Bibby: 1964: 108, 1965, 148.

(٦) Dostal: 1967: 15 passim.

(٧) اثنوجرافيا (Ethnographie)، المعنى العام هو «وصف الشعوب»، ويعرفه هوبل (Hoebel) بأنه «ذلك القسم من علم الانثروبولوجيا الذي يختص بالتسجيل الوصفي للثقافات»، والبعض يقصر «الإثنوجرافيا على الوصف العلمي للأنساق الاقتصادية والاجتماعية، وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستويات التكنولوجية المختلفة»، ويختلف معنى المصطلح من ثقافة إلى أخرى (انظر «قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور» تأليف إيكه هولتكرانس، الترجمة العربية، ١٩٧٢ نشر دار المعارف بالقاهرة، ص ١٥ ــ ١٧.

الإثنولوجيا (Ethnology) هو علم الإنسان ككائن ثقافي، وهي الدراسة المقارنة للثقافة، ووفقا لتعريف ستيرن (Stern) هي «التحليل العلمي ــ القائم على الإثنوجرافيا ــ للأنساق الاجتماعية الاقتصادية وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستوى التكنولوجي المتخلف، ويستهدف الكشف عن أصول ووظائف، وعمليات التغير في سماتها الثقافية». عليه فالإثنوجرافيا ــ على خلاف الاثنولوجيا ــ علم ذو نظرة مقارنة ووجهة واسعة.

(انظر «قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور»، ص ١٨ ــ ٢٠).

(٨) Petraeek, 1959, 1960.

(٩) Dostal: 1967: 17.

(١٠) Dostal: 1959: 19.

(١١) Caskel: 1953: 7, 1954: 42 passim

(١٢) Caskel: 1930: 76.

(١٣) Caskel: ibid: 64.

(١٤) Caskel: ibid: 55.

(١٥) Caskel: ibid: 42.

(١٦) Caskel: ibid: 32.

(١٧) Seyrig: 1950: 6.

(١٨) Dostal: 1967: 160.

(١٩) Widengren: 14.

(٢٠) Caskel: 1930: 51.

(٢١) Dostal: 1967, 161 Note 222. Caskel: 1930, 95.

(٢٢) Dostal: 1967: 163.

(٢٣) Dostal: 1968.

(٢٤) Dostal: 1964: 190-198.

المراجع

Altheim, F.:

1943 Die Krise der Alten Welt im 3. Jahrhundert n. Zw. und ihre Ursachen. Vol. I. Berlin-Dahlem.

Bibby, G.:

1964 Arabian Gulf Archaeology. The Eighth Campaign of the Danish Archaeological Expedition 1961/62. Kuml, p. 101–111.

1965 Arabian Gulf Archaeology. The tenth Campaign of the Danish Archaeological Expedition 1964. Kuml, p. 101–111.

Bossert, H. Th.:

1951 Altsyrien. Kunsthandwerk und Handwerk in Cypern, Syrien, Palästina, Transjordanien und Arabien nach den Anfängen bis zum völligen Aufgehen in der griechisch-römischen Kultur. In: Die ältesten Kulturen des Mittelmeerkreises. Tübingen.

Caskel, W.:

1930 Aijam al-'Arab. Islamica III, Suppl. Fasc. 5. Leipzig.

1953 Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, 4.8. Geisteswissenschaften. Köln–Opladen.

1954 The bedouinization of Arabia. In: Studies in Islamic Cultural History, edit. G. E. von Grunebaum. American Anthropologist Vol. 56 Part 2. Memoir Nr. 76 p. 36–46.

Dostal, W.:

1959 The Evolution of Bedouin Life. L'Antica Società Beduina. Studii Semitici 2 p. 1-34. Roma.

1964 Zur Problematik der Paria-Gruppen in Vorderasien. Zeitschrift für Ethnologie. Vol. 89 p. 190–203.

Dostal, W.:

1967 Die Beduinen in Südarabien. Eine ethnologische Studie zur Entwicklung der Kamelhirten-Kultur in Arabien. Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik XVI. Horn–Wien.

1968 The Significance of Semitic Nomads in Asia. Proceedings VIIIth International Congress of Anthropological and Ethnological Sciences 1968, III. p. 312–316.

Ettinghausen, R.:

1954 Notes on the luster-ware of Spain. Ars Orientalis I p. 133–156.

Frankfort, H.; Loyd, S. and Jacobsen, Th.:

1940 The Gimislin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar. Oriental Institute Publications. Vol. XLIII. Chicago.

Jarir and al-Farazdaq:

1908–12 Kitab al-Naqa'id. Edit. A. A. Bevan. 3 Vol. Bairut/Leiden.

جرير والفرزدق

١٩٠٨ - ١٩١٢ كتاب النقائض

تحقيق ا . ا . بيفان Bevan

٣ أجزاء . بيروت / ليدن

Michalowski, K.:

1962 Palmyre. Fouilles Polonaises 1960. Université de Varsovie. Centre d'Archéologie Méditerrannéenne dans la République Arabe Unie au Cairo. Warzawa 1962.

Oppenheim, Frhr. v. M.:

1943, 1950, 1955 Tell Halal. 3 Vol. Berlin.

Petracek, K.:

1959 Gindibu Arbaija-EinSafa-Araber. Archiv Orientalni 27. p. 44–53.

1960 Probleme der ältesten Geschichte der Araber. Archiv Orientalia 28. p. 659–660.

Rathjens, C.:

1953/55 Sabaeica. Bericht über die archäologischen Ergebnisse seiner zweiten, dritten und vierten Reise nach Südarabien. Mitteilungen aus dem Museum für Völkerkunde in Hamburg. XXIV: 2 Teile. Hamburg.

Sellin, E.:

1904 Tell Ta'annek. Bericht über eine mit Unterstützung der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften und des K. K. Ministeriums für Kultus und Unterricht unternommene Ausgrabung in Palästina. Denkschriften der K. Akademie der Wissenschaften in Wien. Phil. Inst. Kl. Bd. I. Wien.

Seyrig, H.:

1937 Antiquités Syriennes. Syria Vol. XVIII p. 1–35.

1946 Antiquités Syriennes. Troisième Série. Extrait de Syria 1939–1940–1941. Institut Français d'Archéologie de Beyrouth. Publications hors Série Nr. 7. Paris.

1950 Palmyra and the East. The Journal of Roman Studies. Vol. XL p. 1–7.

Al-Wardi, 'A.:

1961 Die Persönlichkeit des Irakers. Ein Beitrag zur Sozialpsychologie, eingeleitet und übersetzt von G. Krotkoff. bustan H. 1 p. 7–11.

Widengren, G.:

1960 Iranisch-semitische Kulturbegegnungen in parthischer Zeit. Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen H. 70. Geisteswissenschaften. Köln–Opladen.

هذا المقال ماخوذ عن مجلة فكروفن، العدد ٣١، ١٩٧٨

النظام السياسي اللبناني في ديالكتيك الحرب والسلام

د. جوزيف مغيزل

ابدأ بحثي المقتضب بالتذكير بملامح نظامنا السياسي الرئيسية. وسأحاول بعد ذلك أن أبرز الثغرات التي أحدثها فيه التطبيق منذ الاستقلال، والتي تفسر، وإن جزئياً، التطورات المأساوية في السنوات الأخيرة. وسأحاول، في النهاية، أن أشير، قدر المستطاع، إلى عوامل البقاء، وإمكانات السلام، والاستقرار والنهوض.

ملامح نظامنا السياسي الرئيسية

سأسعى إلى رسمها كما تتبدى خلال:

١ ـــ الدستور

٢ ـــ الميثاق الوطني

٣ ـــ البنية الاجتماعية ـــ السياسية.

١ ـــ الدستور:

نعيش، حسب دستورنا وقوانيننا، في ظل نظام ديمقراطي برلماني يرتكز على القواعد التالية:

(أ) الشعب مصدر كل السلطات.

(ب) يحكم الشعب عبر نوابه الذين ينتخبهم بحرية، في انتخابات عامة، مباشرة، في دورة واحدة، بالأغلبية النسبية.

وهكذا تتوطد في البرلمان والحكم تعددية الميول السياسية وما يتصل بها.

(ج) فصل السلطات الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، مكرس. والعلاقات بينها ينتظمها احترام دورها واستقلال كل منها.

(د) تناط السلطة التنفيذية برئيس الجمهورية يساعده وزراء يسميهم، ويعين من بينهم رئيس الحكومة. ويستطيع إقالتهم. وليس مسؤولاً عن أفعاله إلا في حالات انتهاك الدستور والخيانة العظمى. الحكومة هي المسؤولة عن أفعال الرئيس، وتجيب عنها أمام البرلمان. ويستطيع حل البرلمان في حالات غير محدودة.

وهكذا نجد أنفسنا عملياً، في نصف الطريق بين النظام الرئاسي والنظام البرلماني الكلاسيكي.

(هـ) يسود القانون والشرعية العلاقات بين الدولة والمواطنين، وبين المواطنين أنفسهم، وكل عسف من هذا الطرف أو ذاك يعاقب عليه القانون العقاب الملائم.

(و) الحريات العامة مصونة. وكذلك مساواة الجميع، رجالا ونساء، في القوانين المدنية، والوظائف العامة، والحقوق السياسية.

(ز) والحريات الشخصية مضمونة: حرية التنقل، والعائلة، والملكية الخاصة، والاستثمار، والمعتقد والعبادة، والتعليم، والنشر، والتعبير، والاجتماعات، والجمعيات.

غير أن هذه القواعد، الموسومة بالتقليد الجمهوري الأوروبي المحض، خلال القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، اعتراها بعض التحوير الذي فرضته الوقائع المتراكمة على مدى تاريخ البلاد، خاصة بين ١٨٤٠ و ١٩٢٠.

تطالعنا في الدستور المواد الثلاث ٩، ١٠، و٩٥

المادة التاسعة: حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الاجلال لله تعالى تحترم جميع الأديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها، على أن لا يكون في ذلك اخلال في النظام العام، وهي تضمن أيضاً للأهلين، على اختلاف مللهم، احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية.

المادة العاشرة: التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب أو يتعرض لكرامة أحد الأديان أو المذاهب ولا يمكن أن تمس حقوق الطوائف من جهة إنشاء مدارسها الخاصة، على أن تسير في ذلك وفاقاً للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية.

المادة الخامسة والتسعون (كما تعدلت بالقانون الدستوري الصادر في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣، المادة ٥): بصورة مؤقتة، والتماساً للعدل والوفاق، تمثل الطوائف، بصورة عادلة، في الوظائف العامة، وبتشكيل الوزارة، دون أن يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة.

هذا خروج صريح على المبادىء الديموقراطية.

إنما كان يجب، مع التحديث، عدم صدم الحقائق كثيراً، وعدم تجاهلها بدافع من هاجس الأمن الداخلي، والعدالة والوفاق.

وانطلاقاً من وعي الأخطار التي أملتها هذه الاجراءات القاهرة، سعى المشترعون إلى الحد من آثارها، مشددين على ضرورة عدم إضرارها بمصلحة الدولة، أو في سياستها العامة، في أي حال من الأحوال، أو عدم استمرارها.

٢ ـ الميثاق الوطني:

بهذه الروحية، وكأنما لدعم الدستور ارتأى بناة الجمهورية المستقلة الحديثة، ضرورة ضمانته باتفاق سياسي، غير مدون، يؤلف بين اللبنانيين خارج انتمائهم الطائفي، في مصير مشترك. ذلك كان الميثاق الوطني الذي سيسهم بموجبه المسيحيون والمسلمون في العمل على بناء الجمهورية الناشئة، وتحديث مؤسساتها، فيتخلى المسيحيون عن حماية الغرب، والمسلمون عن الوحدة مع سوريا.

هذا هوالهدف الذي عبرت عنه بصراحة، حكومة الاستقلال، في بيانها الوزاري، في ٧تشرين الأول١٩٤٣، الذي انطوى على برنامج طموح للاصلاح والتنمية، جدير بأن يحد من المساوىء الطائفية، وأن يضع البلاد على طريق التقدم والنجاح والوحدة.

٣ ـ البنية الاجتماعية ـ السياسية:

من جهة ثانية، نعلم أن من خواص النظام الديموقراطي الهامة والأساسية، الاسهام الشعبي في ممارسة السلطة.

تتحقق هذه الممارسة، على نحوخاص، في الانتخابات (البرلمانية والبلدية) من جهة، وبالأحزاب السياسية والنقابات، من جهة ثانية.

تعترف القوانين اللبنانية، في الواقع، بحرية انشاء الأحزاب والنقابات، إلى أية عقيدة او ميول انتمت.

ولكن، هنا كذلك، تعرقلت المساهمة الشعبية، بالظروف الخاصة نفسها التي فرضت على الدستور.

إذ تجلت أيضاً في أساس التمثيل الشعبي، والأحزاب السياسية، تعددية الطوائف الدينية.

لقد كان اللبناني، سواء في المجلس، أو الحكم، أو الادارة، أو الأحزاب، عضواً في



□ بريشة الفنانة جوليان ساروفيم.

طائفتـه الدينية، قبـل أن يكـون مـواطنـاً في الجمهورية.

٤ ــ ثغرات النظام

عند التطبيق، لم يكن ممكناً السيطرة على البنى والاجراءات الاستثنائيـة التي لحظهـا الدستور والميثاق الوطني والقوانين. وما ظن أنه تدابير ترمي إلى التعقل والواقعيـة، تحول إلى مفجر، وعامل اختلاف وعدم استقرار.

ومعادلات التوازن التي أمّـل في أن تكون مؤقتة، ووسيلة اتفاق وانسجام، دامت، وتحولت إلى حجر عثرة، وأسباب توتر.

كـان النظام الحـافل بـالوعود ملغـوماً من الداخل. والتعددية تبدلت إلى انقسامات، وعوض ان تتيح ولادة التكامـل والتجانس، ضـاعفت التباين والاختلاف.

وغلب طابع النزاع على التدابير الاستثنائية الانتقالية.

والمدرسة الخاصة الدينية فرضت على الدولة سياسة تعليمها بدل أن تخضع لرقابتها وتتلقى منها التوجيه والاتجاه.

والخـير العام الذي افتـرض أنـه في راس مصالح الطوائف، التبس بها وخضع لها.

وعام ١٩٥٩، أي بعد ربع قرن، تقريباً، من التدابير المؤقتة، في المادة ٩٥ من الدستور، جاء قانون الوظيفـة العامـة (١١٢/١/٢) ليكرس اقتسام الوظائف الادارية، بالتناسب مع كوتا الانتمـاء الديني، أي ليكـرس عـدم تسـاوي المواطنين في بلوغ الوظائف العامة.

وخضع التمثيل الشعبي بدوره، كذلك، لداء الطائفية. بل حدث تراجع في هذا المجال بالقياس إلى التـدابـير الدسـتوريـة الأصليـة إذ كـان نص ١٩٢٦ يلحظ مجلسين، مجل الشيوخ الذي ينتخب جـزء من أعضائـه، ويسمى الآخرون حسب القاعدة المذهبية. ومجلس النواب الذي ينتخب أعضاؤه انتخاباً حراً بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية. وقد الغي مجلس الشيوخ بعد ذلك، وأصبح البرلمان مجلساً واحداً، ينتخب على الأساس الطائفي. وهذا تشويه كامل للنظام الجمهوري الديموقراطي، والمبادىء نفسها التي يمليها الدستور، خاصة المادة ٢٧ التي تنص على ان عضو المجلس يمثل كل الأمة، ولا تربط وكالته بقيد أو شرط من قبل منتخبيه.

كيف يمكن احترام مثل هذه القاعدة، إذا كان ترشيح النائب، منذ البـدء، مرتبـطاً بانتمـائه الديني، وبالتالي، فإنه، عملياً، لا يمثل كل الأمة، وإنما طائفته وحـدها. ثم إن تقسيم الدوائـر الانتخابية وضع ليعطي هذا التمثيل المذهبي كل مداه. إذن، لقدتحولنا من النـظام الجمهوري البـرلماني، الى نـظام مجلس ممثـلي الطوائف الدينيـة. والمرشحـون الأكثر حـظاً ليسوا من يمثلون الأمة عامة، وإنما أولئك الممثلين الأصيلين لجماعاته الطائفية. ومن هنـا فتح البـاب على مصراعيه للديماغوجية المذهبية، والمزاودات بين المرشحين، وتدخل الجمـاعات الدينيـة. وهكذا زيفت اللعبة الديموقراطية وحرية الاختيار.

التمثيـل الطائفي على مستـوى البـرلـمان، والحكم، والادارات العامة، والمدارس المذهبية، وقانون الأحوال الشخصية، الذي يشمل نطاقاً واسعاً من القوانين المتصلة بالعائلة وحياة المواطن الخاصة، والأحزاب السياسية المذهبية الطابع، هذه هي المنابع التي يمكن أن تنشأ التناقضات منهـا وتنمو. هـذه التناقضـات ستحول دون الانـدماج الاجتمـاعي ــ الوطني، فإذا بلغت اقصى مـداها، غـدت عوامـل تفكك، حـولتهـا السياسة وظروف المنطقة إلى عوامل اقتتال.

عبر ثغرات النظام، وجدت التدخلات الأجنبية ممرات لها سهلة. ومصالح الأفراد والجماعات ومطامعها، لقيت حقل نشاط ميسراً وطليقاً.

كانت طريق الحرب، اذن، مرسومة ومعبدة.

كل الأحزاب الطائفية، بل حتى الأحزاب ذات العقيدة اللادينية أو غـير الدينية، كـانت وقت الأزمة أو جرت إلى مواقع الانقسامات الدينية. أما التي قاومت التيار فعزلت، وسحقت، أو في أقل تقديـر همّشت. من هنا صـراع ١٩٥٨، وحـروب ١٩٦٩ و١٩٧٣ الصغيـرة والحـرب المأساة التي تستنزفنا منذ ١٩٧٥.

٥ ــ المخرج والمصير:

ولكن، هل نستطيع الخروج من الحرب، وبدء عهد السلام؟ أجل نستطيع ذلك ولكن بشروط:

١ ــ أن ننتقل من دولة الطوائف المتنازعة إلى

دولة الأمة الواحدة في التعليم المدرسي والنظام السياسي. وأن نوحد قوانين الأحوال الشخصية، ونلغي التمثيل المذهبي، أو على الأقل، نستبدله بالتمثيل في لائحة وطنية واحدة، ونسبية.

٢ ـ أن نبني دولة قوية، مع السهر بتيقظ على حماية وتطور الحريات العامة، وحقوق الانسان.

٣ ـ الا نعبر من وطن لا حواجز فيه، إلى وطن الحواجز، ولو كان القفص من ذهب. ذلك أن مما يقضي على لبنان أن يغدو أرضاً تحيط بها الأسوار أو الأسلاك الشائكة، كما قضى عليه ان يكون أرضاً دون أي سور ودون أي حرس. الفوضى، مثل الانفلات والعزلة قاتلة للبنان.

وإذا كانت الحرب تنشأ من غياب السلطة ومن الانقسام، فان السلام لا يقدر أن يولد في مناخ الاضطهاد والتجزئة. السلام صنو الوحدة، والسلطة العادلة، والحرية، والحريات وعدم انجراف الدولة وراء الميول والجماعات السياسية.

٤ ـ أن نكتشف هويتنا الثقافية الخاصة، الثقافة التي نستوجبها من انتمائنا الاقليمي والكوني معاً لأننا لسنا امتدادا للثقافة الأوروبية، وإنما أعضاء مبدعون للثقافة العربية، برسالة كونية، تغتني من ينابيع الثقافات الأخرى، والثقافة الأوروبية في رأسها.

٥ ـ أن نحدد دورنا في هذه البقعة من العالم، ومدى انخراطنا في قضاياها وطموحاتها الى العدالة، والحرية والتطور، ومواجهة انتمائنا الى العالم، كأناس أحرار، وأمة راشدة.

هل نستطيع أن نأمل الوفاء بهذه الشروط؟ نعم، في ما أعتقد. لأن الحرب لم تئد كل الآمال وثمة ظواهر ومؤشرات ايجابية ما تزال مرئية. أتوقف عند بعضها:

٦ ـ ظواهر ومؤشرات:

١ ـ إخفاق محاولات تكريس طائفية النظام تكريساً نهائياً ناجزاً في الدستور. فالوثيقة الدستورية، عام ١٩٧٦، التي تقضي بأن ينص الدستور على مذهب رئيس الدولة ورئيس الحكومة ورئيس المجلس لم تقر.

٢ ـ إخفاق مشاريع التقسيم أو الفيديرالية أو الاستقلال الذاتي في المناطق.

٣ ـ إخفاق محاولات جعل الصراع المسلح مذهبياً تماماً، وإن كان الاخفاق نسبياً.

٤ ـ مقاومة عدد لا يتسهان به من المواطنين، الهجرة الدينية من منطقة من البلاد الى أخرى.

٥ ـ الموقف المشرف، والشجاع احيانا، الذي وقفه عدد من المواطنين من كل المذاهب، ضد المجازر الوحشية التي حدثت على أساس الانتماء الديني.

٦ ـ الحفاظ على عدة تشكيلات مهنية اساسية خارج الصراعات الحزبية أو المذهبية: نقابات المحامين، والمهندسين، والاتحادات العمالية ومحرري الصحف وأصحابها..الخ..

٧ ـ موقف بعض الصحف الكبرى المسؤول.

٨ ـ عمل المجلس اللبناني الوطني خلال الأزمة.

٩ ـ الحفاظ على رموز الشرعية. إجراء الانتخابات الرئاسية على نحو شبه طبيعي. احترام الطريقة الدستورية في تشكيل الحكومة.

وهكذا فإن بنى الدولة التي تعرضت لاقسى الامتحانات، رغم سقوط بعض الأجهزة بقيت في رموزها الأساسية، كرئاسة الجمهورية والحكومة والمجلس، والجسم القضائي. والآن بدأت هذه السلطات تأدية وظائفها. إنها تصعد المنحدر.

ربما استطاعت سنوات الحرب بما خلفته من خراب أن تهز صحة بلادنا الاقتصادية، ولكن الأزمة السياسية لم تؤد إلى أزمة اقتصادية، وذلك بفضل اقتصادنا الحر، وطبقة من رجال الاعمال تتحلى بروح المبادرة والدينامية الأسطورية.

١١ ـ رغم التقاتل بين اشياع الأديان المختلفة، فقد كان يعلن، في الوقت ذاته، أن الحرب ليست دينية.

وهكذا ظلت إرادة الحياة المشتركة أقوى من كل أفعال القطيعة.

١٢ ـ المذهبية ضعف نظامنا الديموقراطي، غير أن ثمة من رأى فيه، في بعض اللحظات مخلصاً. أو هذا على الأقل الانطباع الذي أوحى به اليهم. فنشأ تساؤل عما إذا لم تلعب

الطوائف، في بعض اللحظات، وهي تواجه بعضها بعضاً، دور لجم المجانين، والحيلولة دون المغامرة، والاغراءات الانتحارية، ومحاولات الهيمنة.

اتكون المذهبية الاله جانوس ذا الوجهين النقيضين؟ أحدهما وجه الشر والحرب، والآخر وجه الخير والسلام (بتوازن القوى؟).

ملامح الأمل هذه، وهذه المعطيات الايجابية التي صمدت للعاصفة ليست في الواقع كافية بحد ذاتها، لتطمئننا على المستقبل، لأننا ما زلنا معرضين لأفدح الأخطار، فثمة في جسدنا جراثيم تنذر بالشر.

وإذا كنا نريد لهذه العوامل الايجابية أن تغدو عوامل نهوض، فإن علينا أن نوظفها انطلاقاً من رؤية تمهد لتطورها.

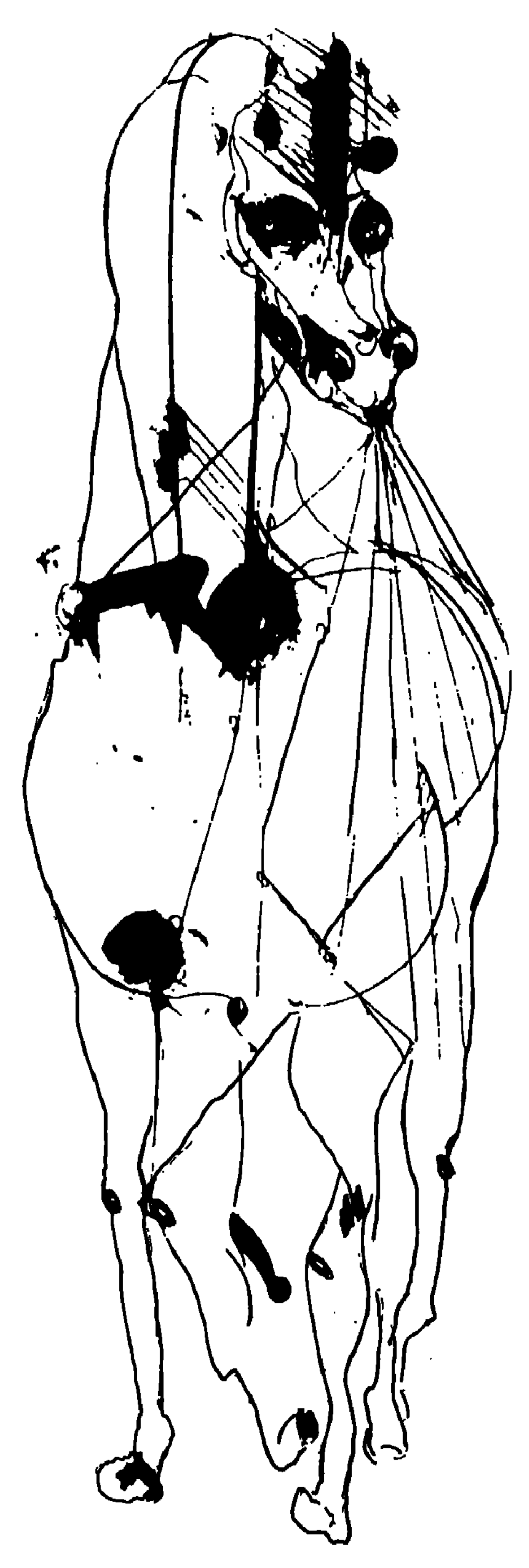
٧ ــ الواقع أن كل نظام سياسي بحاجة إلى رؤية سياسية:

الواقع أن المهمة الملحة، التي يجب أن نقوم بها وفي مقدمتنا الدولة، هي تحديد رؤيتنا لمستقبل الوطن. لأننا بهدي هذه الرؤية فحسب، نستطيع تقرير مستقبل نظامنا السياسي، وخطنا السياسي.

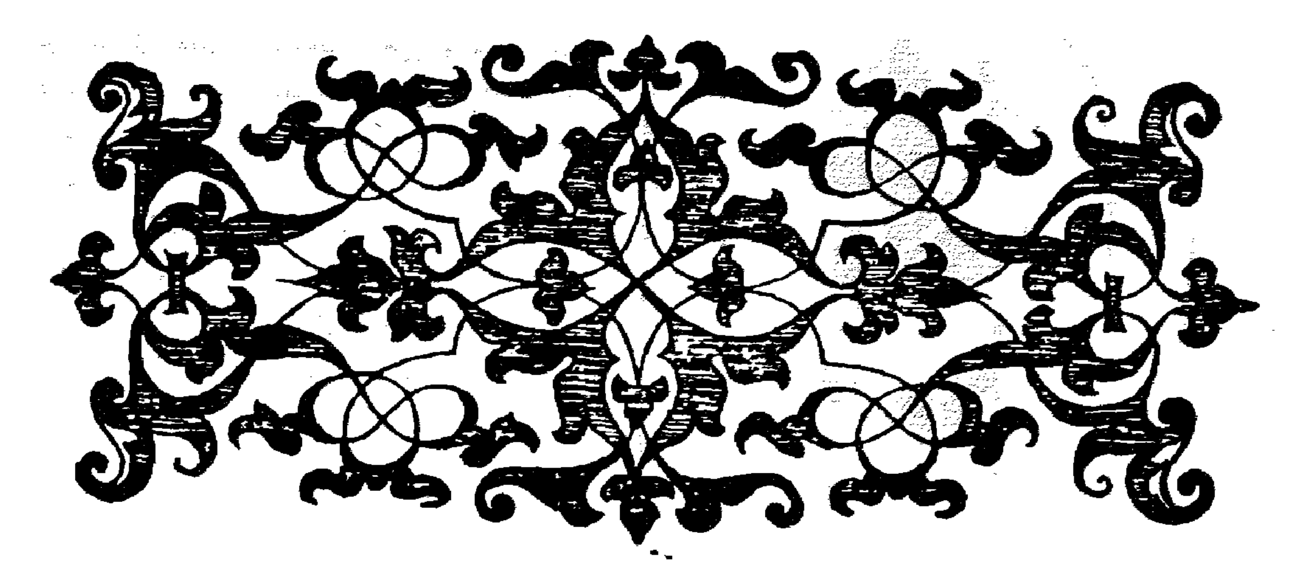
ليس النظام السياسي إلا الاطار الذي يختار من أجل توفير تحقيق الأهداف القومية.

إن مجتمعاً هاجسه الوحدة والديموقراطية! متعلقاً بالحريات العامة والشخصية، وبحقوق الانسان، متشبثاً بدوره كمركز للاشعاع الثقافي، راغباً في حماية وتشجيع روح المبادرة والاقدام بين مواطنيه، مقتنعاً بالعلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية مع محيطه الاقليمي مؤمناً بأن تطوره متصل، بعمق، بعلاقاته الاقليمية، والموارد التي تدرها عليه تلك العلاقات.

إن مجتمعاً مؤمناً أن وضعه الجغرافي يؤهله للانفتاح والاتصال، وأن التقدم الذي حققه على مدى أجيال ليس خيراً له وحده فحسب، وإنما هو منبع التزام ورسالة عليه حملها إلى الآخرين، وأن وحدة الجبهة الداخلية شرط لا بد منه لكل تقدم، وأن التنوع يجب ــ ويستطيع ــ أن يتلاءم مع الانسجام الاجتماعي، وأن التعددية



□ بريشة الفنانة جوليان ساروفيم.



تجد شرط بقائها وفعاليتها في الحوار والمشاركة والعقل.

إذا كانت هذه رؤية لبنان، فإن علينا أن نحرص على أن يعكسها نظامنا السياسي، ويحققها، ويحميها، ويضمن لها الاستمرار.

علينا أن، نحرص على أن تخلق سياسة الدولة، على كل صعيد وبكل الوسائل، المناخ الملائم الخصب، لحسن سير النظام حتى يخدم خدمة أصيلة، الرؤية الوطنية التي تؤمن بها.

انطلاقاً من هذا المنظور أدعو حكوماتنا الى انشاء فريق فكري مهمته: ١ ــ اعادة تحديد أهدافنا القومية ورؤيتنا للبنان. ٢ ــ تحديد ما في نظامنا مما يعوق أو يمنع تحقيق هذه الأهداف، وهذه الرؤية. ٣ ــ اقتراح التعديلات أو المكملات.

نتيجة لكل هذا، تستطيع الدولة رسم سياستها القومية التي يجب أن تخلص لها، لا مدة ست سنوات، وإنما إلى أبعد مدى طالما تظل فيه الرؤية وأهدافها صالحة ومقبولة.

بغير هذا تبقى السياسة على كف عفريت رهناً بتبدل الأشخاص والطباع، معرضة لعدم الاستمرار وتقلبات التاريخ، كما خبرنا مأساتها حتى اليوم. ■

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن اي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

الثورة السورية الكبرى

١٩٢٥ - ١٩٢٧

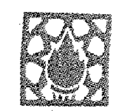
الحلقة الثالثة والأخيرة

د. ادمون رباط

تعريب: د. محمد المجذوب

تحدث الدكتور رباط في القسم الثاني من دراسته (المنشور في العدد الماضي) عن أعمال القمع التي تعرضت لها مدينة حماة، وعن تجمع الثوار في الغوطة وغاراتهم على الجنود الفرنسيين. ووصف ما لاقته دمشق من خراب ودمار، نتيجة القصف الوحشي الذي أمر به الحاكم الفرنسي انتقاماً من صمودها وبسالة ثوارها، مما جعل عميد السلك القنصلي فيها، يرفع باسم زملائه، رسالة احتجاج إلى المفوض السامي تتضمن تنديدا بسلطة الانتداب وتحميلها مسؤولية ما حدث.

سادساً ـ امتدادات واضطرابات



وهذا الوضع لن يزول إلا مع التطهير الكامل للغوطة الذي سيتم في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦. وبانتظار ذلك، اكتفت القيادة بارسال بعثات في النهار، تسمى تأديبية، كانت تجوب القرى المجاورة، غير المحتلة من الثوار، فتبتز أموالها، وتدكها حتى تسويها بالأرض، وتصرع المشبوهين فيها، وتعود مساء إلى قواعدها مكللة بأوراق الغار. ونادراً ما كان يجري اشتباك مهم بين القوات المتناحرة. وبقي الثوار أسيادا، هنا أيضا، كما كانوا في جبل الدروز.

وبعد أحداث دمشق، توجهت الأنظار نحو

مراكز أخرى للمقاومة حيث كانت الثورة (التي لم تكن حتى الآن إلا كامنة) تعزز نفسها بعناصر محلية وتسجل انتصارات جمة.

وعلى السفح الشرقي من سلسلة جبال لبنان حيث ظهرت، منذ شهر آب (أغسطس)، أولى الجماعات المسلحة، بدت الثورة فاعلة، وخصوصا حول مدينة النبك حيث شكلت حكومة ثورية. وانطلقت، من هناك، وإلى الغرب، غزوات باتجاه سكة حديد رياق ـ حمص، عطلتها عدة مرات، وهاجمتها غالباً، ونهبت قاطرات الذخيرة والمؤن فيها.

واستطاعت الثورة التي أحسنت تنظيم صفوفها، هنا أكثر من أي مكان آخر، الصمود فترة طويلة، وتأمين سلطة ثابتة شملت كل سلسلة جبال لبنان وغذت في منطقة القصير وحمص، وحتى حماة، حالة دائمة من الاضطراب أزعجت السلطات ولم تتمكن قوات الانتداب الهزيلة من تبديدها. ولم يرفع الحصار عن هذا المركز الذي أبدى مقاومة خاصة إلا عند وصول التعزيزات اللازمة في شهر شباط (فبراير) ١٩٢٦. ولم يسرح فيه، فيما بعد، إلا جماعات مسلحة ضعيفة تمكنت، رغم ذلك، من عرقلة السير بين حلب والجنوب، وتشكيل تهديد متواصل لحمص التي كانت، كدمشق، محاطة بحزام طويل من الأسلاك الشائكة.

وعلى سفحي جبل حرمون، كانت تجري، في هذه الفترة، اشتباكات شديدة حول حاصبيا وراشيا ومرجعيون ومجدل شمس، حيث أنجزت، من قبل أنصار الطرفين، أعمال بطولية، وكذلك، ويا للأسف، أعمال مؤسفة حاولوا إلقاء تبعتها على كاهل الدروز.

وكانت هذه المنطقة التي تضم واديين، وادي التيم ووادي العجم، قد ألحقت بلبنان في عام ١٩٢٠. وتسكن هذين الواديين ثلاث طوائف مهمة مكونة من الدروز والشيعة والمسيحيين (الروم الأرثوذوكس)، وكلهم يتحدرون من أصل عربي، والعربية لغتهم. ويستخدم الواديان كهمزة وصل بين «الجبل» والقسم الأوسط من لبنان، أي الشوف، حيث يعيش ٦٠ ألف درزي.

وكان من المقدر أن يعمد الثوار، بمجرد أن يصبح «الجبل» حرا، إلى توجيه نشاطهم، على امتداد هذا الطريق الدرزي، حتى عمق لبنان، حيث كانوا يستطيعون القيام بهجمات ضد دولة الانتداب، على أبواب بيروت نفسها.

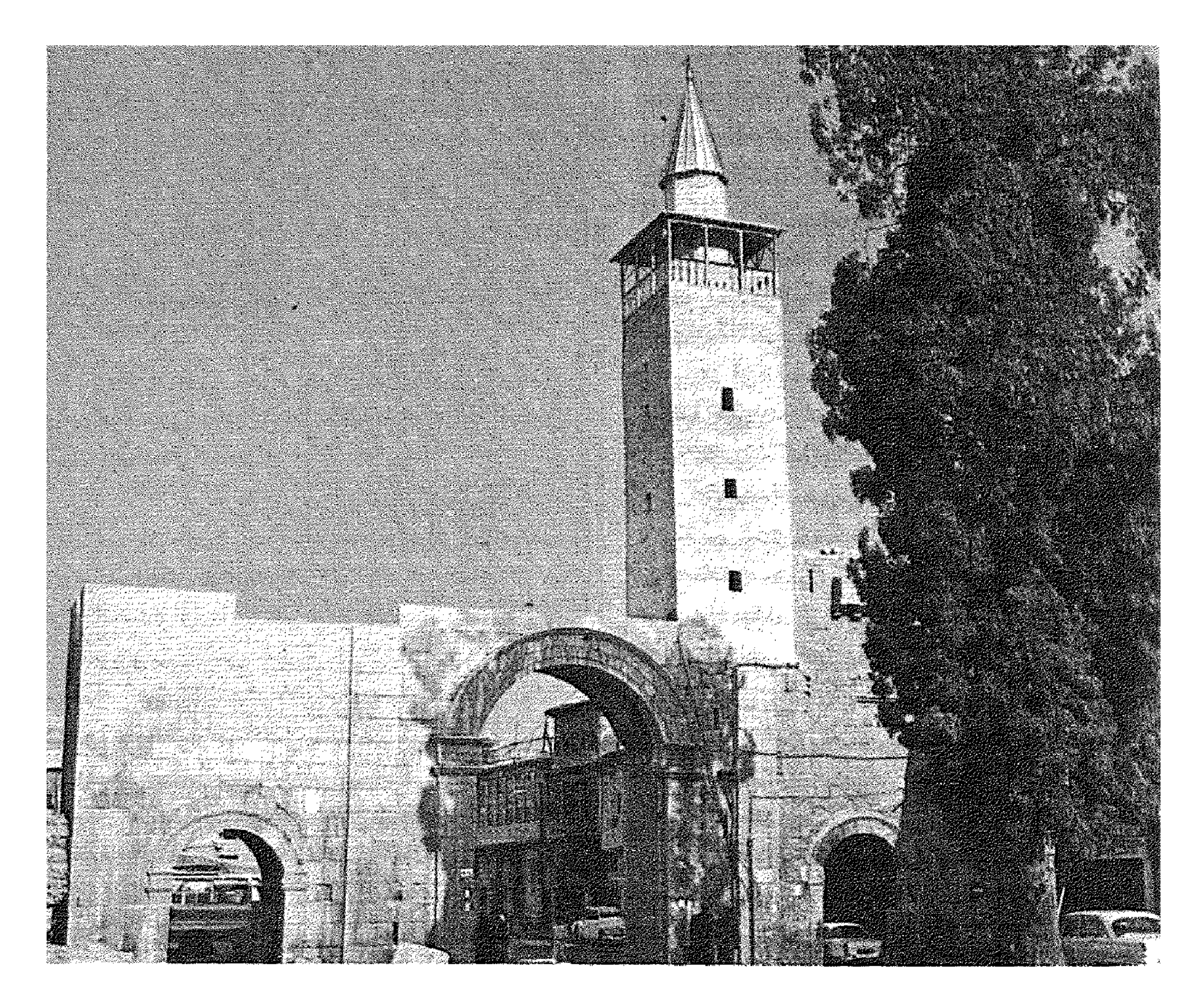
ولكن سلطات الانتداب التي أدركت الخطر، منذ بداية أحداث حوران، سعت إلى كسب تأييد السكان. وباستثناء الدروز، المتضامنين بشكل طبيعي مع أبناء طائفتهم في «الجبل»، والشيعة الذين لن ينسوا أبداً قمع عام ١٩٢٠، فقد وزعت الأسلحة على المسيحيين فيما كان يجري تجريد الدروز، والشيعة المقيمين في نفس الأمكنة، من السلاح بالقوة. وتم، على غير هدى، تجميع وحدات من المتطوعين وتنظيمها على شكل عصابات مسلحة لمقاومة العدو.

ولم يتوان وجهاء الطوائف الأخرى، الذين اوجسوا خيفة من الأخطار المتفاقمة، عن تنبيه المفوضية السامية إلى النتائج الوخيمة التي قد تترتب على مثل هذه التدابير. وروي أن الجنرال، المفوض السامي بالنيابة، أدلى، في اجتماع عقد في بيروت، أمام بعض الشخصيات، منها الأميران سعيد وتوفيق أرسلان، بالاعتراف التالي: «صحيح اننا وزعنا أسلحة على المسيحيين، ولكننا فعلنا ذلك لأنهم توعدوا».

وتكهن الزعماء الروحيون للطوائف المسيحية بالمآسي التي قد تتمخض عنها حرب أهلية،إذا أثيرت بهذا الشكل وعصفت بلبنان، فنصحوا بعدم توزيع الأسلحة وألحوا إلى أن الأفضل، لتأمين الدفاع عن السكان ضد الثوار، يكون بتغطية الأماكن المهددة بقوات كافية. وقيل ـ وتلك مجرد إشاعة ـ أن الجنرال (ساراي) حاول، قبل رحيله، أن يثير هبة شعبية مسيحية ضد الاسلام. ويبدو أنه، بفضل المعارضة العنيفة التي أبداها غبطة البطريرك الماروني، لم يطلق أي نداء كهذا.

وظهرت الجماعات الدرزية المسلحة، في وادي التيم ووادي العجم، منذ الأيام الأولى لشهر تشرين الأول (اكتوبر). وحلقت الطائرات فوق الواديين وطهرت الأجزاء المرئية منها[٥٩]. وكانت النتيجة رحيلا درزيا جماعيا نحو «الجبل» وانخراط الرجال في صفوف الجماعات المسلحة.

وبعد أيام، اجتاحت قواتهم، بقيادة **زيد الأطرش**، شقيق سلطان، الواديين دون أن تلقى



□ الباب الشرقي في دمشق.

مقاومة. وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)، احتلت حاصبيا بسهولة[٦٠].

وتشكلت حكومة استقلال محلية برئاسة **نسيب بك جبريل**، الذي اختير عن قصد من بين المسيحيين بغية توفير الثقة لهم وتهدئة الخواطر. وعلى الرغم من أعمال التحريض التي لم تنقطع أبدا، فإنه لم يسجل على الثوار أي تنكيد أو تعسف ضد السكان، لاسيما المسيحيين. بل ان الثوار كانوا عادلين ومنصفين، فسمحوا باجلاء النساء والأطفال خوفاً من عودة القوات النظامية[٦١].

وتحت شعار سيصبح محور المصالحة الوطنية: «الدين لله والوطن للجميع»، خاطب زيد الأطرش المسيحيين بهذه الكلمات:

«بلغنا أن بعضكم قلق من وجود قوات وطنية في هذه المنطقة، وانه يغادر البلد خوفاً من تعرضه لهجوم من قبلنا. إننا مذهولون لتلقي هذا الخبر لأنكم إخوتنا ولا فرق بيننا وبينكم...».

وفي بيان آخر، موجه بشكل خاص إلى دروز المنطقة وشيعتها، عبر عن رأيه بقوله:

«إننا نسارع إلى الكتابة إليكم لأننا نشعر أن بوسع السلطات التي تجردكم من السلاح وتسلح أخوتكم أن توقظ فيكم غرائز ذميمة تجاههم قد تباعد بينكم وبينهم... وقد ينجم عنها حوادث تسيء إلى البلد، وتضر ضررا شديدا بمصالح قضيتنا المقدسة...

«أيها الدروز، إننا نتوجه إليكم بشكل خاص باعتباركم فئة خاصة من الأمة، لتحذروا سياسة السلطات تجاهكم وتقتربوا من بقية اخوتكم، من الطوائف الأخرى الذين هم من أبناء جنسكم ووطنكم...».



□ طلال باشا عامر.

وأضاف بيان آخر، وجه إلى اللبنانيين بشكل عام، وتضمن، مرة أخرى، عرضا لأهداف الحرب التي يخوضها الثوار:

«... أما بالنسبة إلى مسالة الحدود بين سوريا الداخلية ولبنان فإنها إحدى المسائل التي لا يمكن معالجتها إلا عندما يحرر البلد من العدوان الأجنبي. وعندما تضطرنا الضرورات العسكرية إلى احتلال مواقع معينة، فلا تقلقوا، لأن تسويتها النهائية مرهونة بالقرارات التي ستتخذ فيما بعد...».

وفيما يتعلق بمسألة لبنان الدقيقة تعهد زيد نفسه للأمير فؤاد أرسلان، عضو المجلس التمثيلي للبنان الكبير، بما يلي: «اننا لن نهاجم لبنان القديم، انسجاما مع نصائحك».

وهذا ما تم. فلو وضعنا جانبا الحركات غير المنضبطة لتي كانت تندلع في بعض المواقع المعزولة في الجبل، وباستثناء المناطق التي ضمت إلى لبنان عام ١٩٢٠ والتي تشكل عودتها إلى سوريا أحد الأهداف الأساسية للثورة، فإن لبنان الأصلي ظل بعيداً عن هجمات الثوار. وقد ضحى هؤلاء، للحفاظ على السلام الديني، بمكاسب استراتيجية مهمة.

ومع ذلك، فقد كان من المقدر للمسألة الطائفية أن تخفق. فبعد أيام من احتلال حاصبيا، انفجرت تلك الحوادث التي حاول القادة تفاديها بأي ثمن. لقد حصلت اشتباكات مسلحة بين المسيحيين والثوار، خصوصا في كوكبا، على بعد عدة كيلومترات من مرجعيون. فهل هي مجازر أم معارك؟ إن سلطات الانتداب انحازت بالطبع إلى وجهة النظر الأولى[٦٢]. وبدا أن هذه المجابهة بين الفريقين لا مفر منها: بين فريق مسلح كانت دولة الانتداب تحثه رسميا على الدفاع، وفريق (مكوّن من الدروز) وجد نفسه مشدودا إلى الحرب بحدتها الوحشية المحتومة. واغتنم عدة ثوار هذه الفرصة السانحة لإشباع ضغائنهم الشخصية وحل منازعات قروية بهذا الشكل. وكان معظم الدروز المهاجمين يأتي بالفعل من بين هاربي المنطقة الذين وصلوا «الجبل» منذ ظهور الطائرات الأولى.

وقدم زيد الأطرش نفسه التفسير التالي للمجابهة التي حدثت في كوكبا:

«... ان الحادثة المؤسفة التي وقعت في كوكبا هي نتيجة سياسة الانتداب... التي سمحت بتشكيل عصابات مسلحة وتحريضها على مناهضة حركتنا الوطنية. لقد هوجم رجالنا، لدى مرورهم بكوكبا، من قبل العصابات. وأراد احد الزعماء، بصحبة كاهن من حاصبيا، ان يقترب منها ليتفاهم معها، فقتل الكاهن مع أحد الرجال. واعقب ذلك ما تعلمون...»[٦٣].

ولكن الرواية التي سردها زيد للأمير فؤاد ارسلان تختلف اختلافاً بيناً. لقد كتب زيد إليه يقول حرفياً:

«أما بالنسبة إلى حادثة كوكبا، فإن سببها يعود إلى هجوم السكان انفسهم علينا. وقد اوقفنا مسيرتنا باتجاه مرجعيون خشية الوقوع في فخ آخر مماثل».

ولم تُعرف الحقيقة إلا فيما بعد، عندما استسلم حمزة درويش، المسؤول الرئيسي عن حادثة كوكبا، للفرنسيين، وشارفت الثورة على الانهيار. واستطاع الثوار حينئذ، بحرية، توجيه التهمة إلى هذا المغامر وتوضيح مسؤوليته في قضية كوكبا. ويبدو أن مناقشات حامية جرت بين سلطان وحمزة حول هذا الموضوع. ولتجنيب القضية الوطنية الانقسامات التي قد تكون قاتلة في هذه الفترة، تقرر خنق التذمر الذي أثاره سلوك حمزة[٦٤].

إن قضية كوكبا، التي تراجعت إلى حجمها المعقول (حوالي العشرين قتيلا من السكان)[٦٥]، والتي تشبه الحوادث التي ترتكبها دائما الجماهير الثائرة، في بعض المناسبات، لم تحل أبداً دون تقدم قوات زيد التي اندفعت، بعد احتلال حاصبيا ومرجعيون[٦٦] والمنطقة المجاورة، نحو راشيا. «لقد طوقت في القلعة

حامية، مكونة من سريتين، كانت قد احتلت راشيا وتلقت الأمر بالحفاظ على هذا الموقع مهما يكن الثمن. وتحملت الحامية، بشجاعة، حصارا أحكم الدروز طوقه ببسالة»(٦٧). ومع ذلك، فقد استسلمت. غير أن احتلال راشيا وحاصبيا من قبل الجماعات السورية المسلحة كان لفترة قصيرة، ولكنه سجل الحد الأقصى لتقدم الثورة في جبل لبنان، وذروة انتصاراتها، فقد استعادت جحافل دولة الانتداب راشيا في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، وحاصبيا في ٥ كانون الأول (ديسمبر). وابتداء من هذه الفترة أخذت الثورة بالتراجع. ومع ذلك، وعلى الرغم من عودة ظهور الفرق النظامية في المنطقة، فإن الجماعات المسلحة بقيت ثابتة في المرتفعات المجاورة. وأثار وجودها العنيد حماسة المقاومة في البؤر المنتشرة في الغوطة والنبك حيث كان نشاطها يتسع وينتشر بشكل مروحي ما بين حماة وحمص ودمشق.

وفي الشمال، لم يفقد الثوار الأمل في مد نشاطهم نحو حلب، على الرغم من حادثة حماة ومراقبة مناطق السهل هذه بواسطة الطيران الذي لا يرحم. ومن جهة ثانية، فقد بذلت فيه جهود أخرى لتنظيم جماعات مسلحة مستقلة، مكونة من عناصر كانت تختار من الولاية نفسها، ولكنها كانت تسلح في تركيا، وتحاول تهييج المناطق الجبلية في الشرق والجنوب الشرقي، لاسيما في جبل الزاوية وأرياف أورم وأريحا. غير أن الحركة لم تتمكن من إثارة حماسة السكان في هذه المنطقة، إما لأنهم ما زالوا يتذكرون القمع الذي تعرضوا له في عام ١٩٢١، وإما لأن الجماعات المسلحة الوافدة من تركيا لم توح إليهم أبداً بالثقة.

وفي حلب نفسها، أدى اعتقال عدة وجهاء، اتهموا بالتحريض على مقاطعة الانتخابات الفرعية التي دعا إليها المفوض السامي الجديد، هنري دو جوفنال (H. de Jouvenel)، إلى قيام السكان بتظاهرة أمام السجن المدني. وعلى الرغم من الطابع السلمي الواضح لهذه الحركة الشعبية، فإن النقيب المسؤول عن حامية القلعة التي تشرف على المدينة وجه إلى الجموع رشاشه، دون إخطار نظامي، ودون الاصغاء إلا لصوت نزواته، فكانت الحصيلة: حوالي الاثني



□ صورة ترجع لعام ١٩٢٣ ويبدو فيها من اليمين شقيق الشيخ خليل صعب، سلطان باشا، خليل صعب مفوض البوليس في بيروت، زيد بك الاطرش شقيق سلطان ومدير «القرية» سابقا وقائد القواد في منطقة حاصبيا.

عشر قتيلا والخمسين جريحا. واضطر المتظاهرون العاجزون عن إبداء أدنى مقاومة إلى التفرق (وكان ذلك في ١٩٢٦/١/٩). ولم تكن حلب جاهزة للانتفاضة. وقد فضل **إبراهيم هنانو**، الذي كان عرضة لاغراءات الجماعات المسلحة، اعتبار نفسه سجينا. ولكنه بقي طليقا بناء على كلمة شرف منه(٦٨).

وتخلص موريس ركلو (M. Reclus)، مندوب المفوض السامي في حلب، الذي أدت سياسته الحكيمة إلى هذه النتيجة، من كابوس امتداد الثورة إلى شمال سوريا. ولو امتدت لكان ذلك، حكماً، كارثة لدولة الانتداب. لقد بقيت الثورة اذن، مرة أخرى، محصورة في الجنوب.

سابعاً ــ الانهيار

في بداية عام ١٩٢٦، كان نطاق عمل الثورة محصورا، في الشمال والشرق، بسهوب حمص، حيث لم تكن تجازف فيها إلا جماعات مسلحة

جريئة. وكانت الطائرات تردها، فلا تترك لها الوقت للاتصال ببعض القبائل البدوية التي كانت تخيم هناك، رغم فصل الشتاء.

وبقيت الثورة متماسكة في كل المنطقة، إلى الجنوب من حمص، أي في جبل الدروز، وفي قسم من حوران (قضاء دوما)، وفي كل سنجق دمشق تقريبا (باستثناء أطراف الحدود مع شرق الأردن)، ومنه أقضية النبك وجيرود والزبداني، وقضاء القريتين في سنجق حمص.

وفي لبنان الكبير، بقيت منطقة راشيا وحاصبيا، رغم إعادة احتلال هاتين البلدتين، في حالة من فقدان الأمن يرثى لها، ترعاها جماعات مسلحة وجدت في مرتفعات حرمون ملجأ أمينا. وكانت بعلبك والبقاع، كذلك، يعيشان تحت رحمة الغزوات المستمرة التي كانت تقوم بها جماعات **توفيق هولو حيدر** (شيعي).

وكان الوضع، في بداية عام ١٩٢٦، على الشكل التالي: نصف البلاد تحول إلى ساحة حرب، والنصف الآخر كان متواطئاً أو متعاطفاً، والصحراء لم تعد مضيافة، والمواصلات بالسيارات مع بغداد قطعت، والمواصلات بين فلسطين ودمشق غدت متقطعة، ومصادر الإنتاج (الزراعة والتجارة) نضبت وأتلفت.

وانخرط السكان، الذين أضناهم الجوع أو السخط أو الكراهية، في جماعات مناضلة كان القنوط يدفعها إلى ارتكاب أشنع التجاوزات. وكان يتزعم هذه الجماعات مئات من فتية المدارس وبورجوازيو المدن. وفي جبل الدروز، كان الشعب بأسره يناضل من أجل ما كان يعتبره حقه في الحياة. ولم تسفر أعمال القمع الشرسة إلا عن مضاعفة عدد المحاربين الذين كانت ذكرى آبائهم ومساكنهم، بعد تحولها إلى رماد بسبب لهيب القذائف، تلقي بهم إلى احضان موت أكيد، لأنهم كانوا يدركون، رغم الانتصارات الباهرة والمتكررة، صعوبة التغلب على فرنسا.

وفي عام ١٩٢٦، وفرت عملية التهدئة في المغرب بعض الراحة لدولة الانتداب، فتأهبت هذه الدولة، التي تدنت هيبتها واصيبت كبرياؤها، لتوجيه الضربة الحاسمة. ولكنها، رغم التعزيزات المتعددة واللجوء إلى تطبيق احسن أسلوب هجومي، لم تتمكن من إعادة النظام كليا إلى نصابه إلا بتكبد خسائر فادحة نسبيا، وبعد أشهر من الانتظار. ولن تستطيع سحق الثورة نهائيا إلا في ربيع عام ١٩٢٧.

وفي بداية عام ١٩٢٦، «كان على القيادة خلال فترة الشتاء التي تجعل الميادين غير صالحة للاستعمال، وتجعل العمليات الضخمة مستحيلة بالتالي، أن تقتصر على توفير الأمن للمدن، خصوصا لدمشق، وحماية طرق المواصلات المهمة لحياة البلد وتموين الفرق العسكرية. وتأتي، بعد ذلك، عملية التهدئة رويدا رويدا بالتقليص التدريجي للمناطق التي كانت تجوبها الجماعات المسلحة، وبمطاردة هذه الجماعات ومنعها من العودة إليها بإقامة مراكز ووضع قوات متحركة تعتمد عليها. وكانت الخطة تقضي، بعد هذا، وحتى في آن واحد في بعض الحالات، بالتأثير في البؤر الثانوية للثورة (الغوطة، وحرمون، وسلسلة جبال لبنان)، في الوقت الذي يجري فيه إعداد لعملية حاسمة في جبل الدروز مع بداية فصل الربيع»[٦٩].

وبدأ، منذ شهر شباط (فبراير)، تنفيذ هذه الخطة. وطبقت التدابير الأولى للخطة على لبنان حيث عزّزت انتصارات الدروز في حرمون وراشيا مكانتهم وعرضت للخطر «استقلال» الدولة اللبنانية. وكان طابوران قد انطلقا، من الغرب والشمال، ومنذ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، واستعادا راشيا. وأدى دخول الجند إليها إلى تعريضها للنهب والحرق. واضطر سكانها من المسيحيين والدروز، بعد تدمير ثلاثة أرباعها، إلى مغادرتها.

واستولى طابور ثالث انطلق في نفس الوقت من دمشق على حرمون من الشرق. وتراجع الدروز شيئا فشيئا، رغم المقاومة المستمرة والصلبة. وأعيد احتلال حاصبيا في ٥ كانون الأول (ديسمبر). «ولجأت الجماعات الدرزية المسلحة إلى الجبل العالي، بعد انخفاض عددها بسبب الخسائر وانتقال قسم مهم من افرادها الملاحقين إلى فلسطين. وانشئت مراكز، ونظمت جولات لنزع السلاح، واعيدت السلطات النظامية إلى مراكزها»[٧٠]. وليس بالامكان، وبشكل طبيعي، تحقيق ذلك دون ارتكاب الكثير من التعسف والتجاوز من كل نوع.

بيد أن الجماعات المسلحة التي احتمت بمغاور حرمون المنيعة استمرت في عبور الوديان وخوض حرب العصابات ضد الفرق النظامية دون هوادة. وأوجب تحرير مناطق راشيا وحاصبيا، نهائيا تقريبا، وتطهير الجوانب المرتفعة في حرمون، الاعتماد مرات عديدة، على طوابير قمع قوية، كان أهمها الطابور الذي أرسل في شباط (فبراير) ١٩٢٦، وآخرها الطابور الذي أرسل في نهاية صيف تلك السنة[٧١]. وظهرت، على أثر ذلك، جماعات مسلحة لا أهمية لها، كان نشاطها، المعدوم تقريباً، يتقلص مع عنفوان الثورة نفسها.

ومع ذلك فقد ظل الاقليم اللبناني، ولفترة طويلة، مسرحاً للعمليات التي كانت تقوم بها جماعات مسلحة محلية يقودها لبنانيون، من عائلة حيدر في البقاع على وجه الخصوص. وأصبحت الحالة لا تطاق في بعلبك التي تعرضت، في عدة مناسبات، لهجمات العنيد **توفيق هولو حيدر**.

وفي نفس الوقت تقريبا، فإن الحركة التي امتدت إلى الأقضية المحيطة بطرابلس جعلت من الثورة سيدة الأكروم، وهي منطقة جبلية وعرة ورأس شمالي في سلسلة جبال لبنان، وسيدة الضنية، وهي مجموعة سهول ووديان مغطاة بالقرى المزدهرة. وقطعت الثورة المواصلات بين لبنان وجبل العلويين وكادت، بذلك، تشعل انتفاضة جديدة في هذا الاقليم الأخير الذي تمت تهدئته بصعوبة في عام ١٩٢٢. «وكان الوضع في الأكروم والضنية صعبا لفترة ما، لاسيما ان تمركز الجماعات المسلحة في هذه المناطق كان يتزامن مع قيام هيجان وحيد في طرابلس... وأخفقت عملية أولى لطرد الجماعات المسلحة من الأكروم. ولكن عملية تنظيف قام بها سلاح الفرسان ما لبثت، ما بين ٩ و ١٢ حزيران (يونيو)، أن طهرت منطقة النبك وسلسلة جبال لبنان، ودفعت الجماعات المسلحة إلى غوطة دمشق، وعزلت هذه المنطقة تماماً عن اقاليم الشمال والغرب. وفورا بعد ذلك (من ٢٨ حزيران/يونيو إلى ٥ تموز/يوليو) طردت قوات متجمعة في طرابلس الثوار من الضنية التي تمركزوا فيها لشهر خلا وطهرت، وهي تتابع عملها نحو الشرق، كل منطقة الهرمل الجبلية، واجتازت كل مرتفعات الأكروم المشهورة، منذ عهد الأتراك، بصعوبة الاختراق من قبل الجنود النظاميين»[٧٢].

وحدث ذلك في الوقت اللازم. ولو حصل بعض التأخر لهزت الثورة من جديد جبل العلويين حيث يقيم الشيخ صالح، ولما بقي هذا الشيخ غير مكترث لنداءات أنصاره، ولنزل مرة أخرى من جبل الزاوية وفجوة انطاكية في الشمال واتجه نحو سهول حلب.

ومع هذا، فإن الأقاليم التي ضمت إلى لبنان، حيث التهبت هذه الشرارات ذات المغزى، لم تسترد هدوءها، سواء في طرابلس أو في البقاع، إلا خلال صيف عام ١٩٢٦، حينما عجزت الجماعات المسلحة التي كانت تظهر فيها ويتعذر الامساك بها عن العثور على ملجأ أو مساندة فيحرمونوسلسلة جبال لبنان المكبلة.

وفي هذه الجبال، كانت النبك دائما القاعدة التي تنطلق منها عمليات الثوار، والتي أصبحت، منذ سبعة أشهر، مركز قيادتهم. وفي شباط (فبراير)، ومع إعادة احتلال راشيا وحاصبيا ومجدل شمس وبانياس وينطا... وعندما تحررت أطراف حرمون نهائيا، بدأ التفكير في إخضاع مركز الجبل الذي ما زال ثائراً.

وقام طابور قوي، يعتمد على حمص ويسانده الطيران، بإعادة النظام إلى المنطقة، وباستعادة النبك بعد اشتباك عنيف. ولكن الجماعات المسلحة كانت تنحدر من شعب جبال لبنان إلى السهل وتصر على مهاجمة الخط الحديدي بين حمص ورياق، الذي بقيت القوافل مدة طويلة لا تستعمله إلا تحت حماية الطائرات والقاطرات المصفحة. ومع ذلك، فقد توارت هذه الجماعات ببطء مع تنظيف الغوطة. لقد ضعف نشاطها ووهن تلاحمها مع الهزائم التي أصابت بشدة آخر معاقل الأنصار في ضواحي دمشق.

ولم يبق بالفعل، في هذه الفترة، إلا الغوطة وجبل الدروز. وتقرر القيام بعمليات مشتركة ضد هذين الموقعين في الربيع والصيف. «وفي هذا الفصل، وبفضل التعزيزات المرسلة من المغرب، وجهت الضربة القاضية إلى الثورة المسلحة»[٧٣].

وبقيت الغوطة دوما ذلك المعسكر المسلح الشاسع حيث كانت قيادة الثورة تتمركز وتتضخم بانضمام العناصر التي هجرت النبك إليها. ولكن قوتها كانت تستمدها من دمشق، فأنصارها كانوا، وهم يتظاهرون بأنهم قرويون مسالمون منصرفون إلى مهنهم اليومية، يجدون فيها، عند الاقتضاء، ملجأهم الأخير. وحينما أصبحت الفرق النظامية في الغوطة نشيطة ومربكة، كانوا هنا، في الأحياء المتداخلة، يختبئون. وقد جرت فيها، عدة مرات، عمليات تطهير(٧٤). وكانت الواحة تحرر ثم لا تلبث، بعد عدة أيام، أن تتعرض من جديد للاغارة.

وفي هذه الظروف ندرك كم كان صعباً ضرب الحركة الثورية في القلب نفسه. ثم ان الخسائر التي تكبدتها الفرق الفرنسية في هذه الفترة كانت جسيمة وبلا نتيجة حاسمة.

وأدركت القيادة الفرنسية أهمية دمشق بالنسبة إلى حركات الثوار. وكانت العاصمة، منذ ليالي تشرين الأول (اكتوبر) المفجعة، خاضعة لنوع من الأحكام العرفية لا يطبق إلا في زمن الحرب. وكانت محاطة بالأسلاك الشائكة، ومغطاة بالخنادق المحصنة بالحجارة وأكياس الرمل، وصامدة أمام أشرس الهجمات.

ولم يشمل هذا الأسلوب الدفاعي حي الميدان الذي كان، بالنسبة إلى الجماعات المسلحة، أسهل الأحياء بلوغاً. ومن حي الميدان، الغارق في حدائق الجنوب، والممتد بشكل ذيل طويل لعدة كيلومترات، كانت تخرج بلا انقطاع مجموعات من المجندين للثورة. وحينئذ قررت القيادة الفرنسية إكمال عملية التدمير الكلي لهذا الحي. ونفذت الخطة على مرحلتين: في ١٧ شباط (فبراير)، وفي ٧ ــ ٩ أيار (مايو).

وكانت الواقعة البارزة للعملية الأولى الاقتحام المباغت لمنازل الحي الذي قام به المساعدون الجركس بدعم من الفرق النظامية. وقد سجلت عليهم تجاوزات عديدة ارتكبوها ضد السكان، خصوصاً ــ كما فعلوا في أمكنة أخرى ــ أعمال السلب التي كانت بمثابة ثمن مساعدتهم. غير «أن أعمال السلب هذه التي بولغ فيها... قد قمعت، ووضعت الأشياء المسروقة تحت تصرف مالكيها ممن أتوا يعرفون عن أنفسهم»(٧٥).

وفي ٧ أيار (مايو)، كان الاقتحام الثاني ضد حي الميدان شرساً. ففي الرابعة صباحاً، اجتاحت البيوت الخشبية في الحي نافورات النفط والصواريخ المحرقة، بشكل منتظم ودون توجيه أي إخطار إلى السكان غير المحاربين الذين كانوا ما يزالون يقطنون الحي. وخلال ساعات، تخللتها فترات من الراحة قصيرة، وحتى يوم ٩ أيار (مايو)، طوقت الفرق العسكرية البيوت البائسة لتؤجج فيها لهيب النار(٧٦). «أما بالنسبة إلى غير المحاربين، فقد حوفظ عليهم قدر المستطاع، وتم تجميع النساء، حينما أمكن ذلك، وعهد بهن إلى قوى الشرطة والدرك لاعادتهن إلى الوراء. وكان من المحتوم أن يكون ثمة ضحايا بين السكان»(٧٦). لقد كان هناك إذن، عند الهجوم، أشخاص غير محاربين ونساء وأطفال لم ينبهوا إلى خطر الموت الذي كان يترصدهم.

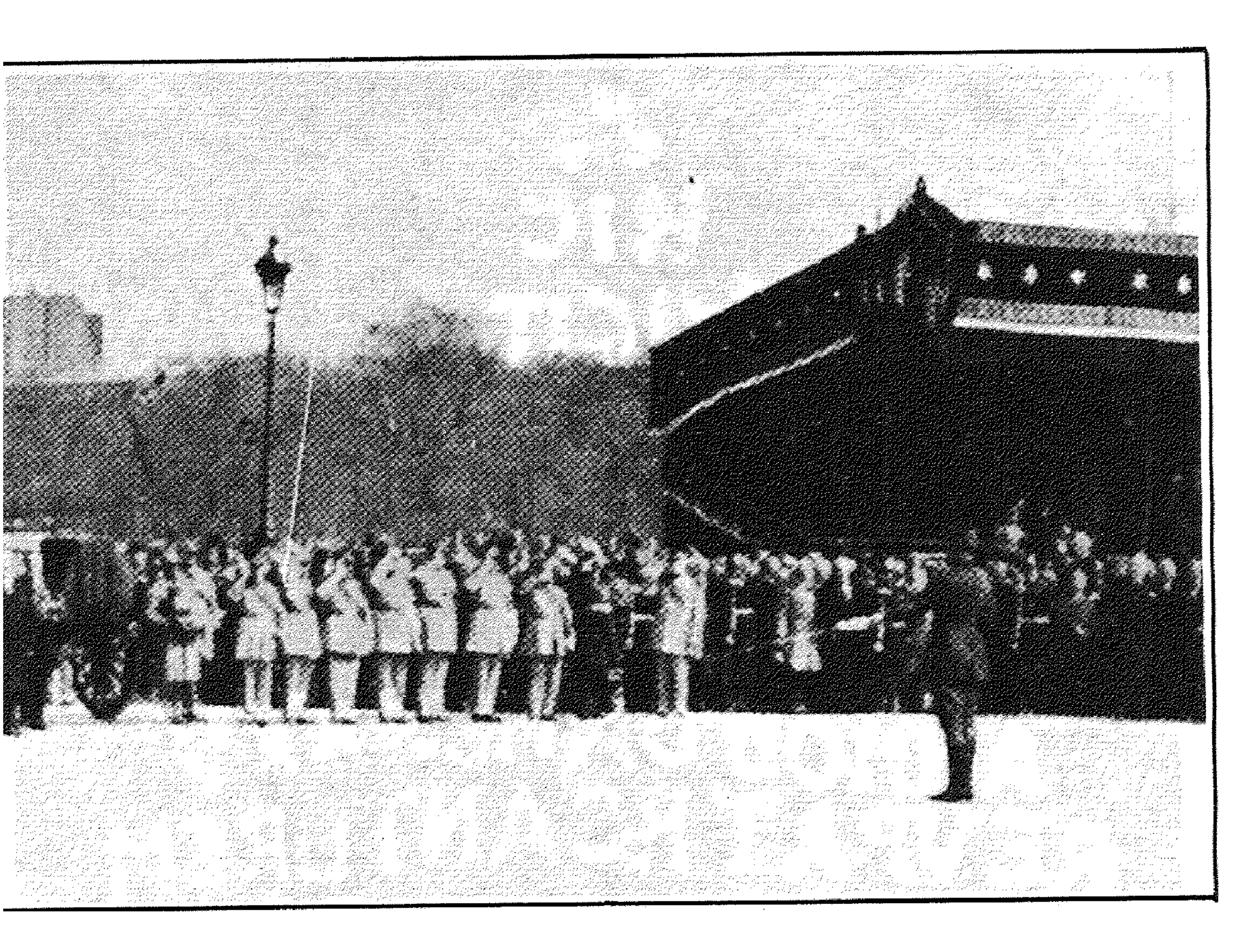
وحاولت السلطات أن تبرر هذه الفظائع: «... لقد وجدت الفرق العسكرية أمامها في حي الميدان منظمات دفاعية حقيقية. وللقضاء عليها كان ينبغي استخدام الوسائل الضرورية، أي دبابات الاقتحام والمدفعية».

وفي ١٥ تموز (يوليو)، حدد موعد للقيام بعملية حاسمة في الغوطة، فتجمعت طوابير في أطراف الواحة وهاجمت الحي، دفعة واحدة، من الشمال والجنوب والشرق، واتجهت نحو دمشق. وفوجيء الثوار الذين كانوا قد أقاموا خنادق لمقاومة أي هجوم آت من هذه المدينة. وتخلت جماعاتهم، التي تبعثرت خلال ٢٤ ساعة، عن الغوطة لتبحث عن ملجأ لها في المناطق الجبلية في سلسلة جبال لبنان، وجبل حرمون، والجزء الشرقي من جبل الدروز. وخلال ثلاثة أسابيع كانت طوابير صغيرة تجوب الغوطة في كل اتجاه، محطمة آخر حركات المقاومة التي كانت تجرؤ، بعد، على الظهور.

وفي آب وأيلول (اغسطس وسبتمبر)، أجبرت المعارك الأخيرة، التي دارت في حرمون وسلسلة جبال لبنان والبقاع، الجماعات المسلحة على التجمع في جبل الدروز حيث حافظت الثورة بقوة على تماسكها خلال أشهر طويلة، أي حتى أواسط عام ١٩٢٧.



□ كتابة منقوشة على الحجر مناهضة لسراي ولسياسته كتبها الثوار.

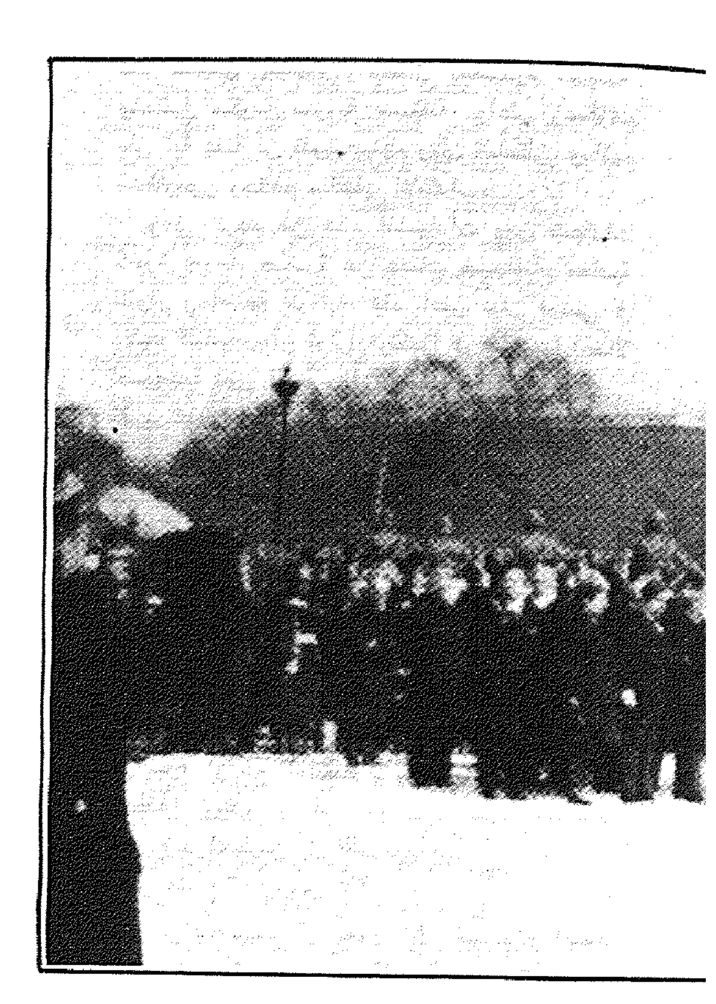


□ جنازة سراي في «الانفاليد» في باريس ويبدو في الصورة السيد بوان كاري رئيس الوزراء محاطا بوزرائه.

وابتداءً من ٢٣ نيسان (أبريل)، تحركت الجحافل الفرنسية نحو السويداء بعد أن وزعت نفسها على طابورين: الأول، وهو طابور الجنرال اندريا (Andréa)، أتى من الغرب، من خربة غزالة التي تقع على خط سكة حديد الحجاز، والثاني، وهو طابور العقيد **بيشو — دوكلو (Pichot-Duclos)**، انطلق من بصرى الشام. وأخرت عدة اشتباكات مع الدروز تقدمهما المتوازن. وأشد الاشتباكات عنفا وقع صباح ٢٥ نيسان (ابريل)، وكان مع سلطان نفسه الذي جمع، للمرة الأخيرة، عدداً من رجاله يتراوح بين خمسة وستة آلاف، لمجابهة هذا الاختبار الحاسم. وعلى الرغم من بسالتهم الخارقة، وبعد ست ساعات من المقاومة اليائسة، ووسط تلاحم جسدي غريب، فقد استطاع جيش الانتداب دحرهم ومتابعة تقدمه[٧٧]، وإعادة احتلال السويداء في المساء.

وبعد ذلك بعدة أيام، استغل الجنرال (اندريا)، الذي عين حاكما لجبل الدروز، هذا الانتصار لتقليص المناطق الثائرة بالقوة. وكانت هذه المناطق، المرهقة والقانطة، التي استمالتها سياسة المنتصر الانسانية، تستسلم. ومن الشمال إلى الجنوب هدأ «الجبل» الذي كانت تجوبه القوات العسكرية بانتظام وتسحق كل مقاومة وتفرض من جديد احترام القوة الفرنسية. وكانت دوريات القمع ودوريات نزع السلاح[٧٨] تفتش، من كل جهة، خبايا الجبل.

لقد مارس الجنرال (أندريا) عمله السياسي، في البداية، في الجزء الشمالي من «الجبل» الخاضع لنفوذ عائلة عامر، المنافسة لعائلة الأطرش، والتي خاضت، مع ذلك، الثورة معها. ومنذ شهر أيار (مايو)، طلب **طلال باشا عامر**، أحد أفراد الأسرة الأكثر طموحاً، الأمان من الجنرال (أندريا). وكان أول درزي يقدم على هذا العمل. وأعاد الجنرال إليه، من أجل استمالة الآخرين، وظيفته القديمة، وهي قائمقامية مقاطعة الشمال، التي لم تكن إلا وظيفة للزينة. وبفضل هذا الاذعان،



ستمر احتلال هذا الجزء من «الجبل» دون صعوبات ودون معارك تقريبا.

ويمم الجنرال ــ الحاكم، عندئذ، وجهه شطر لجنوب، الموقع الأكثر صمودا، والمأوى الأصلي لثورة حيث تسيطر عائلة الأطرش. وفي أول حزيران (يونيو)، انطلق من بصرى، على الحدود لأردنية، بطابور هائل، وتوغل في الجبل، ووصل في ٤ منه إلى صلخد. وحصلت معركة دامية في أم لرمان، في ضواحي المدينة، بعثرت رجال سلطان ن المحاربين. وبعد هذا الانتصار تعددت عمليات الاذعان. واختلفت نسبتها باختلاف وضع الثوار الذين كانوا يجابهون القوات لنظامية باللجوء إلى مناوشات متعددة.

وعلى الرغم من الجهود البطولية التي بذلها سلطان، وهذا الزعيم الآخر للثورة، عادل رسلان، فإن سيطرة الجنرال (أندريا) على الثوار كانت تشتد شيئا فشيئا. غير أن احتضارهم سيطول. وقريبا سيجبرهم احتلال المواقع لاستراتيجية الرئيسية في «الجبل» على الاكتفاء بغارات عابرة ليس بمقدورها إيقاف تقدم الفرنسيين شبرا واحدا.

وفي نهاية عام ١٩٢٦، يمكننا القول «أن عهد الطوابير الضخمة ولى ليحل محله عهد إنشاء شبكة من المراكز الثابتة المكرسة للسهر على القرى المحتلة وحمايتها. وكانت هناك سلسلة من الطوابير الصغيرة المتحركة تتنقل بين المراكز لملاحقة الجماعات المسلحة حيث تظهر... وفي كانون الأول (ديسمبر) تم تركيز عدد من المدافع ذات العيارات الضخمة في العديد من المراكز بحيث كان بمقدورها أن تطلق النار بكثافة وتسيطر على البلد، وتستخدم كمواقع ارتكاز للسرايا الدرزية الجديدة المكلفة، بشكل خاص، بمهمة المحافظة على النظام»[٧٩].

إن عمل الجنرال (أندريا)، المدعوم بهذا التكتيك الذي كان، بالتناوب، دفاعيا وهجوميا، قد تمكن، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧، من رد أنصار سلطان إلى الدهاليز البركانية للهضبة السوداء للجاة والصفا، التي تفصلها عن «الجبل» صحراء مخيفة من الحجارة. والتجأت جماعات عديدة إلى الأردن. وكانت آلاف العائلات الدرزية قد بحثت فيه عن مأوى لها منذ بداية الأعمال الحربية. ومن مخابئهم جدد المسلحون غاراتهم التي لا تكل فيما وراء الحدود[٨٠].

وهذه الحالة، كان بامكانها أن تستمر وتؤخر، لفترة طويلة، عملية تهدئة البلد، لولا التدخل المفاجىء، وغير المتوقع إلى حد ما، الذي قامت به بريطانيا، الدولة المنتدبة على فلسطين. لقد جردت الدروز من سلاحهم، فاضطروا إلى الغوص في الصحراء، آخر معقل لهم[٨١].

وعاشت الثورة. وأعيد النظام إلى سوريا.

«وإذا كانت الحرب، حسب كلمة (Clausewitz)، ليست سوى السياسة التي تسيرها الوسائل العنيفة»، فإن تلك الحرب التي هزت سوريا لعامين متواصلين، وفككت اقتصادها، وكدست الأحقاد والضغائن فيها، كانت سياسة سيئة إلى أقصى درجة، بسبب فقدان الاعداد الأولي والتنظيم اللاحق لزعيم يحظى بطاعة إجماعية، ولأهداف تكون محددة بدقة. إن الثورة السورية لم تكن تمثل في الواقع إلا ردة فعل غير مدروسة ضد نظام الانتداب،

بمبدئه وتطبيقه، ولم تكن إلا فاصلاً مأساوياً في العلاقات الفرنسية السورية. وإخفاقها النهائي لم يكن موضع شك لدى أي إنسان. لقد كانت معركة أقزام ضد عملاق. وقد عرف **تروتسكي** الثورة بأنها «**لكمة المشلول**»، وكانت فرنسا، في عام ١٩٢٥، على أحسن ما يرام، رغم صعوباتها في المغرب وتقلبات عملتها. إن وضعها العسكري في المشرق، مع كل ما أصابه من عسر، كـان بالإمكان ترسيخه بالتعزيزات. وقد استطاعت، بالفعل، في نهاية عدة أشهر، التغلب على بطولة الثوار.

ولكن هذه الحرب قد أسفرت، مع ذلك، عن هذه النتيجة التي لا تنكر، وهي التعجيل في تحقيق التطور السياسي والمعنوي للبلد، وطرح القضية السورية، بكل حدتها، على الرأي العام الفرنسي.

وكانت كذلك قرعة صنج، رهيبة وغير مرتقبة، نبه صداها، الذي ضخمته الصحافة الأجنبية مجاملة، القارة الأوروبية إلى شؤون سوريا. ولم تهمل مستشاريات بعض الدول هذه الشؤون، منذ ذلك التاريخ وحتى الحرب العالمية الثانية التي تحررت في نهايتها سوريا ولبنان واعترف عالميا بسيادة كل منهما. ■

الهوامش

(٥٩) في ١١ تشرين الأول (اكتوبر)، اعلن بيان رسمي أن «بعض الطائرات القت قنابلها على قرى الجنوب، خصوصاً عـلى القرى الخـالية من المسيحيـين» (هكذا).

(٦٠) استطاع الموظفون الفرنسيون مغادرة المدينة تحت حماية زعيم درزي من المنطقة [البيان الرسمي الصادر في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)].

(٦١) «احتلت قوات زيد الأطرش، التي تقدر بألف ثائر، حاصبيا ولم ترتكب أي فعل ذميم ضد المسيحيين» [صحيفة الف باء، الدمشقية، في ١٢ نوفمبر].

«الثوار لم يهاجموا السكان» [صحيفة الأحرار، البيروتية، نفس التاريخ].

وهذا ما قالته صحيفة الصحافي التائه (زحلة ـ لبنان) الصادرة في نفس اليوم: «علينا الاعتراف بأن الثوار يتصرفون حسب منـاهـج منظمـة، وبأنهم أظهروا للمسيحيين في حاصبيا الكثير من الرعاية. فقد سمحوا للنساء والأطفال بمغـادرة المدينـة. وشكلوا حكومة سورية مستقلة، واعلن زعماؤهم بأن اية فتنة لن تفرق بينهم وبين السكان، وبأنهم سيقاومون وحدهم سلطات الانتداب».

وعلى الرغم من هذه الشهادات ومن شهادات كثيرة غيرها، صادرة عن هيئات صحافية، معادية للثوار وخاضعة للرقابة، فقد أعلن بيان فرنسي في الايام التالية: «ان ثوارا ارتكبوا في حاصبيا أعمالا لصوصية دون اللجوء إلى العمليات العسكرية».

(٦٢) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٥١.

(٦٣) البيان المذكور الموجه إلى اللبنانيين.

(٦٤) عندما أعيد احتلال جبل الدروز كافأت سلطات الانتداب حمزة درويش على إذعانه بتعيينه قائمقاما لمدينة صلخد.

(٦٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٥١.

(٦٦) اضطر الثوار إلى مهاجمة هـذه البلدة على اثـر الافعال التي قام بها المتطوعون اللبنانيون بقيادة بطرس كرم [صحيفة **النهار** في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر). راجع استطلاع مبعوثها الخـاص إلى المنطقة]. ويبدو أن هذا ما حصل لقرية (جديدة) [بيان زيد الأطرش إلى اللبنانيين].

(٦٧) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣٥.

(٦٨) هذا الموقف يجب أن يعزى إلى استحالة اعتماد هنانو، الذي تعلم درساًمن تجربة عام ١٩٢١، على الموالي، هذه المجموعة من القبائل البـدوية التي تكون القوة المهمة الوحيدة في المنطقة، إلى الشرق من حلب، والتي استسلم شيـخـاهـا، الشايش وبرجس بن هديب، لسلطات الانتداب في حلب، في ١٤/١٢/١٩٢٥.

(٦٩) تقرير عام ١٩٢٧، ص ٣٦.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٣٦.

(٧١) تقرير عام ١٩٢٦، ص ٧.

(٧٢) تقرير عام ١٩٢٦، ص ٨.

(٧٣) المرجع السابق، ص ٨.

(٧٤) ودائمـا وفقا للأسـاليب نفسها: تـدمير القـرى، والاعدام الفوري للمشبوهين. وهنـاك وثيقة ذات اهمية خاصة، صادرة عن قائمقام الزبداني، المحب الموثوق لفرنسا، تصف مرور إحدى فرق التطهير هذه بقرية من قرى قضائه، وتقول:

«البارحة، الثلاثاء، في ١٥/٢/١٩٢٦، حـوالي العاشرة صباحا، كنت والموظفين وسكان المنطقة شهودا لمنظر مؤثر ترتعد من هوله الفرائص:

«قرية مسكينة... لم يصدر عنها يوما ما يعكر صفو الأمن العام، قد هدمت على رؤوس قاطنيها من النساء والأطفال والشيوخ، تحت نيران مدفع منقول من رياق. واستمر القصف الذي كان يوجهه القائد الفرنسي من قطاع الزبداني حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. أما القرية فهي مضايا...

«... عندما قابلت القائد الفرنسي سألته عن نوع الجرم الذي اقترفته هذه القرية حتى تستحق مثل هذا العقاب، فأجابني بأنها آوت جماعة جمعة (Jama Sausok).

«لقد تسللت ليلا إحدى الجماعات المسلحة إلى قرية عزلاء. وكانت مفرزة فرنسية على مسافة خمسة كيلومترات. ودخلت الجماعة القرية وبثت الرعب في نفوس قاطنيها، وأساءت معاملتهم، ولم توفر المختار علي محرز الذي اصابته البارحة شظية قذيفة فشطرته قطعتين... ونهبت مؤنهم... وبقيت في القرية أكثر من ٤٨ ساعة، على مرأى منا ومن القائد الفرنسي نفسه. ووجه السكان إلينا رسلاً لابلاغنا ما حدث وطلب النجدة.

«وتوسلت إلى القائد الفرنسي، بالحاح، وبكل قواي، كي يطلب إرسال طائرة... أو يذهب بنفسه... وكان الجواب الوحيد الذي وجهه إلي هو: «ليس من مهامي المحافظة على هذه القرية أو تلك. ليس لي من مهمة إلا حراسة الخط الحديدي او المحطات... وما على الجماعة المسلحة إلا ان تحاول الاقتراب مني».

«وخلال أيام اربعة بعد هذه الأحداث كان سكان مضايا يفدون إلي بحالة يرثى لها ويتقدمون بشكاوى حول ما تعرضت له قريتهم. وخلال هذه الأيام الاربعة بذلت جهداً لاقناع القائد الفرنسي بأن سكان القرية لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عن مرور الجماعة بقريتهم.

«... وبدا لي أن القائد كان موافقاً على ما عرضته عليه وأنه كان يشاطرني العواطف حول هذا الموضوع. وقد اقتنعت بذلك إلى درجة أنني رحت أهدىء من ورع السكان مؤكداً لهم انه لم يعد لدى المقاطعة ما تخشاه.

«ولكن البارحة صباحا وقعت المأساة. إن قرية مسكينة قد قصفت دون أي إخطار، لا من جانب الحكومة التي كانت تجهل كل شيء، ولا من جانب الفرنسيين. وهلك النساء والأطفال والشيوخ بالجملة

«وإزاء عمل كهذا... أعتبر، بصفتي رئيسا لهذه المقاطعة، أن واجبي المقدس يملي عليّ أن احتج على ما حدث.

«وبناء على ذلك، فإني أتوسل إليك (يا وزير الداخلية) بأن تتكرم بقبول استقالتي من الوظيفة في الدولة السورية التي ضحيت، من أجل خدمتها، بمنصبي في وزارة الخارجية في باريس...».

في ١٩٢٦/٢/١٦

الامضاء: نسيب مسلم الخياط

ومضايا ليست القرية الوحيدة التي تعرضت لهذا المصير الوحشي، فقد اعد السوريون لائحة بالقرى التي دمرت.

(٧٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣٤.

(٧٦) هناك تفاصيل مؤلمة نجدها ــ كما نجد ذلك في كل التقارير التي سبق لنا ذكرها ــ في الملاحظات المخطوطة الواردة في محاضرة القاها السيد نحاس الذي كان، في الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث، مدير التجارة والصناعة في دولة سوريا.

(٧٧) «ان الفرق العسكرية الفرنسية، من كل سلاح، تحيي، وهي منتصرة، بسالة اخصامها التي جعلتهم يندفعون، دون أي تخاذل، إلى الموت تحت نيران مدفعيتنا ورشاشاتنا وبنادقنا... وبلغت خسائر الفرق الفرنسية خلال يومي المعركة (٢٤ و ١٩٢٦/٤/٢٥) ٨٤ قتيلا، في حين أن عدد الجثث الدرزية التي بقيت فوق أرض المعركة قد حددته بعض الساحات، بين غارية والسويداء، التي كانت كليا مغطاة بالخيول والفرسان... وإذا كانت هيئة الأركان الفرنسية قد قدرت عدد القتلى من الدروز المساكين، الذين تركوا فوق أرض المعركة او حملوا من قبل رفاقهم، بحوالى الألف على الأقل، فإن هذا الرقم هو بالتأكيد أدنى من الرقم الحقيقي».

[بيان رسمي صادر في ١٩٢٦/٥/٤].

(٧٨) لقد تسبب نزع السلاح، كما حدث في كل مكان تم فيه، في نشوء تجارة تهريب مثيرة، وهذا ما جعل البطريرك الماروني يقول، متوجها إلى السيد ريفي (de Reffye) الأمين العام للمفوضية السامية: «لماذا تفرضون على قرية ما غرامة من عشر بنادق؟ وإذا لم يكن لدى هذه القرية عشر بنادق، فلماذا يكره القرويون المساكين على شرائها من مكان آخر؟ إن البنادق غير متوافرة، فلماذا تلزمونهم بالحصول عليها من تجار السلاح الذين تحرصون على الارشاد إليهم سلفا؟». لقد انشىء هذا النظام منذ بداية الانتداب، ولكنه بلغ خلال الثورة درجة فاضحة من الانتشار.

(٧٩) تقرير عام ١٩٢٧، ص ١٠.

(٨٠) لقد حصل آخر لقاء من هذا النوع في الجبال المتاخمة لدمشق، في منطقة (بصّيما ــ Bassima) وقد سحقت الجماعة السورية المسلحة (وكانت مكونة من ١٣٠ رجلا) بسبب التفاوت في العدد (مقابل ١٢٠٠ جندي). ولقي الأمير عز الدين الجزائري، من عائلة عبد القادر، مصرعه في المعركة (في ١٩٢٧/٥/٧) بعد إنجازه اعمالاً بطولية خارقة. وكان قد ناضل بلا انقطاع في صفوف الثورة منذ عام ١٩٢٥.

(٨١) لقد عاشوا شهورا طويلة تحت خيمهم المصنوعة من الوبر، مبعثرين فوق أرض الملك ابن سعود، بعد أن حصد الفقر والمناخ والعزلة أرواح معظمهم. وعادوا إلى «الجبل» بعد إذعانهم.

في يوم القادسية (*)

كان أبو محجن الثقفي[1] من المعاقرين للخمر، المحدودين في شربها، اقام عليه عمر بن الخطاب الحد مراراً، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه حرسياً[2]، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حرب القادسية.

ولما بلغ عمر كتب الى سعد بحبسه، فحبسه في القصر، وتطلع أبو محجن إلى الحرب، فرآها مشتعلة، فذهب الى سلمى بنت ابي حفص — زوج سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء[3]؛ فلله علي إن سلمني الله أن ارجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي؛ فقالت: وما أنا وذاك؟ فرجع يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حزناً ان تردي الخيل بالقنا
واترك مشدوداً علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت
مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة
فقد تركوني واحدا لا اخا ليا
وقد شف جسمي انني كل شارق[4]
اعالج كبلاً[5] مصمتاً قد برانيا
فلله دري يوم اترك موثقاً
وتذهل عني اسرتي ورجاليا!
حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت
وإعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا اخيس[6] بعهده
لئن فرجت الا ازور الحوانيا[7]

* * *

فقالت له سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، واطلقته.

فاقتاد ابو محجن الفرس، واخرجها ثم ركبها، ودب عليها، وفي ذلك اليوم اظهر من شجاعته عجبا. ولما تحاجز اهل العسكرين اقبل ابو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، واعاد رجليه في القيد وقال:

لقد علمت ثقيف غير فخر
بأنا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعا سابغات
واصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن احبس فقد عرفوا بلائي
وإن اطلق أجرعهم حتوفا

فقالت له سلمى: يا أبا محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام اكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية؛ وأنا امرؤ شاعر، يدب الشعر على لساني، فينفثه احيانا، فحبسني لأني قلت:

إذا مت فادفني إلى اصل كرمة
تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة[8] فإنني
اخاف إذا ما مت الا اذوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر ابي محجن، فدعا به وأطلقه، وقال: اذهب فما انا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، فقال: والله لا اجبت لساني إلى قبيح ابداً.

(*) مهذب الاغاني: ٢ — ٤٨، الخزانة: ٣ — ٥٥٢، الاغاني: ٢٠ — ١٣٨، الكامل لابن الاثير: ٢ — ٣٣٢، المسعودي: ١ — ٤٢٣.

(١) ابو محجن اسمه وكنيته على المشهور، أسلم سنة ٩هـ، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه، وكان جواداً كريما من الفرسان المشهورين في الجاهلية والاسلام. مات سنة ٣٠هـ.

(٢) الحرسي: واحد حرس السلطان.

(٣) البلقاء: فرس سعد بن ابي وقاص.

(٤) اصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٥) الكبل: القيد.

(٦) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٧) الحانية: الدكان، وهو يريد امكنة بيع الخمر.

(٨) الفلاة: الارض المهلكة.

● قال تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراه والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».

(صدق الله العظيم)

مخطوط «تاريخ الملك الأشرف قايتباي» وغزوات المماليك إلى قبرص

د. عمر عبد السلام تدمري

يرتبط تاريخ جزيرة قبرص في العصر الاسلامي إلى حد بعيد بتاريخ دول الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عموما، وببلاد الشام ومصر خصوصا، وقد تميز هذا الارتباط بالاحتكاك الحربي من وقت لآخر، حيث بدأت بواكيره مع أول غزوة إسلامية إلى الجزيرة في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، قادها معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩ م. ومنذ ذلك التاريخ سجلت المصادر والمراجع صفحات مليئة بوقائع العلائق السياسية والاقتصادية والعسكرية بين المسلمين وأهل الجزيرة، وتأرجحت تلك العلائق بين معاهدات ودّية، وحروب عدائية متبادلة.



وفي دراستنا هذه نعرض لنص تاريخي في كتاب مخطوط بعنوان «تاريخ الملك الأشرف قايتباي» لمؤرخ مجهول، يرجح انه «جلال الدين السيوطي» المتوفي سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م. يتحدث عن غزوة المماليك إلى الجزيرة وفتحها في عهد الملك الأشرف «برسباي»، وتقوم بتحقيق الفاظه ومصطلحاته، والمخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، تحت رقم (٨٥٥٤ ح)، واستغرقت أخبار فتح الجزيرة من الصفحة (٥٠ ب) ــ (٥٦ ب).

وقبل الشروع في عرض النصّ، تجدر الاشارة إلى أن ملك قبرص «بطرس دي لوزنيان بن هيو الرابع» قام بغزوتين كبيرتين إلى سواحل مصر والشام، استهدفت الأولى مدينة الاسكندرية في أوائل سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م. والثانية مدينة طرابلس الشام في أول سنة ٧٦٩هـ/٢٧ أيلول ١٣٦٧م[1]. ثم تعرّضت مدينة صيدا لغارة في شهر ذي القعدة سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م[2]. وتعرّضت الاسكندرية في الشهر التالي (ذي الحجة) لغارة مماثلة[3]. ولما كانت تلك الغارات لم تحقق أي نصر عسكري على المسلمين، فإنها ــ على الأقل ــ تسببت في زعزعة حركة التجارة البحرية بين دولة المماليك وبعض البلاد الأوروبية، وكان هذا داعيا لموافقة سلطان مصر على توقيع عقد الصلح مع القبارصة، وتم ذلك في سنة ٧٧٢هـ/ تشرين الأول ١٣٧٠م[4]. بعد مقتل «بطرس» ملك قبرص، واستلام «بطرس الثاني» حكم الجزيرة من بعده.

ورغم توقيع عقد الصلح، فإن القبارصة لم يحترموا شروط الصلح احتراما كليا، إذ كانت موانىء قبرص تتخذ ملجأ لسفن الجنوية عندما كانوا يغيرون على سواحل الشام ومصر. كما أن القبارصة انفسهم كانوا يشاركون الكتلان والجنوية في غاراتهم منذ أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بل إن ملك قبرص الجديد قام بنفسه بغارة مع الكتلان في سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٥]. وتوالت غاراتهم بعد ذلك، مما دفع بالمماليك إلى الاغارة على الجزيرة في عامي ٨١٣ و ٨١٤هـ/١٤١٠ و ١٤١١م. ولكن القبارصة عادوا وأغاروا على ساحل الشام جنوبي بيروت في سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م[٦].

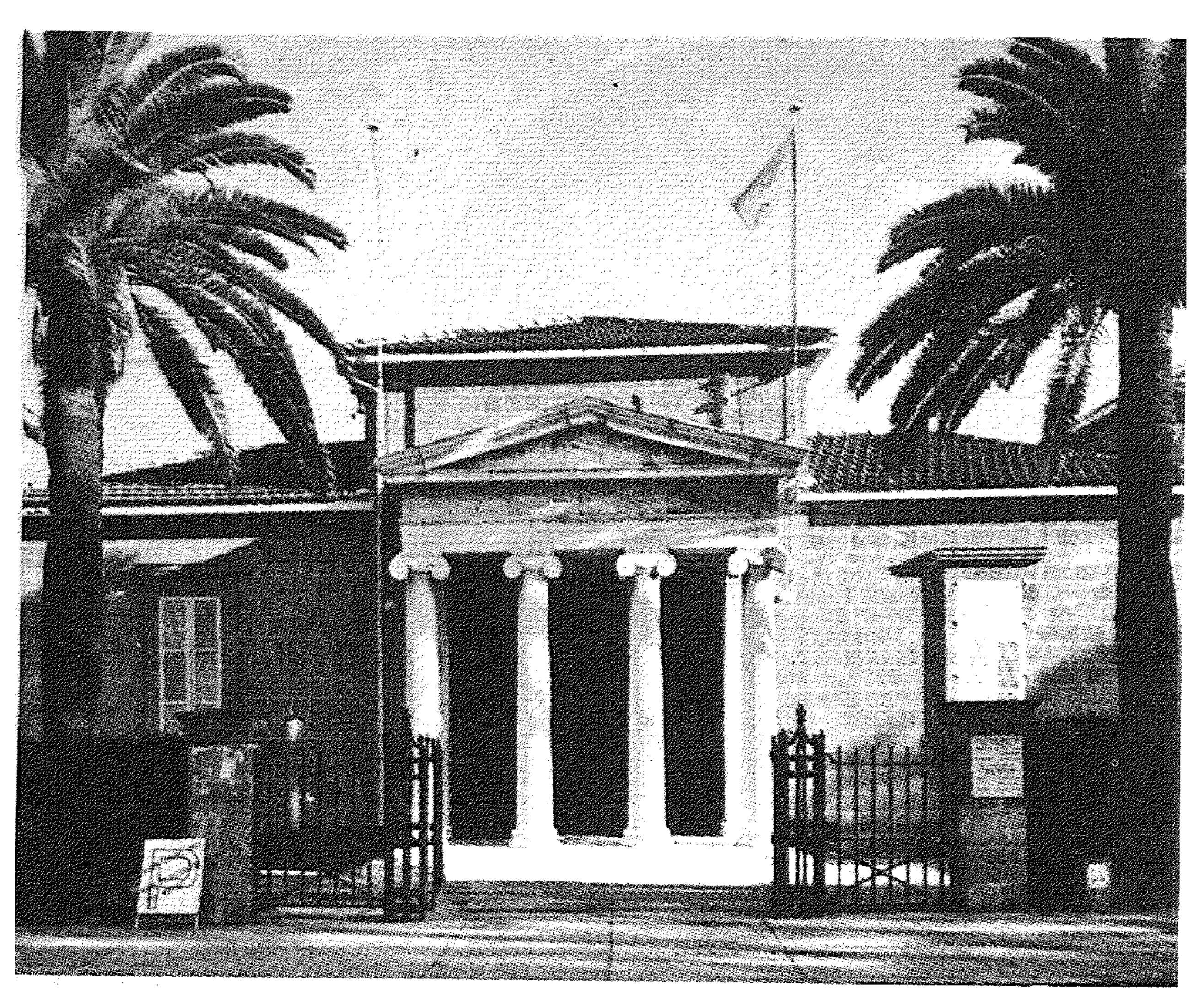
وعندما عزم السلطان المؤيد «شيخ المحمودي» (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/١٤١٢ ـ ١٤٢١م) على غزو الجزيرة سارع ملكها إلى عرض الصلح، فأجابه «المؤيد» إلى ذلك، شرط أن يتعهد بالامتناع عن إيواء القراصنة في موانىء الجزيرة، وألا يسمح بالقيام بأي عمل من اعمال القرصنة ضد سواحل الشام، وأن يتعهد بألا يقدم الزاد أو المأوى للقراصنة في حالة إذا ما لجأوا إلى موانىء جزيرته، وأن يمتنع رعاياه من القبارصة عن شراء البضائع من القراصنة. وتم الاتفاق على فداء ثلاثمائة وخمسة وعشرين أسيرا من المسلمين كانوا في الجزيرة، وانعقد الصلح في ١٤ تشرين الثاني ١٤١٤م (٨١٧هـ)[٧].

ورغم انعقاد الصلح هذا، فإن القبارصة عادوا إلى سياستهم العدوانية في العام التالي، مما حدا بالسلطان «المؤيد» أن يطبق مبدأ المسؤولية الجماعية ضد جميع تجار الفرنج وقناصلهم في الاسكندرية ودمشق[٨]. وإذ كان البنادقة حريصين على مصالحهم التجارية وعلاقتهم مع المماليك، فقد سارعوا بإرسال سفير يحمل هدية للسلطان، مع كتاب ينفي أية علاقة لهم بأعمال القرصنة التي يقوم بها الفرنج، فقبل «المؤيد» هديته، وعقد مع البنادقة معاهدة مؤرخة في ١٧ أيلول ١٤١٥م (٨١٨هـ)[٩].

واستمر القبارصة في غاراتهم على ساحل مصر والشام حتى استقر الحكم في دولة المماليك للسلطان «الأشرف برسباي» في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م. وفي عهده فتحت صفحة جديدة من صفحات الحروب بين المسلمين والقبارصة، وامتازت هذه الصفحات بأن المسلمين أخذوا زمام المبادأة وراحوا يكيلون الضربات للقبارصة في عقر دارهم بعد أن كانوا في موقف الدفاع خلال نصف قرن سبق.

ولقد واجه «الأشرف برسباي» بعد أيام قليلة من توليه مقاليد السلطنة، وبالتحديد في شهر شعبان ٨٢٥هـ/١٤٢٢م. غارة واسعة للقبارصة والكتلان شملت ساحل مصر، وبرقة، والشام، وسمح لهم عدم استعداد المماليك من الناحية البحرية بنجاح غارتهم على الاسكندرية. ويشير إلى ذلك المؤرخ «المقريزي» في روايته، حيث يقول: «وهجم في الليل غرابان فيهما طائفة من الفرنج على ميناء الاسكندرية، فوجدوا فيها مركبا للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار، فاقتتلوا معهم عامة الليل، فخرج الناس من المدينة فلم يقدروا على الوصول إليهم لعدم وجود المراكب الحربية عندهم، ولا وصلت سهامهم إلى الفرنج بل كانت تسقط في البحر»[١٠]. وبعد أن أحرقوا المركب التجاري بكل ما فيه من بضائع، توجهوا نحو ساحل برقة، فاستولوا على البضائع والأموال وعادوا إلى الاسكندرية، ومنها ساروا إلى ساحل الشام فأغاروا على بيروت، ثم عادوا إلى قبرص بعد أن أصابوا كثيرا من البضائع والأموال، ووقع في قبضتهم عدد كبير من التجار والأهالي المسلمين[١١].

وجاءت هذه الغارة لتضع الانتقام من القبارصة والكتلان في أولى اهتمامات «الأشرف برسباي». وكان من الطبيعي أن يتخذ اجراءات انتقامية ضد الفرنج، فنقض الاتفاقية التي كانت قائمة بينه وبين البنادقة، وانقطعت العلاقة بينه وبين الكتلان الذين أرسلوا سفارة لهم قبل فترة إلى مصر[١٢]، بينما أخذ يعد العدة لغزو قبرص. وسبق ذلك قيام القبارصة والكتلان بغارة على نواحي دمياط في شهر رجب ٨٢٧هـ/١٤٢٤م. استولوا فيها على مركبين تجاريين فيهما بضائع كثيرة وما يزيد عن مائة رجل[١٣]. وفي رد انتقامي أمر الأشرف «برسباي» بايقاع الحوطة على أموال التجار التي في بلاد الشام والاسكندرية ودمياط، والختم عليها ومنعهم من السفر[١٤]. وبدأت السفن الحربية المصرية



□ المتحف الوطني في قبرص ويحتوي على بعض المخطوطات الاسلامية.

تتحرك للتصدي للفرنج...

ومن هنا يمكن البدء باثبات النص التاريخي حول غزوات المماليك لقبرص كما جاء في:

«تاريخ الملك الأشرف قايتباي»

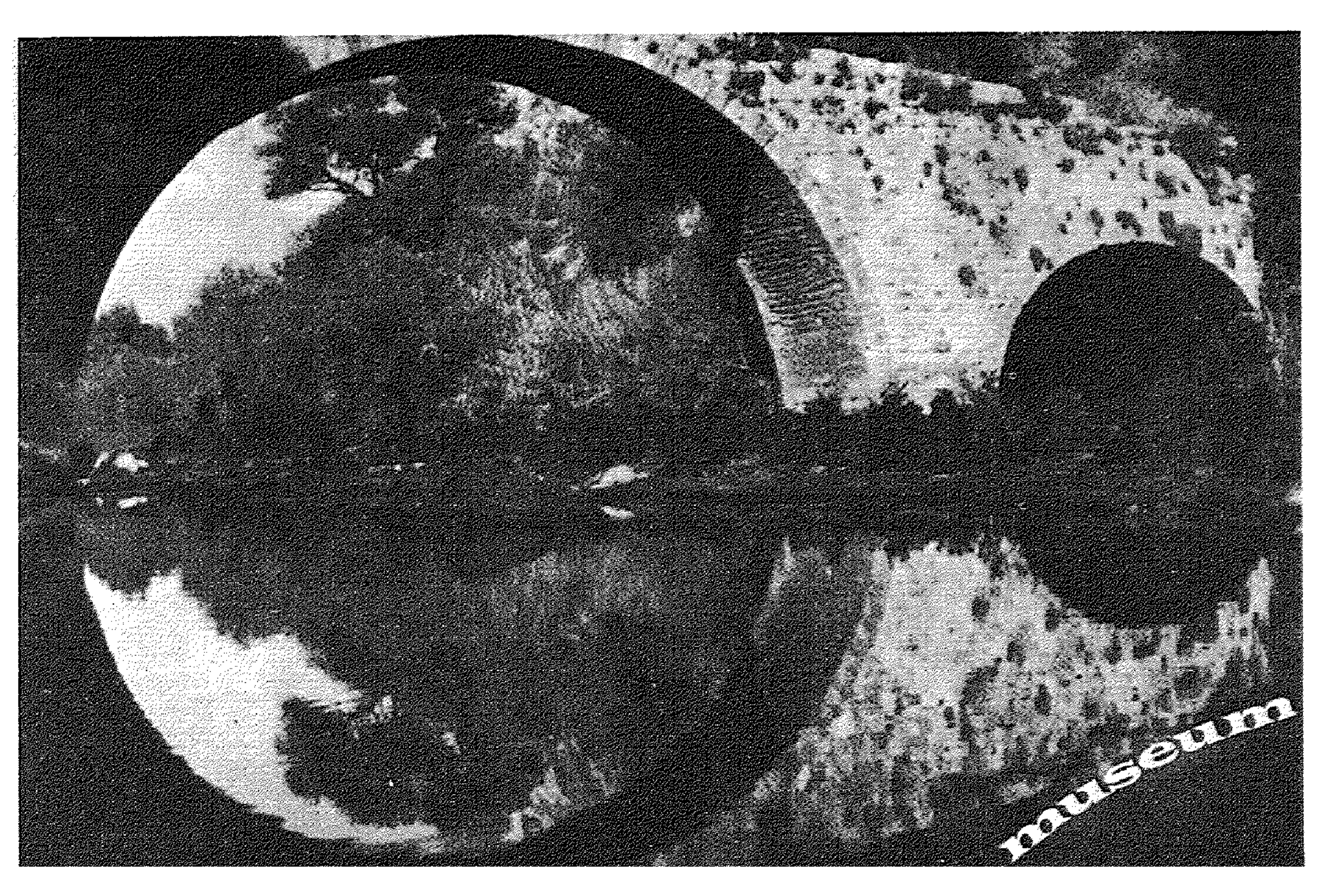
/ ٥٠ ب /

«.. في سنة سبع وعشرين وثمانماية جهز الملك الأشرف إلى الغزاة في سبيل الله لقتال الفرنج، من البلاد المصرية، مركبين، وخرج لهم من بيروت مركب، ومن صيدا مركب، فاجتمعوا وعدتهم ستماية مقاتل وثلاثماية فرس، ونازلوا جزيرة الماغوصة[١٥] فانتهبوها واحرقوا ما بها من القرى وما بساحلها من المراكب، وقدموا سالمين غانمين، وفرح الناس لذلك. وكان رجوعهم في شهر شوال منها، فقدموا إلى القاهرة في العشرين من ذي القعدة، وكان معهم من الأسرى ألف نفس وسبعمائة نفس.

ثم في سنة ثمان وعشرين وثمانماية، لما رجع العسكر من الغنيمة والأسرى عند توجههم في سنة.

/ ٥١ أ /

سبع وعشرين وثمانماية، أمر السلطان الأشرف بتجهيز الأغربة[١٦] والاستكثار منها لغزوة قبرص، وهي الغزوة الأولى لها، وجد الملك الأشرف في ذلك، وأرسل إلى طرابلس[١٧] والاسكندرية، ودمياط، وبيروت، وأمر بتركيز الجند في السواحل حفظاً لها من تعدي الفرنج عليها، فاتفق أن «جانوس»[١٨] صاحب قبرص جهز غرابين وسلورة[١٩] وشحنها بالرجال والعدد، وأمرهم بتتبع السواحل ونهب ما استطاعوا، وإفساد ما قدروا عليه، فلم يبلغوا من ذلك غرضا لحفظها بالجند. واتفق أنهم احتاجوا إلى الماء، فانتهوا إلى مكان يقال له «نهر الكلب»[٢٠]، فلما رآهم الحرس كمنوا لهم،



□ ملك قبرص، جانوس، حاول غزو منطقة نهر الكلب لقطع التجارة البحرية بين العرب واوروبا.

فلم يروا أحدا، فدخلت السلورة النهر، وهو ضيق، فخرج عليهم الكمين، فأحرقوها وأسروا من فيها، ورجع من في الغرابين إلى قبرص.

ولما تكاملت العمارة، جهز الملك الأشرف الجند، وتوجه صحبهم من المقاتلين تطوعا عدد كثير. وركب السلطان الأشرف إلى الساحل.

/ ٥١ ب /

فعرض الجميع وسافر إلى دمياط، وكان باشهم[٢١] الأمير «جرباش قاشق»[٢٢].

وكان «جانوس» صاحب قبرص جهز أميرا من أمرائه يقال له «باله»[٢٣] في تسعة أغربة، فوقف على فوهة دمياط يمنع أغربة المسلمين من الدخول في البحر الملح، فوقف هناك، فصادف مجيء العمارة[٢٤] من الاسكندرية، فقصدوهم، فانهزموا منهم بغير قتال. وسافر الجميع من فم دمياط إلى طرابلس، فانضم إليها المراكب المتجهزة منها ومن بيروت، واجتمع فيها من الأمراء والجند والمتطوعين بالقتال ومن العشير[٢٥] والزعر[٢٦] عدد كبير. ثم أرسل الأمير «جرباش» كبير عسكر المسلمين [إلى] «جانوس» صاحب قبرص في الدخول في الطاعة، فامتنع، فسافروا إلى جهته، فوصلوا إلى الماغوصة، فطلع الخيالة وأكثر المشاة، وضربوا خيامهم بالبر، فحضر رسول من صاحب الماغوصة ومعه ضيافة وقال إنه في الطاعة. وكان ذلك في رمضان. وأوقع الله الرعب في الذِينَ كَفَرُوا[٢٧]، حتى كان الثلاثة من المسلمين يدخلون.

/ ٥٢ ب /

الضيعة وفيها ما بين المائة والخمسين، فلا يمتنع عليهم أحد.

ثم صادفهم أخو «جانوس» صاحب قبرص في ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، غير الكمناء. ثم إنه قذف الله في قلبه الرعب فرجع بمن معه.

ولما تمت لهم في «الماغوصة» أربعة أيام وقد أوسعوها نهبا وأسرا، قصدوا «الملاحة»[٢٨] وأحرقوا ما مروا عليه إلى مكان يقال له رأس العجوز[٢٩]، فوجدوا هناك أميرا فأسروا من معه وقتلوه، ثم صادفوا تسعة أغربة وقرقورة[٣٠] مشحونة مقاتلين، فلاقاهم المسلمون، فانكسر للنصارى غراب وزورق، وهرب من فيهما إلى البر، فأسرهم المسلمون.

وكان من تدبير صاحب قبرص أنه أرسل أخاه في الجبال، وأرسل المقاتلين في البحر، ووصل عسكر المسلمين إلى «الملاحة» وضربوا خيامهم بها، وشنوا بها الغارة في الضياع، وقتلوا الذي كان أميرا على «الملاحة»، ويقال إنه كان شديدا على أسرى المسلمين.

/ ٥٢ ب /

ويقال إنه كان اسمه «عين الغزال»[٣١]، وكان «جانوس» أمده بأربعة أحمال زردخاناه[٣٢] على عجل، فأحاط بها المسلمون، ثم جمعوا الغنائم والأسرى ورجعوا إلى المراكب إلى أن وصلوا إلى «اللمسون»[٣٣] فحاصروا الحصن الذي هناك، فأخذوه عنوة أي قهرا، وملؤا أيديهم من الغنائم والأسرى، وأحرقوا الحصن، وكان ذلك في يوم الخميس مستهل شهر شوال. وجهز الأمير «جرباش» مبشرا بالفتح.

ويقال إن جملة من قتل في مدة نصف شهر من الفرنج خمسة آلاف، ولم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة إلا ثلاثة عشر نفسا. وكان طلوعهم إلى القلعة[٣٤] بالأسرى والغنائم يوما مشهودا، وكان بقية شوال منها.

ثم في سنة تسع وعشرين وثمانماية بلغ السلطان الملك الأشرف أن «جانوس» صاحب قبرص راسل ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين المسلمين، ويشكو ما جرى على بلاده، فأرسل كل منهم له نجدة، وأرسل ملك الكيتلان[٣٥] ابن أخيه بمراكب وفرسان.

وجدّ «جانوس» صاحب.

/ ٥٣ أ /

قبرص في عمارة المراكب والقراقير وغيرها على قصد الاسكندرية تشبها بأبيه، فإن والده كان طرق الاسكندرية في أواخر سنة ست وستين وسبعماية في أيام الأشرف «شعبان بن حسن»[٣٦] ودخلها عنوة في آخر المحرم وأوائل شهر صفر سنة سبع وستين وسبعماية، وانتهبها وأسر منها خلايق. والقصة مشهورة. فأمر السلطان الأشرف، لما بلغه ذلك، بعمارة الأغربة والحمالات، وجد في ذلك، وبذل الأموال. فلما تكاملت العمارة انحدرت إلى «فوه»[٣٧]، ويقال إنه بلغت عدة العمارة ماية قطعة وزيادة. وندب «أينال الجكمي» و«تغري بردي المحمودي»[٣٨] وغيرهما من الأمراء الكبار والصغار للغزاة، وأن يكون «أينال الجكمي» على من في البحر، و «تغري بردي» على من في البر، وأن لا يعارض أحدهما الآخر. وكان معهم من الأمراء «قرا مراد خجا الشعباني» و«يشبك الشاد» و «أينال العلائي الأجرود» وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة طويلة[٣٩]، و «سودون اللكاش» و «جانم المحمدي»، وغيرهم.

/ ٥٣ ب /

وتلاقت المراكب من الاسكندرية مع المراكب المصرية بثغر «رشيد» في شهر رجب، فاتفق أن الريح هاجت في بعض الليالي فكسرت أربع حمالات، ومات فيها ماية فرس وتسعة أنفس. وبلغ السلطان الأشرف ذلك، فتطير جماعة من الأمراء، وثبت السلطان ولم يتطير. وقال له كاتب السر، وهو حين ذاك المرحوم القاضي «بدر الدين ابن مزهر»[٤٠] ـــ تغمده الله برحمته: يا مولانا السلطان، ما كان أوله كسر آخره جبر.

ولما بلغ قراقر الاسكندرية ما جرى على الحمالات، راجع أميرهم إلى الاسكندرية فأقام بها يحث العساكر.

فلما كان مستهل شهر شعبان، هجم عليهم غراب وقرقورتان مملوءة[٤١] من المقاتلين، جهزهم صاحب قبرص ليأخذوا من يجدونه بساحل الاسكندرية لعلمه بسير القراقير الخمس إلى جهته، بإعلام من البلد من الفرنج له، فدخلوا وهم يظنون أن الخمس قراقر بـ «رشيد»، فواجهوهم، فأرشقوهم رميا بالنشاب إلى أن هزموهم.

/ ٥٤ أ /

فاتفقوا أنهم خرجوا مقلعين، فوافاهم أغربة أرسلها إليهم من بثغر «رشيد» من الجند[٤٢]. فلم تزل الجند والمراكب توافيهم من كل جهة إلى الرابع والعشرين من شهر شعبان. فساروا مقلعين حتى وصلوا إلى «اللمسون» فوجدوا الحصن الذي كانوا أخربوه قد عمر وشحن بالمقاتلين، فأحاطوا به في السابع والعشرين. وصعد «يشبك قرمش» وهو من الفرسان المعدودين ومن معه على سلم من خشب، ومعهم خلق كثير، فهرب الفرنج الذين في الحصن بعد أن كانوا أوقدوا قدور الزفت تغلي نارا ليصبوها على

من يصعد إليهم من المسلمين، فهزمهم الله تعالى، وملكوا البرج الأول، وأحاط بعض المسلمين بالأقلسية، وهي قرية خارجة عن حكم «جانوس» صاحب قبرص، نظير «الماغوصة» وهي من البنادقة، فطلبوا من المسلمين الأمان، فأمنوهم، فحملوا إليهم الهدايا والضيافات، فسألوهم عن «جانوس» ملك قبرص، فقالوا إنه مستعد في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف.

/ ٥٤ ب/

راجل، فراسلوه أن يدخل تحت الطاعة ليؤمنوه على نفسه وجنده وبلده وإلا قاتلوه وخربوا قصره وأسروه وقتلوه. فلما بلغته الرسالة اخذته حمية الجاهلية، فقتل الرسول وأحرقه. فبلغ المسلمين الخبر في مستهل رمضان[٤٣]، فاقتسموا قسمين، النصف مع «تغري بردي المحمودي» في البر، والنصف مع «اينال الجكمي» في البحر، فلم يزل أهل البر سائرين حتى وصلوا موضع الكنيسة، فوجدوها خرابا والبئر التي بها قد هدم، فحفروا حوله فظهر الماء، فشربوا، بعد أن كانوا عطشوا، ثم ساروا في جبال وتلال وهم صوام والحر شديد، فنزل المقاتلون في ظل الشجر، وإذا بصارخ يصرخ: جاءكم العدو، فثاروا وركبوا، وحصلت زحمة عظيمة.

وكان «جانوس» لما قتل الرسول ركب في عساكره بعد عرضهم، وجهز قراقيره في البحر للاحاطة بمن في البحر، فلما تراءى الجمعان انحاز إلى بساتين هناك، وجعل بينه وبين المسلمين نهرا، وتقدمه نحو:

/ ٥٥ أ/

.. الخمسمائة من المقاتلين الفرنج، فبرز لهم من المسلمين خمسة: «تغري بردي الخزندار المؤيدي» و «قطلبغا المصارع» و «علان» وآخران اثنان. فلحق بهم «ابن القاق» مقدم جيش الشام، فنادوا: يا وجوه العرب، ويا آل جركس، إن أبواب الجنان فتحت، إن متم كنتم شهداء، وإن عشتم عشتم سعداء، بيضوا وجوهكم وأخلصوا لله العمل. فحملوا حملة واحدة، فنصرهم الله. وقاتل «قطلبغا» قتالا عظيما وفتر جواده، فقام عنه وقاتل راجلا إلى أن قُتل، رحمه الله. فلما رأى «جانوس» صاحب قبرص أن عسكره في إدبار وقد استظهر عليهم أهل الاسلام ركب إلى الهرب.

ثم إن عسكره خالفوه وحملوا، فصبر لهم المسلمون، واشتد الأمر. فاتفق أن «جانوس» صاحب قبرص وقع عن فرسه، فنزل أصحابوه وأركبوه غيره، فوقع ثانيا، فنزلوا فأركبوه ثانيا، فكبى به الفرس، فدهشوا وذهلوا عنه، فانكسر عسكره وولوا الأدبار، فرآه بعض الترك، فأراد قتله، فصاح: أنا الملك.

/ ٥٥ ب/

فأسروه. واستمر المسلمون خلف الفرنج فأوسعوهم قتلا، فلم يزالوا كذلك إلى أن غربت الشمس.

وقيل إن جملة من قتل منهم في ذلك اليوم ستة آلاف، ثم رجع المسلمون فنزلوا على الماء وباتوا على أهبة، فلما أصبحوا توجه الأمير «يشبك الشاد» ومن معه إلى جبل الصليب فخربه وما حوله من الديارات، وأحضروا الصليب الذي كان به، وكانوا يعظمونه، حتى سموه صليب الصلبان.

ثم صار «تغري بردي المحمودي» بالعساكر إلى جهة «الملاحة»، وتوجه بعض العسكر إلى من بالمراكب فأعلموهم بما وقع من المسلمين، وأن صاحب قبرص مقيد، وأن أخاه قتل، وأن ابن اخي صاحب الكيتلان الذي جاء نجدة له مقيد.

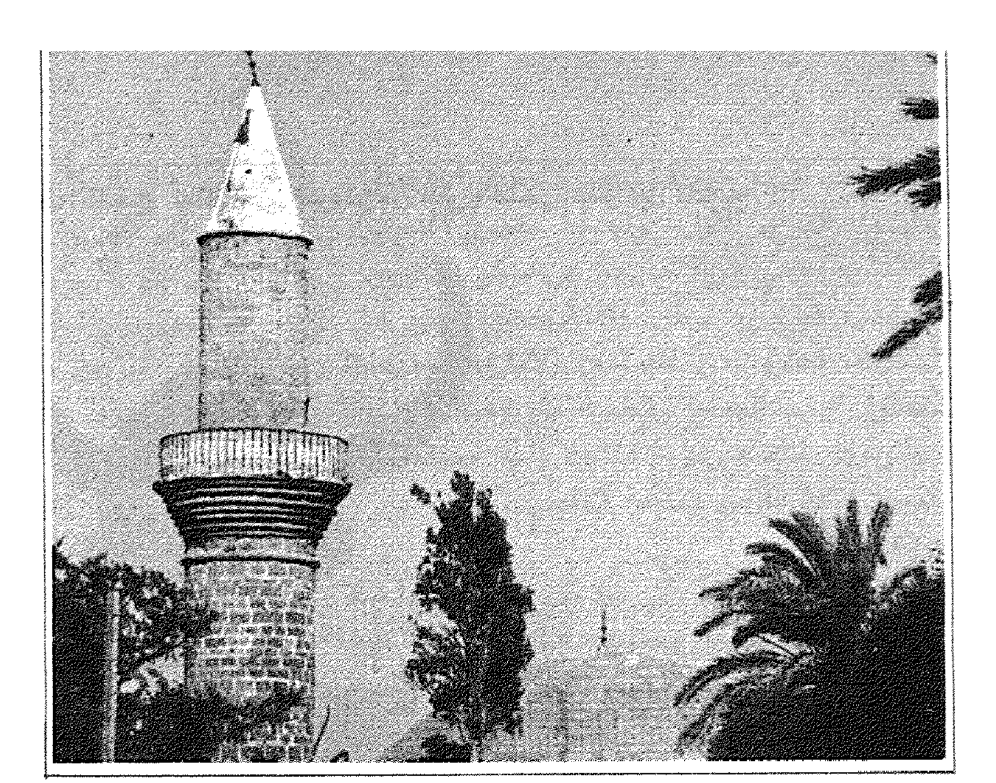
ثم وصل العسكر، وكان ثاني رمضان، فلما كان يوم الخميس خامسه ساروا إلى «الأفقسية»[٤٤] وهي كرسي المملكة، فلما رأى الفرنج الذين في القراقر [ذلك] خلوا البحر من الجند حطموا على مراكب المسلمين، فأمر «أينال الجكمي» من معه بمدافعتهم، وأرسل إلى «تغري بردي المحمودي».

/ ٥٦ أ/

يعلمه، فأعاد عليه أكثر العسكر، وتأخر معه طائفة. فلما رجعوا وجدوهم في وسط القتال، فأعلنوا بالتكبير، فأجابهم من في البحر، وبادروا إلى طلوع المراكب، وشنوا الغارة على مراكب الفرنج، فاشتد القتال إلى أن دخل الليل، فحجز بينهم. فلما طلع الفجر بعدت مراكب الفرنج عن المسلمين، فلما هربوا تفطن «أينال الجكمي». فلم يجد الريح يساعدهم، فتتبعهم «إياس

□ حضارة قبرص ترجع إلى آلاف السنين تمثال منّ البرونز من القرن الثاني عشر قبل المسيح.





□ تكية هالا سلطان في قبرص.

الجلالي» فقطع مركبا، ووقع القتال بينهم. وكان بالمركب ثلاثمائة مقاتل، غير الأتباع، فرمى عليهم بالسهام الخطائية[٤٥] حتى ما بقي أحد منهم يجسر يخرج رأسه، فطلع المسلمون وملكوها وقتلوا أكثر من بها. واستمرت بقية مراكب الفرنج هاربة في البحر حتى غابوا عن الأعين، (وكفى الله المُؤْمِنِينَ القِتَالَ[٤٦]) بهزيمة من في البحر من الفرنج.

وكان السبب لثباتهم في القتال [أنهم] لم يعلموا أن ملكهم أسر، وأن عسكره انهزم.

واستمر «تغري بردي المحمودي» حتى دخل المدينة هو ومن معه بغير قتال، وتلقاهم أكابر البلد ومن بها من القسيسين.

/٥٧/

والرهبان، وذلك يوم الجمعة خامس شهر رمضان، فخشي من مع «تغري بردي المحمودي» على أنفسهم لقلتهم، فشجعهم «المحمودي». ثم دخل القصر فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، فأقاموا بها صلاة الجمعة، وأذنوا على صوامع الكنائس.

ثم خرجوا يوم السبت معهم الغنائم الكثيرة والأسراء، فلما وصلوا إلى المراكب اجتمعوا وحصروا عدد الأسرى فكانوا ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس. واختلف رأيهم في الاقامة والمطالعة بما وقع من الفتح، وانتظار وصول الرسول بالجواب، أو التوجه بالأسرى والغنائم والعود إذا أراد السلطان مرة أخرى لاستئصال بقية الفرنج والاستيلاء على بقية الغنائم، فغلب الرأي الثاني...». (انتهى).

* * *

وهكذا سقطت جزيرة قبرص بيد المسلمين من جديد ربعد نحو تسعمائة عام من فتح العرب المسلمين لها في أول مرة. ■

الحواشي

(١) راجع تفاصيل هاتين الغزوتين في مخطوط (الالمام بالاعلام، فيما جرت به الاحكام، والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية) لمحمد بن قاسم بن محمد النويري المالقي الاسكندراني، من رجال القرن الثامن الهجري، نسخة بخط محمود حمدي، في دار الكتب المصرية، رقمها ٤١٩٣ تاريخ، في جزءين.

وقد نشرنا تفاصيل الغزوة إلى طرابلس كاملة في ملاحق كتابنا (تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر دولة المماليك، الجزء الثاني)، انظر الملحق رقم (٤٥)، ص ٥٩٣ ــ ٦١١، نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، ج ٢، ق ١/١٧٣.

(٣) السلوك...، ج ٢، ق ١/١٧٥.

(٤) السلوك...، ج ٢، ق ١/١٨٩.

(٥) المماليك والفرنج، د. أحمد درّاج، ص ٢٢، القاهرة ١٩٦١.

(٦) المماليك والفرنج، ص ٢٢ و ٢٣.

(٧) المماليك والفرنج، ص ٢٤.

(٨) السلوك، ج ٤، ق ١/٣٢٥، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

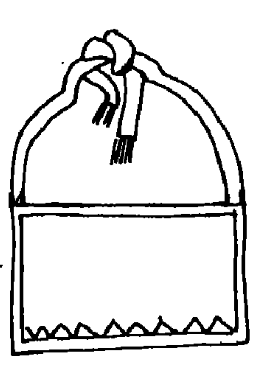
(٩) السلوك، ج ٤، ق ٢/٦١٧.

(١٠) السلوك، ج ٤، ق ٦١٧/٢.
(١١) المماليك والفرنج، ص ٣٢، Histoire du Liban, Nantet, p. 76
(١٢) إنباء الغمر في أنباء العمر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. حسن حبشي، ج ٣/٢٧٠.
(١٣) السلوك، ج ٤، ق ٦٦٥/٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢٦١/١٤، العصر المماليكي في مصر والشام، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ١٦٥.
(١٤) السلوك، ج ٤، ق ٦٦٥/٢ و ٦٦٦، النجوم ٢٦٦/١٤.
(١٥) هو تعريب لاسم ميناء «فماغوستا» المعروف الآن شرقي الجزيرة.
(١٦) الأغربة: جمع غراب، وتجمع على غربان أيضا. وهو نوع من المراكب سمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب أو الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء (البحرية في مصر الاسلامية، د. سعاد ماهر، ص ٣٥٩) وقد يطلق الاسم على الشيني ايضا. انظر: (قوانين الدواوين، ابن مماتي، ص ٣٤٠).
(١٧) المقصود: طرابلس الشام وكانت عاصمة لنيابة السلطنة منذ أن استرجعها السلطان المنصور قلاوون من الصليبيين سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. انظر كتابنا: (تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، عصر دولة المماليك).
(١٨) يرد اسمه في المخطوط «جابوس» بالباء بدل النون، وذلك في كل المواضع.
(١٩) سلورة: جمعها سلالير، وهي نوع من المراكب متوسط الحجم يستعمل في الحرب والسلم على السواء، له ثلاثة شرع، كما يحتوي عادة على اربعين مجدافا.

قال ياقوت الحموي: سلار نوع من الطير، وقال الأصفهاني: وأهل مصر يسمون الجري السلور، ويفهم من هذا أن السلورة سريعة الحركة حتى شبهت بالطائر الذي يحلق عاليا في السماء وبالشخص سريع الجري على سطح الأديم. (معجم البلدان، الاغاني ٢٩٨/٨، البحرية في مصر الاسلامية ٣٤٧).
(٢٠) النهر المعروف بين جونية وبيروت.
(٢١) باشهم: رئيسهم.
(٢٢) هو «جرباش الكريمي» ويعرف بـ «قاشوق». انظر: تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، ص ٢٤٥ في الحاشية.
(٢٣) أنظر: إنباء الغمر، ج ٣٤٦/٣.
(٢٤) العمارة: تعبير يقصد به الأسطول.
(٢٥) العشير، والجمع عشران، اسم يطلق على بدو الشام، ويطلق أيضا على سائر الدروز. (السلوك، نقلا عن معجم دوزي، ج ١، ق ٨٦٩/٣، حاشية رقم ٣).
(٢٦) أنظر عن هذه الطائفة الدراسة الممتعة للدكتور محمد رجب البخار (حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي) سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
(٢٧) قرآن كريم، سورة الانفال: الآية ١٢.
(٢٨) الملاحة: ميناء في الجنوب الغربي من لارينكا، بين لارينكا وخيروكيتا.
(٢٩) رأس العجوز: شرقي جزيرة قبرص في قاعدته الشمالية ميناء فماغوستا، وفي قاعدته الجنوبية ميناء لارينكا.
(٣٠) قرقورة: جمعها قراقير أو قراق. وهي من سفن العصر الوسيط متعددة الصواري والشرع، وهي كبيرة تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة، ومنها ما كان يحتوي على ثلاثة ظهور ولا يخشى معها الرياح العاصفة. (البحرية في مصر الاسلامية، ص ٢٦٢ و ٢٦٣).
(٣١) انظر أيضا: إنباء الغمر، ج ٣٤٧/٣، زبدة كشف الممالك، غرس الدين الظاهري، ص ١٤١، وفيه إنهم أسكوه.
(٣٢) الزردخاناه: يطلق هذا اللفظ أحيانا على السلاح نفسه، وهو المراد هنا.
(٣٣) اللمسون: هو ميناء «ليماسول» حاليا.
(٣٤) القلعة: قلعة جبل المقطم بالقاهرة.
(٣٥) الكيتلان: أو الكتلان، نسبة إلى قطالونية، الاقليم الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية في اسبانيا وعاصمته برشلونة على البحر الأبيض المتوسط.
(٣٦) الأشرف شعبان: تولى السلطنة بين ٧٦٤ ــ ٧٦٩هـ.
(٣٧) قوّه:
(٣٨) أنظر: إنباء الغمر، ج ٣٦٦/٣، زبدة كشف الممالك، ص ١٤٢.
(٣٩) أينال العلائي: السلطان الملقب بالأشرف، تولى السلطنة سنة ٨٥٩هـ.
(٤٠) هو أبو بكر بن محمد بن محمد الأنصاري الدمشقي الأصل ثم المصري القاضي كاتب السر. لقبه السيوطي «تقي الدين» ولد سنة ٨٣١ وتوفي ٨٩٣هـ. (أنظر عنه: الضوء اللامع ٨٨/١١، نظم العقيان ٩٧ و ٩٨، درر الحبب ٥٦٨/٢/٢ و ٥٦٩، ذيل رفع الاصر ٤٦٩، بدائع الزهور ٢٥٣/٢ وفيه ولد سنة ٨٣٢هـ).
(٤١) في الأصل: «مملوأة».
(٤٢) في الأصل: «الجنة».
(٤٣) سنة ٨٢٩هـ/ ١٠ حزيران ١٤٢٦م.
(٤٤) الأفقسية: هي نيقوسيا الحالية.
(٤٥) السهام الخطائية: نسبة إلى جيل الخطا من الصين، اشتهروا باستخدام السهام فنسبت إليهم. والخطا: بكسر الخاء.
(٤٦) قرآن كريم، سورة الأحزاب: الآية ٢٥.



أنطوانيت أديب باسيلي



ولادة الأزياء

منذ البدء لم يعتن الانسان كثيرا بالملابس، والأساطير القديمة تحدثنا عن ورقة التوت، وجلود الحيوانات، لباسا ونعلا، ويعود ذلك لطبيعة الانسان الاول الباحث عن قوته، مرورا بالانسان الصياد، الى الانسان المستقر، وتحويله الكهوف المقفرة الى بيوت امنة لسكنه وتزيين جدرانها وسقوفها بالرسوم والنقوش والالوان، مع هذا الانسان تبدأ مرحلة جديدة في نوعية الملابس واخراجها.

ومع اطلالة الالف الثالث قبل الميلاد تبدأ حضارة دولة المدينة التي هي نموذج مصغر لحضارة الدول والامم المعروفة في عصرنا الحاضر، فمن دولة المدينة بدأ تكوين المجتمع كالشعب وطبقاته.

وبما ان المجتمع يتكون من طبقات واجناس كذكور واناث، فان الملابس كانت تتبع بالضرورة هذا التكوين الطبقي والجنسي.

وبما ان موضوعنا محصور في الازياء العربية فيجدر بنا ان ننوه ان فئات المجتمع العربي تتكون من اهل البداوة واهل الحضرة، وملابس كل فئة مختلفة عن الأخرى، الا من نواح ضيقة ولكون المجتمع يتألف من جنسين الذكور والاناث فان كلا الجنسين تنقسم ملابسه الى ملابس البدن والملابس الخارجية، وملابس الرأس، وملابس القدم، وتخضع هذه الملابس الى نوعية الاقمشة التي تتماشى مع المناخ والعادات بصورة عامة، ولم تشذ الأزياء العربية عن المألوف الا فترة الحكم الأموي الذي أضاف الى ازيائه العربية ازياء فارسية وبيزنطية، واستمرت هذه الاضافات فترة الحكم العباسي الى جانب احتفاظهم بطابعهم العربي المميز، وتعتبر هذه الاضافات تطورا في شكل الازياء للتماشي مع تطور الزمن والمجتمع، المنتقل من حالة البداوة الى حالة الحضرة.

١ ــ ملابس اهل البدو:

وبدايتنا بأهل البدو تعود الى كون هذه الفئة ظلت محافظة على تقاليدها وملابسها دون تجديد يذكر، احتفاظا منها بطابعها المميز عن بقية الفئات، واثرت تأثيرا واضحا وكبيرا في حياة الرسول (صلعم) وبحياة كل من أبي بكر وابن الخطاب، وظلت قباؤها وعباءتها القاسم المشترك بينها وبين اهل الحضر.

فالبدو كانوا وما زالوا حتى يومنا هذا يرتدون القباء الطويل المشقوق من الوسط والذي يصل الى العقب ويربطونه من الوسط بحزام من الجلد، ويرتدون العباءة المصنوعة من وبر الجمل فوق القباء[1]. أما في الحرب فكان لباسهم الأردية القصيرة وهي عبارة عن سروال ورداء قصير يسهل عليهم الحركة وركوب الخيل بدلا من الأردية الطويلة الفضفاضة التي تعيق حركة ركوب الخيل والضرب بالسيف.

اما لباس الراس فكان عبارة عن عمامة، يلقون الطيلسان فوقها ليتدلى على الكتفين ويقي الرقبة حرارة الشمس[2].

واختلفت ملابس البدو باختلاف ثروتهم ومركزهم الاجتماعي، فكان شيوخ القبائل واشراف القبيلة يرتدون قباء يصل الى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى الى العقبين، ويشده حزام من الحرير، وفوق ذلك يرتدون الجبة، اما في ارجلهم فكانوا يلبسون النعال او الأحذية[3].

اما المرأة البدوية فكانت ترتدي سروالا فضفاضا وقميصا مشقوقا عن الرقبة، وفي الشتاء كانت ترتدي فوق هذه الثياب رداء قصيرا ضيقا، واذا ارادت الخروج من بيتها وجب عليها ارتداء الحبرة وهي ضرب من برود اليمن، وهي عبارة عن ملاءة طويلة تغطي جسمها وتقي ملابسها التراب وتلف راسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وملابس اهل الريف تتبع الثروة، فالرجال الفقراء كان لباسهم كأهل البدو، أما النساء الفقيرات فكان لباسهن يتألف من حلة طويلة مشدودة من الوسط بنطاق ومن غطاء على الرأس لا يترك من الوجه شيئاً ظاهرا سوى العينين، أما الفلاحة المصرية فكان ثوبها يسمى جلبابا من اللون الأزرق المصنوع من القطن، ولا تعرف الفلاحة المصرية شيئا من الزينة ووسائل التجميل، ولكن ما يجملها حقا هي مشيتها المليئة بالبخترة والاغراء[4].

اما ثياب اغنياء الريف فهي معقدة ولكنها

عبارة عن منديل زاهي الألوان يلف به الرأس والعقال وهو مصنوع من وبر الابل، وفي الجزائر والمغرب يستر الرأس بغطاء ابيض يستقر عليه بشطن (حبل) مماثل للعقال[٦].

٢ ـ ملابس اهل الحضر:

لم تتضح معالم أزياء أهل الحضر تماما، الا مع ولادة الدول بالمعنى الصحيح، ففي الفترة الأولى لبدء الدولة الاسلامية حيث ساد التصوف والتقشف في المآكل والملبس طيلة مدة حكم الرسول وأبي بكر وعمر، حتى بات الزهد والاعراض عن الدنيا ميزة من ابرز ميزات عصرهم، اقتدى بها عمالهم وقوادهم واصدقاؤهم من الدول المجاورة.

فقد اقتصر لباس الرسول محمد (صلعم) على العباءة والشملة، واقتصر لباس خليفتيه أبي بكر وعمر على الجبة الصوفية المرقعة بالاديم (جلد الماعز) وفوقها العباءة، حتى ان مرزبان الفرس لم يعرف خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لبساطة ملبسه ومظهره[٧].

وعندما قدم زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب والتيجان المحلاة بالجوهر على أبي بكر الصديق الخليفة وشاهدوا ما هو عليه من الزهد والتواضع ذهبوا مذهبه ونزعوا ما عليهم من ملابس وحلى، حتى أن ذا الكلاع ملك حمير شوهد في سوق المدينة وهو يرتدي جلد شاة[٨]. وقد قلد العمال، الخلفاء في لباسهم وتقشفهم وزهدهم، فسليمان الفارسي عامل الخليفة عمر بن الخطاب على المدائن كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعة بغير اكاف، ويأكل خبز الشعير وأبو عبيدة بن الجراح كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي الخشن، وعندما لاموه ونصحوه بتغيير زيه ولباسه، قال لهم: ما كنت بالذي اترك ما كنت عليه في عصر الرسول[٩]. حتى ان سعيد بن عامر، عامل عمر بن الخطاب على حمص وصل به الزهد والفقر بأن اقتنى ثوبا واحدا في حياته يغسله بنفسه مرة في كل شهر يحتبس من اجل ذلك في داره حتى يجففه[١٠]. ولم يشذ عن هذه القاعدة من العمال سوى معاوية بن أبي سفيان عامل عمر بن الخطاب على دمشق، فقد استقبل



□ زي نسائي عربي قديم.

أنيقة وهي مؤلفة من قميص من الحرير أو الشفوف ومن صدرات مطرزة بالذهب ومن سراويل واسعة، ونساؤهم اذا اردن الخروج من منازلهم كن يلبسن مآزر ويسترن وجوههن ببراقع[٥].

ولم تكن ازياء اهل البدو والريف واحدة في انحاء افريقية ومصر وسورية وجزيرة العرب ولكن القاسم المشترك بينهم ظل الجلباب والعباءة، فكانت العباءة الزرقاء أو السوداء في لباس أهل مصر والبيضاء في شمال افريقيا، والمخططة بخطوط بيضاء وسوداء في لباس اهل سوريا.

اما غطاء الرأس فكان العمامة والطربوش في مصر وشمال افريقيا والكوفية في سوريا، والكوفية

الخليفة عمر عند زيارته للشام وعليه من الخز وأبهة الملوك الشيء الكثير مما ادهش الخليفة عمر، وجعله يسأل: اكسرويه. فأجابه معاوية كلا، ولكن الأعداء يحيطون بنا ومن المصلحة أن يشعروا بقوتنا ليهابونا.

ومن شذ عن هذه القاعدة ايضا الخليفة عثمان بن عفان وكان في نهاية الجود والكرم والبذل والبذخ، فسلك عماله وأهل عصره طريقته، فبنى داره في المدينة بالحجر والكلس، وجعل ابوابها من الساج والعرعر، واقتنى مالا كثيرا ولبس الثياب الموشاة وهو اول من شد اسنانه بالذهب(١١)، فقلده عماله في ذلك ومنهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت(١٢).

وعاد الحال إلى ما كان عليه عندما تولى الامام علي بن أبي طالب الخلافة، فعاد بالدولة الاسلامية الى سيرتها الأولى مقتدياً بالرسول وقد وصفه عمر بن عبد العزيز إذ قال: ازهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب(١٣).

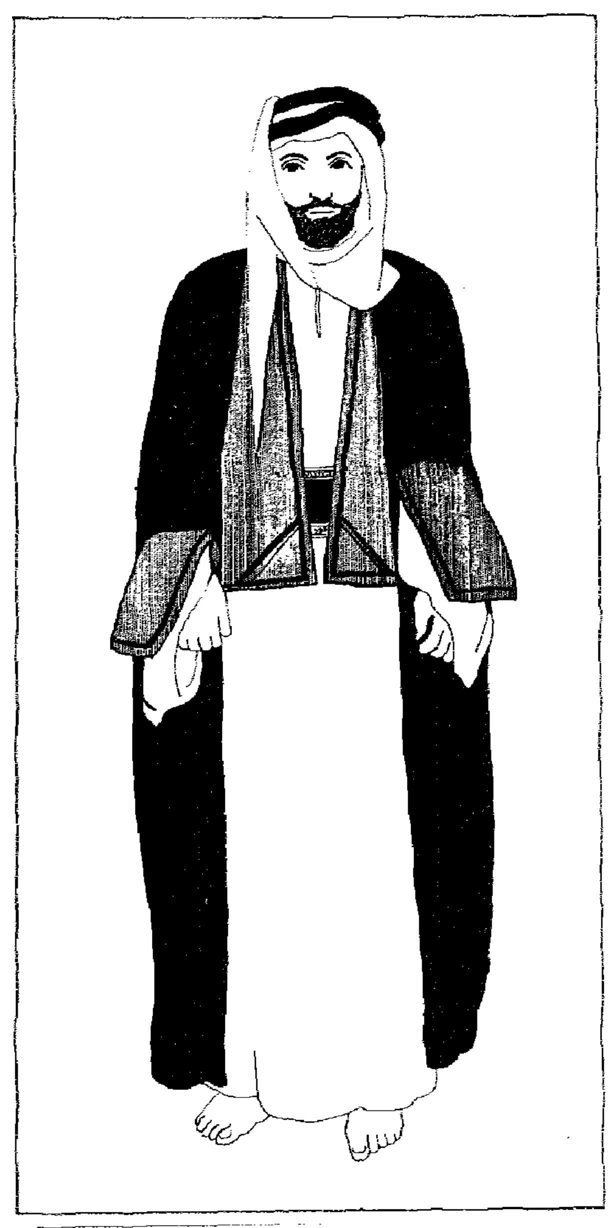
والى هنا تنتهي حياة التقشف والزهد في الدنيا والسعي للآخرة لتبدأ الحياة المترفة والاعتناء بالمظهر واقتناء الملابس الفاخرة في دولة الماديات دولة بني أمية.

هذه الدولة كانت الحد الفاصل بين الحياة الدينية والدنيوية، بين طلب الآخرة وطلب الدنيا، ولهذا التطور والتحضر عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية لا مجال لذكرها لعدم ضرورتها.

بعد هذه المرحلة اتضحت معالم الأزياء العربية تماما تماشيا مع العصر والثروة وقسمت الى اقسام وانواع، فالأنواع كانت بين ملابس الرجال وملابس النساء، والاقسام كانت ثياب الرأس، وثياب البدن والثياب الخارجية بأشكالها.

١ ــ ملابس الرجال:

(أ) ثياب الراس: العمامة وهي لباس العرب منذ الجاهلية، والقلنسوة. لهذا قال عمر بن الخطاب «العمائم تيجان العرب»(١٤) وقيل لاعرابي: انك تكثر من لبس العمامة، فقال:



□ زي لبعض رجال البادية.

ان شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر(١٥).

وإذا كانت العمائم تيجان العرب فإن القلانس كانت تعتبر مظهراً من مظاهر الرجولة عند العرب وقد قال الامام علي رضي الله عنه «تمام جمال المرأة في خفها وتمام جمال الرجل في كمته (أي قلنسوته)(١٦).

(ب) ثياب البدن: الداخلية كالقمصان والسراويل ــ القمصان تصنع من الكتان الناعم الأبيض، أما السراويل فكانت تصنع من الكتان الأبيض المذيل.

(ج) الثياب الخارجية: تلبس فوق القمصان والسراويل ومنها الدراريع والطيالسة



□ الحلي العربية وخاصة الفضة منها كانت وما زالت عنصراً رئيسياً للأناقة العربية.

والجباب والأقبية.

□ **الدراريع**: جمع دراعة أو مدرعة وهي جباب مشقوقة من الصدر مصنوعة من الصوف أو الديباج الموشى أو الديبقي، وكانت اللباس الرسمي للكتاب، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس حتى ان هارون الرشيد كان اذا غزا لبس الدراعة، والربيع بن يونس كان يلبس دراعه وطيلسانا[١٧].

□ **الطيالسة**: جمع طيلسان وهو مربع الشكل يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ويغطى به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الفم الى ان يحيط بالرقبة وطرفاه الاخران يسبلان على الظهر، وكانت الطيالسة لباس الخاصة من العلماء والمشايخ والقضاة[١٨].

□ **الجباب**: جمع جبة، تحيط بالبدن ولها كمان وكانت الجباب تصنع من الديباج الموشى أو الصوف وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجباب[١٩].

وكان الرجال ينتعلون النعال ويتركون للنساء الخف، وهي عادة فارسية، ثم شاع انتعال الخاصة للخفاف الحمر على عادة الفرس.

٢ ـــ ملابس النساء:

(أ) **لباس الرأس**: العصابة المكللة بالجوهر وهي متأخرة يعود الفضل في نتشارها الى علية بنت المهدي التي ابتكرتها وكانت ترصعها بالجوهر، ومنها ايضا البرنس الأسود المنظوم بالجوهر ويعرف اليوم بالفوطة[٢٠].

(ب) **الملابس الداخلية**: فهي من الغلائل

الرقيقة والسراويل والاقمصة الاسكندرانية[٢١].

(ج) الملابس الخارجية: فهي ملاحف او اردية يقال لها الرشيدية او الطبرية وكلها ملونة[٢٢] ونعالهن حمراء اللون كن يلبسنها فوق جوارب صوفية او حريرية، واتخذت الخيزران زوجة المهدي الخفاف المرصعة بالجوهر واقتدت بها زبيدة زوجة الرشيد[٢٣].

وكانت بعض النساء يتقنعن بمقنعة حتى لا تبدو وجوههن سافرة، أو يعمدن الى التقنع تشبها بالفرسان والرؤساء كما فعلت البانوقة بنت المهدي عندما سارت على هيئة الفتيان وعليها قباء اسود ومنطقة وشاشية[٢٤].

ازياء الدولة الأموية

اعتبر المؤرخ نيكلسون[٢٥] ان انتصار بني امية بشخص معاوية هو انتصار للارستقراطية الوثنية، فلا غرو فيما قال، فقد كان معاوية يرمي الى جعل الخلافة ملكا كسرويا، وليس ادل على ذلك من قوله «انا أول الملوك»[٢٦].

ففي زمن هذه الدولة تخلى العرب عن ثيابهم الخشنة الصوفية المرقعة بالاديم وعن الأقبية الطويلة المربوطة بالزنانير كتخليهم عن عيش الكفاف والزهد، واقبلوا على التأنق في اللباس والابهة والفخامة، وتبعا لذلك ازدهرت صناعة النسيج في ارجاء الدولة العربية، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز، وهي كلمة فارسية، اختصت هذه الدور بصناعة اثواب الملوك والسلاطين المعدة من الحرير او الديباج أو الابريسم، والتي تميز بعلامات، فثياب الملوك تميزت عن ثياب السلاطين باشارات من خيوط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة، ومكان هذه الدور الخاصة في قصور الخلفاء والسلاطين، أما دور العامة فكانت تختص بثياب العامة من الرعية، والقائم على هذه الدور يسمى صاحب الطراز، ينظر في امور الصباغ والأنوال والحاكة.

فكانت ثياب الملوك والسلاطين تصنع من النسيج الموشى الذي تدخل في لحمته وسداه خيوط الذهب ويعرف ايضا بالمقصب، واشتهرت اليمن والكوفة والاسكندرية بعمل الوشي الجيد، كذلك اشتهر اقباط مصر بصنع نسيج معين عرف بالقباطي نسبة اليهم، وشاع هذا النوع من النسيج في عصر سليمان بن عبد الملك ولبس الناس جميعا الوشي جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس تبعا لتوصية عبد الملك، وذكر المسعودي انه لم يدخل عليه رجل من اهل بيته او من عماله أو اصحابه الا بالوشي، حتى الطباخ كان يجب ان يلبس الوشي، وقد اوصى سليمان ان يكفن بالوشي عند موته[٢٧].

وشاع ايضا في عصر سليمان لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس وأول من لبسه في الاسلام من العرب عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩هـ) وجبير بن مطعم (ت ٥٤هـ) وكان عمر بن عبد العزيز قبل تولي الخلافة يصلي في جبة طيالسة ليس عليه ازار، وكان يشترى لعمر قبل خلافته ايضا الحلة بألف دينار فيستخشنها وعندما اصبح خليفة كان يستلين قميصاً بعشرة دراهم. ويقول السيوطي: ان عمر بن عبد العزيز كان يخطب بالناس وعليه قميص مرقوع[٢٨].

ازياء الدولة العباسية

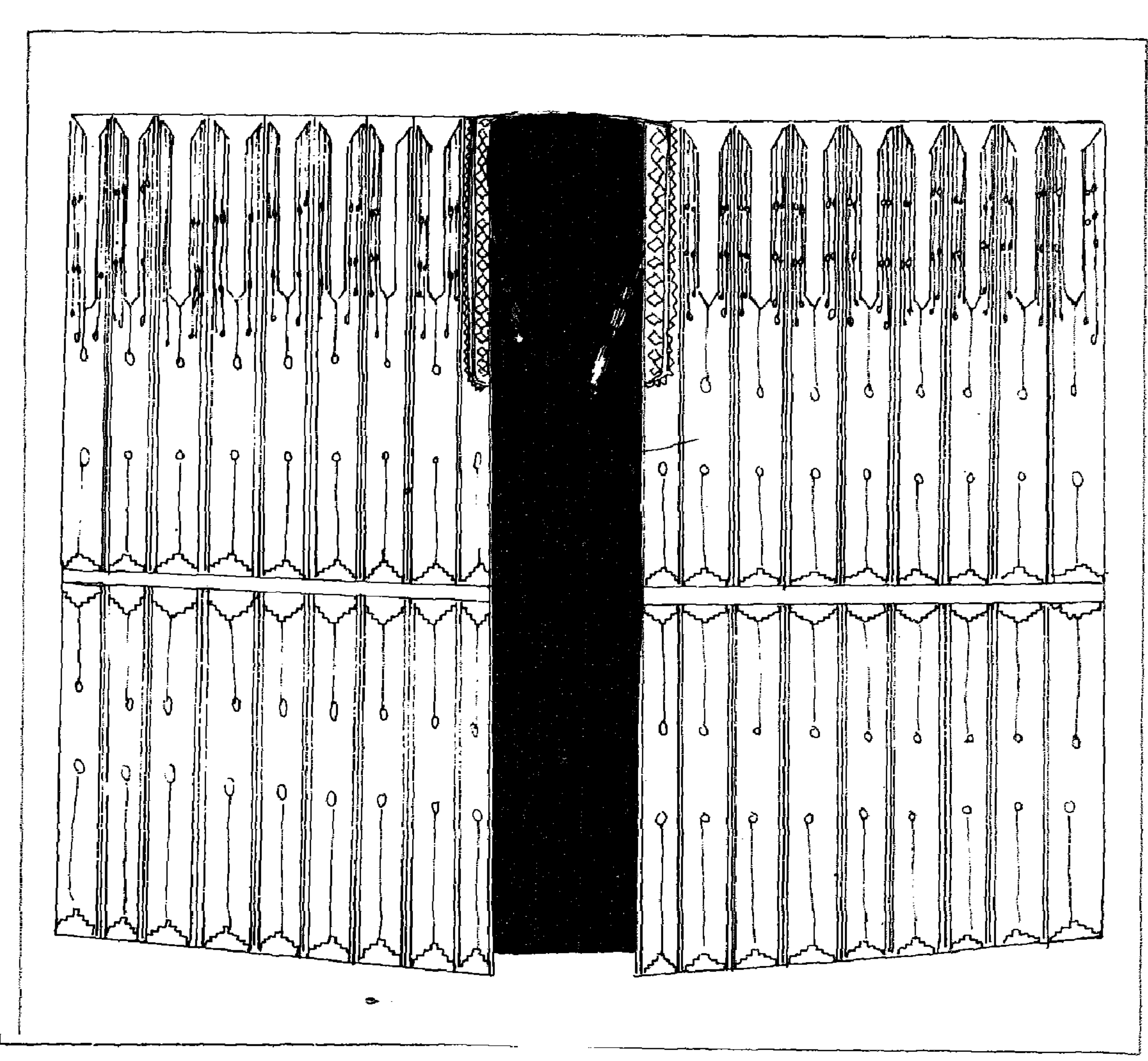
في عهد المنصور سنة ١٥٣هـ امر ان يلبس القلانس الطوال والدراريع المكتوب عليها بين كتفي الرجل «فسيكفيكهم الله» كما امرهم بتعليق السيوف في أوساطهم.

وقد نقل اهل اوروبا في زمن الحروب الصليبية زي القلانس والخمر، وجعلوها لباس النساء في الغرب[٣١].

اما الرشيد فقد امر بلبس العمامة العظيمة الكور وخفان ومالقان واعاد المعتصم لبس القلانس تشبها بملوك العجم، وسميت المعتصميات[٣٢].

وعاد المستعين عام ٢٤٨هـ فأمر بتصغير القلانس بعد أن كانت طويلة كأقباع القضاة واحدث المستعين ايضاً لبس الأكمام الواسطة التي لم تكن تعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة اشبار أو نحو ذلك فكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب[٣٣] يحفظ فيها الانسان كل ما يحتاج الى حفظه من دنانير وكتب، وميل المهندس؛ ورقاع الصيرفي، وجلم الخياط، وكراس القاضي.

والجوارب كانت من لباس الرجال والنساء على السواء ولبس الخفاف الأحمر معيبا، وإن كان قد



□ نموذج تفصيلي لعباءة تستخدم من قبل بعض البدو.

لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين، وكان الامبراطور البيزنطي يلبس خفا احمر وخفا اسود، وقلده المخنثون والجهال في البلاد العربية(٣٤).

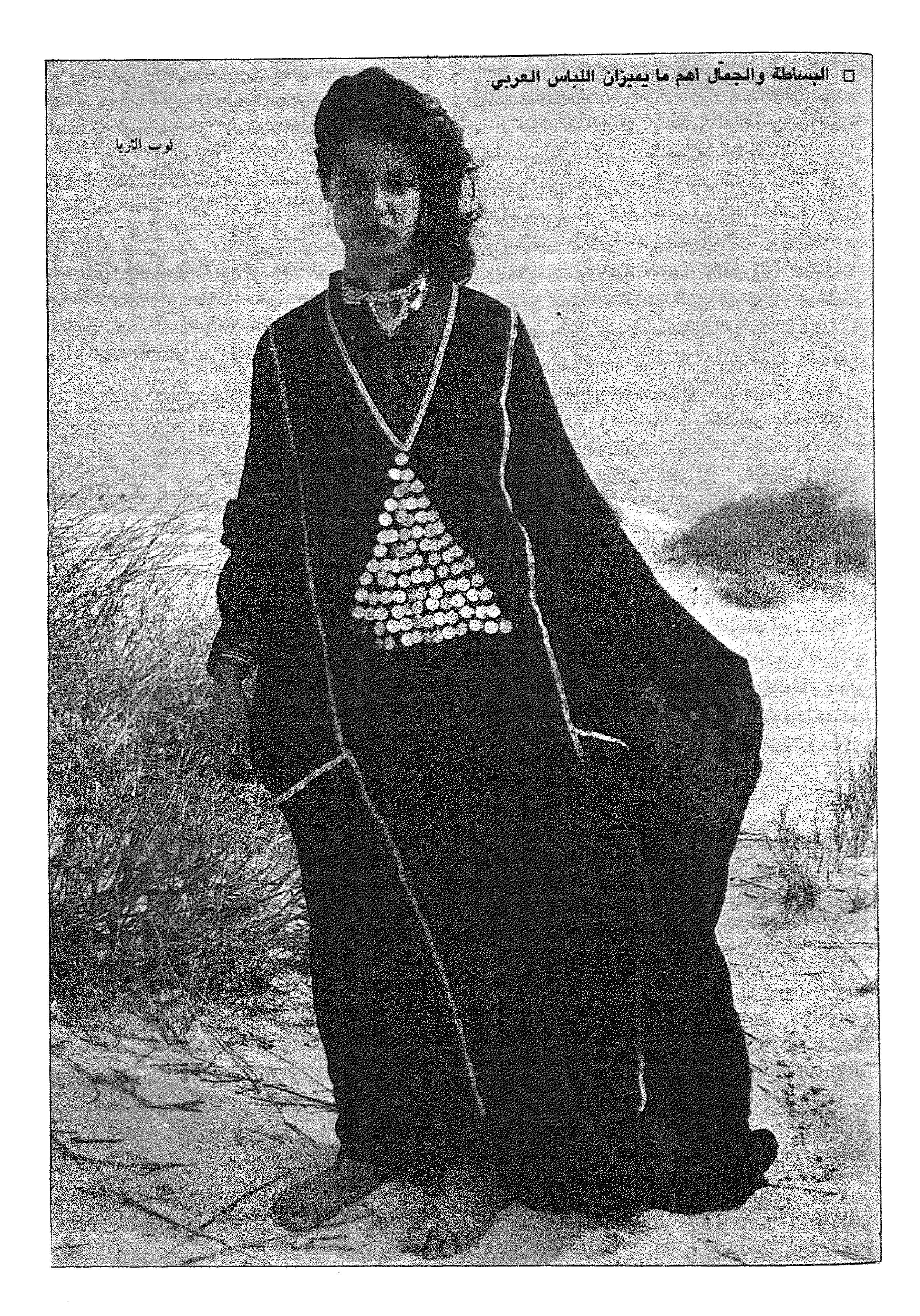
وحرم في القرن الرابع الهجري لبس الثياب الملونة لأنها اعتبرت من شأن النساء، واقتصر لبسها بين الرجال داخل البيوت وفي حلقات الشراب(٣٥).

وكان اللون الأبيض لباس الرجال والنساء المهجورات، أما باقي النساء فكن يصنعن سراويلهن من اللون الأبيض فقط، واللون الأزرق في المشرق كان يلبس في الحداد، اما الأبيض فكان لأهل الأندلس، وقد لبس الرشيد اللون الأزرق حدادا على امه الخيزران(٣٦).

وتميزت اردية الخلفاء والوزراء والعمال الثلاثة الكبار في الدولة العباسية كما يلي:

١ ــ لباس الخلفاء وحاشيته:

السواد هو شعار العباسيين الرسمي ولباس الخلفاء كان قلنسوة محددة وقباء اسود والتاج المرصع بالجوهر وكان الخليفة يلبس طوقا وسوارين من الذهب المنظوم بالجوهر(٣٧) وقد قلد الأمراء الخلفاء. فلبس سيف الدولة امير حلب تاجا مرصعا لما استقبل رسول ملك الروم، وأصبح الطوق الذي هو شعار المحاربين القدماء يخلع عند الخلفاء العباسيين على القواد المنتصرين وأول امير خلع عليه الطوق هو الأخشيد الى جانب السيف والتاج والوشاح، اما حاشية



□ البساطة والجمال اهم ما يميزان اللباس العربي.

ثوب الثريا

الخليفة في المحافل الرسمية فكان لباسهم اللون الأحمر وفي القرن الرابع الهجري اعيد لباس الحاشية الرسمية الى اللونين الأسود والأبيض.

٢ — لباس الوزراء:

يتألف لباس الوزراء من الدراعة والقميص والمبطنة والخف[٣٨] وكان السواد هو اللباس الرسمي وفي الاحتفالات كان يرتدي قباء وسيفاً بمنطقة وعمامة سوداء وهي جزء من لباسه العادي ايضا[٣٩] وهذه الثياب هي من هدايا وخلع الخليفة التي هي رسم الوزارة عند تقليده.

٣ — لباس الكتاب والعلماء:

كانوا يرتدون الدرايع والطيلسان ولباس الرأس هو العمامة التي يختلف حجمها باختلاف السن والمركز العلمي[٤٠].

٤ — لباس القضاة:

كان يلبس السواد على هيئة عمال بني العباس، ويعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[٤١] وأصبح شعار القضاة — القلنسوة مع الطيلسان.

اما القواد فكانوا يلبسون الاقبية الفارسية القصيرة[٤٢].

ولن يغرب عن بالنا ان نذكر لباس قوم من رعايا الدولة العباسية كان لهم شأنهم في اعلاء كلمة واسقاط كلمة — الا وهم الخطباء، فقد كان لباسهم اللباس الحربي وهو عبارة عن الاقبية والمناطق والدراعة[٤٣]، اما في الدولة الفاطمية فكان لباسهم اللون الابيض والعمامة الصفراء والسروال الاحمر من الديباج والخف الاحمر ويتقلدون السيف[٤٤].

اما النساك والمتصوفون فكان لباسهم عبارة عن رداء من الصوف وفوطة مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق، اما لأنه لباس الحداد وإما لأنه كما يقال ملائم لحالة قوم فقراء جوالين في البلاد[٤٥].

اما المماليك والسلاطين بصورة خاصة فكان لباسهم عمامة حرير لها عذبة مدلاة بين الكتفين وجبة حرير سوداء واسعة الكمين لا نقش عليها. وسيف عربي يحمل على طريقة البدو يعلق على الكتف الأيمن وهو مدلى على الجانب الايسر[٤٦]

تطور الأزياء

تفنن الناس في اشكال القلانس ومادتها، واصبحت القلانس تتسمى بأسماء البلاد التي تصنع فيها فمن حيث الشكل كانت هناك قلانس مستديرة تعرف بالدنية لأنها تشبه الدن، والقلانس الطاقية التي تطوق الرأس وتمسك به، والقلانس الدورقية لشبهها بالدورق[٤٧].

ومن حيث المواضع التي اشتهرت بصناعتها وجدت القلانس الرصافية (من الرصافة) والقلانس السود الشاشية (من بلاد الشاش) والقلانس المكية (من مكة)[٤٨].

واستخدم في صناعة القلانس الكاغد[٤٩] والقصب أو السمور[٥٠].

ومن تفنن العصر العباسي ايضا وتأنقه، ما ابتكرته كل من الخيزران زوجة المهدي وزبيدة زوجة الرشيد من الخفاف المرصعة بالجواهر المختلفة والألوان المختلفة، تلبسانها في القصور والمخادع. وأضافت زبيدة الى ابتكارها ابتكارا واتخذت لوصائفها الثياب المرصعة بالدر[٥١] بينما اتخذت علية بنت المهدي واخت الرشيد غطاء لراسها، العصبة المرصعة والملونة، تخفي تحتها صلعة اصابتها، والبرنس الأسود المنظوم بالجوهر ويعرف اليوم بالفوطة، فجاءت هذه العصبة موضة قلدتها بها نساء القصر العباسي[٥٢].

وتفنن نساء القصر العباسي ايضا بالزينة والتبرج والحلي فاقتنين الخلاخيل والاساور والخواتم المرصعة باليواقيت والفصوص وعقود اللؤلؤ والمسابح، وكانت لزبيدة زوج الرشيد مسبحة فريدة من نوعها[٥٣] واتخذت ايضا التيجان المرصعة بالنرجس من الذهب والفضة.

واستعمل نساء العصر العباسي الاصباغ كالحناء لصبغ اطرافهن والخدود والشفاه والشعر والكحل لتكحيل اجفان العيون والاهداب، وتمخطن بالطيوب والدهون المركبة من العنبر والمسك والبان[٥٤].

اصناف الأزياء ومصادرها

صنعت الملابس من خيوط متعددة الاجناس واشتهرت مدن عربية وفارسية في انتاج نوع

معين من الملابس والخيوط، فكانت الملابس تصنع من القطعن والكتان والحرير والصوف والموشى والقصب.

فاشتهرت كل من الفيوم وتنس ودمياط بالأقمشة المسماة بالديبقي وهو غالي جداً، واليمن بالقماش المعرق والشبيه بأزهار الربيع[٥٥]، والموشى من صنع اهل تنيس وسمي بالبدنة وهو خليط من الخيوط النسيجية وخيوط الذهب، وبتنيس ايضا كانت تصنع الثياب الرقيقة المسماة بالقصب ويعمل منها عمائم الرجال وملابس النساء، وتوفرت في فارس وفي مدينة كازرون بالذات نفس صناعات مصر من الاقمشة وغيرها.

اما الهند والصين فكانت تصدر الى البلاد العربية قماش لولوما وهو مصنوع من صوف نباتي[٥٦].

ومرو اشتهرت بالعمائم والثياب المروية نسبة اليها وكانت خشنة ثقيلة.

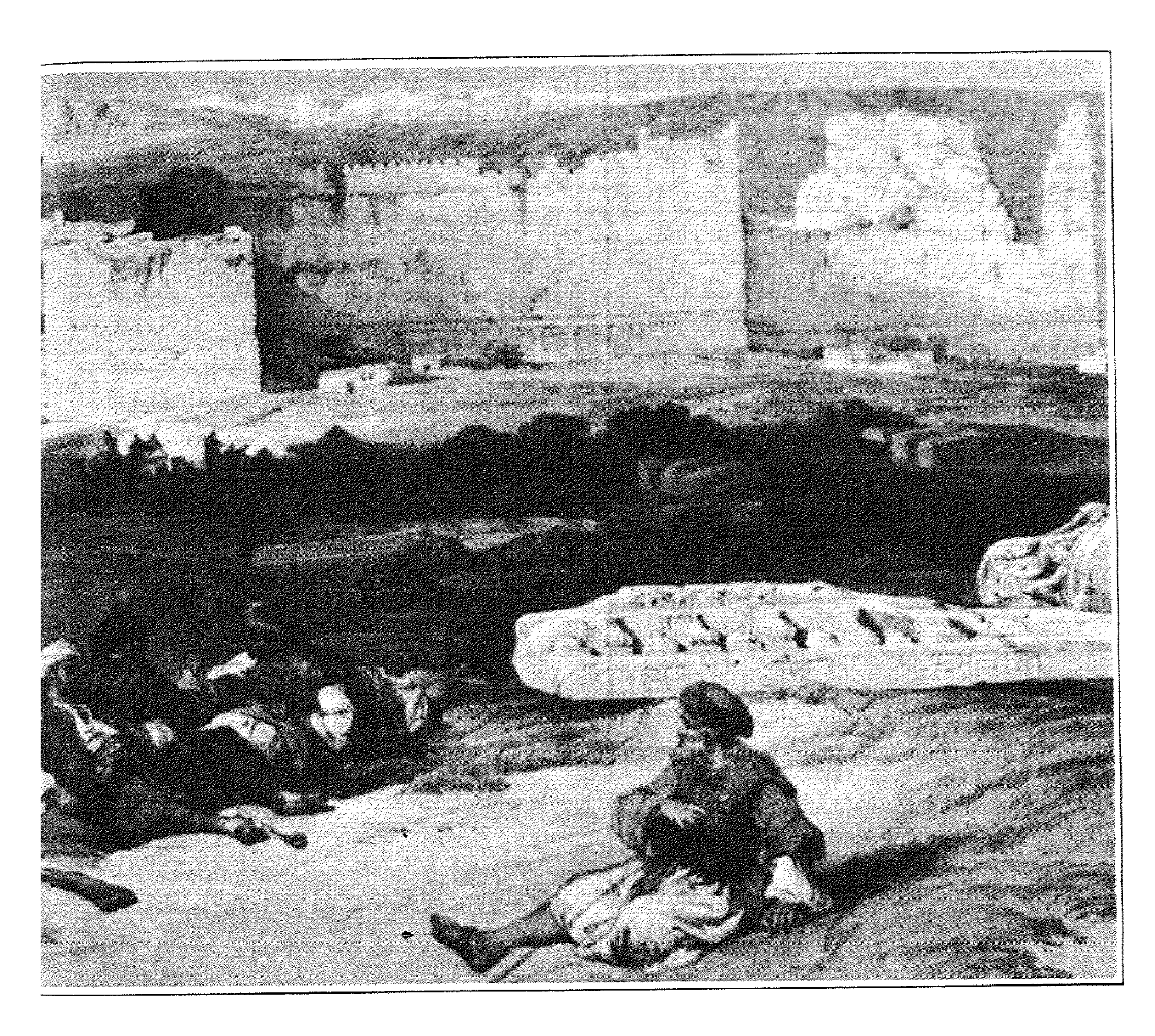
اما الحرير فكان يأتي من بلاد الروم، ثم نقلت زراعته الى بلاد فارس، والحرير انواع من الديباج والخز والستور، اما الابريسم فكان يأتي من الصين وحدها[٥٧].

واشتهرت الموصل بصناعة الموسلين (الموصلي نسبة اليها) ودمشق بصناعة الدومستك. ■

الهوامش

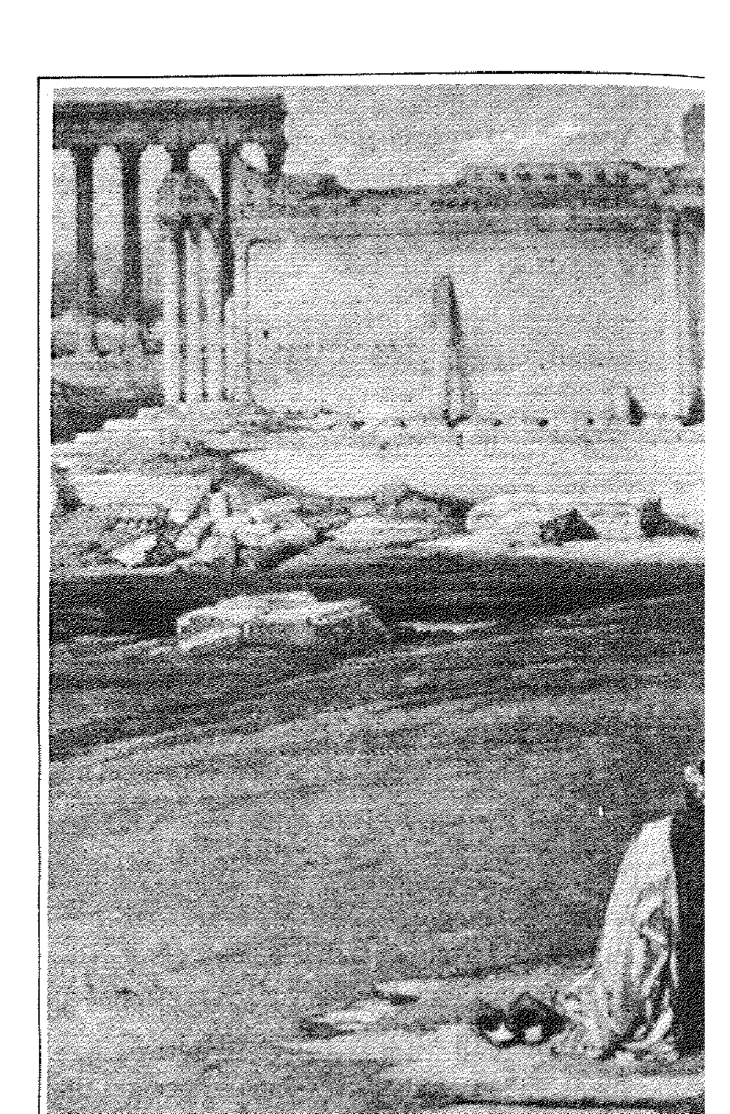
(١) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٥.
(٢) نفس المرجع.
(٣) نفس المرجع.
(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٤٣٦.
(٥) نفس المرجع، ص ٤٣٧.
(٦) نفس المرجع.
(٧) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠٥.
(٨) نفس المصدر، حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٤.
(٩) المسعودي: ج ٢، ص ٣١٥.
(١٠) المروج، ج ٢، ص ٣١٤.
(١١) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٢٦٤.
(١٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٢.
(١٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٠١.
(١٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣، ص ٩٦.
(١٥) نفس المصدر.
(١٦) نفس المصدر.
(١٧) الجهشياري: الوزراء، ص ١٦١ و ٨٩.
(١٨) الجهشياري: الوزراء، ص ١٦١.
(١٩) نفس المرجع، ص ١٨٣.
(٢٠) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣، ص ٩٦ و١٥٤.
(٢١) الطبري: ج ١٠، ص ١١٩، الأبشهي: ج ١٨٨/٢.
(٢٢) ابن طيفور: ص ١٠١، الابشهي: ج ٢، ص ١٨٩.
(٢٣) الشابشتي: الديارات، ص ١٠١.
(٢٤) ابن طيفور: ص ١٠١، الطبري: ج ٩، ص ٢١.
(٢٥) Nicholson A. Reynold: Literary History of the Arab. Cambridge, 1930, P. 139.
(٢٦) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٦.
(٢٧) عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة الاسلامية، ص ٦٨٦.
(٢٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٤١.
(٣١) نفس المرجع، ص ٢٢٦.
(٣٢) ادم متز: الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٢٦، الارشاد: لياقوت، ج ٢، ص ٤٩ وج ١، ص ٣٩٩.
(٣٣) نفس المرجع.
(٣٤) ادم متز: ج ٢، ص ٢٣٠.
(٣٥) نفس المرجع، ص ٢٢٧ و٢٢٨.
(٣٦) الاربلي: ص ١١٧.
(٣٧) ادم متز: ج ٢، ص ٢٥٥ و٢٥٦.
(٣٨) الجهشياري: الوزراء، ص ٥٠، مسكويه: ج ٥، ص ٢١٤.
(٣٩) شابشتي: الديارات، ص ٦٦، مسكويه: ج ٦، ص ٤٤ و٤٥ و٤٦.
(٤٠) حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٥٤٥.
(٤١) الكندي: الوزراء والكتاب، ص ٣٧٨.
(٤٢) ادم متز: ج ٢، ص ٢٢٩.
(٤٣) نفس المرجع، ص ١٠٩.
(٤٤) نفس المرجع، ص ١٠٨.
(٤٥) نفس المرجع، ص ٣٠.
(٤٦) مروج الذهب، ج ٨، ص ١٦٩ و٣٧٧.
(٤٧) صلاح حيدري: ص ١٤٠.
(٤٨) الجهشياري: ص ١٢٤ و١٧١، ابن طيفور: ص ٩٣.
(٤٩) ابن العماد: الشذرات، ج ١، ص ٢٣٤.
(٥٠) مروج الذهب: ج ٣، ص ٤٣٥.
(٥١) بين الخلفاء والخلعاء: صلاح المنجد، ص ٥٨.
(٥٢) البيان والتبيين: الجاحظ ج ٣، ص ٩٦ و١٤٥.
(٥٣) الطبري: ج ١٠، ص ١٩١.
(٥٤) الطبري: ج ١٠، ص ٣٠ و٤٣ و١١٥، المسعودي: ج ٢، ص ٢٩٨ و٣١٠.
(٥٥) العقد الفريد: ج ١، ص ٤٦.
(٥٦) ادم متز: ج ٢، ص ٣٥٦.
(٥٧) نفس المرجع، ص ٣٦٠.

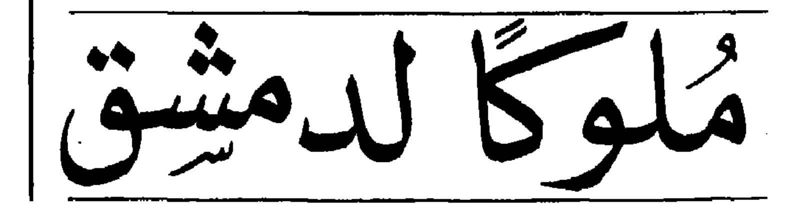
● نأسف لحذف الهامش رقم ٢٩، ٣٠



بعلبك

صدّرت حكّامها البوريّين





مُلوكًا لدمشق

د. حسن عبّاس نصر الله



ان ثلاثة من اصل خمسة تعاقبوا على ملك دمشق باسم الدولة البورية، كانوا حكاما لبعلبك، وأولياء عهد لملك الشام.

١ ــ تاج الملوك بوري بن طغتكين: ملك دمشق (٥٢٢ ــ ٥٢٦هـ) (١١٢٧ ــ ١١٣١م) حكم بعلبك من سنة ٥٠٢هـ الى سنة ٥٢٢هـ. وكان طيلة هذه الحقبة ولي عهد والده الاتابك طغتكين.

٢ ــ شمس الملوك اسماعيل بن بوري: (٥٢٦ ــ ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م).

٣ ــ شهاب الدين محمود بن بوري: (٥٢٩ ــ ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م).

٤ ــ شمس الدولة محمد بن بوري: (٥٣٣ ــ ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م). حكم بعلبك منذ سنة ٥٢٢هـ وحتى ٥٣٣هـ.

٥ ــ مجير الدين ارتق بن محمد بن بوري: (٥٣٤ ــ ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م). حكم بعلبك سنة ٥٢٣ وكان ولي عهد والده شمس الدولة.

مد ملك البوريين جذوره منذ مقتل (تتش السلجوقي) في صفر سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، إذ ملك الشام ابنه دقاق، وجعل كبير امرائه ظهير الدين الاتابك طغتكين الذي تزوج من والدة دقاق[١]. وبعد تسع سنوات توفي دقاق فتولى الاتابك طغتكين تصريف الاعمال باسم ابن دقاق الصغير، وعمره سنة واحد، ثم قطع خطبته في شهر ذي الحجة سنة ٤٩٧هـ/١١٠٥م. وخطب لبكتاش (أرتاش) بن تتش الذي كان مسجونا في قلعة بعلبك، أطلق سراحه، ونصّبه ملكا على دمشق. وما لبث الخلاف ان دب بين الملك ومدبره، فخرج أرتاش من ملك دمشق في صفر سنة ٤٩٨هـ/١١٠٦م، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقاق[٢]. واستقام الأمر لظهير الدين أتابك تعضده زوجه الخاتون (صفوة الملك). كان على الاتابك ان يؤدب حاكم بعلبك (كمشتكين) ــ وقد تولى شؤونها لتتش السلجوقي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٣] ــ لأنه اخذ يراسل الفرنج التماسا للمصافاة. وكان يحرضهم على مهاجمة دمشق، ويطلعهم على عورات المسلمين. وجه الأتابك ولده تاج الملوك بوري على رأس قوة

لمداهمة بعلبك. لكن كشمتكين تحصن في المدينة واصر على المقاومة، ورفض المفاوضات. امام هذا العناد جمع الأتابك عساكر دمشق وخف لنجدة ولده تاج الملوك، فحاصرا المدينة ونصبا عليها المجانيق. واتصل طغتكين بأحداث المدينة واستمالهم، وزحف الى سورها، ونشبت معارك يومية قتل فيها جماعة من حراس الأسوار، ولما اشتد الحصار هرع السكان الى الدخول في الطاعة، وجنح (كمشتكين) الى الصلح. فانفذ ظهير الدين الأمير بلتاش للمفاوضة. فسلم كمشتكين بعلبك في ٢٢ شهر رمضان سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م بعد حصار دام خمسة وثلاثين يوما، وعوض عنها (بصرخد).

اقام طغتكين أياما في بعلبك، فدبر شؤونها، وسلمها الى ولده تاج الملوك بوري، وأمره برفع المظالم عن سكان المدينة، فأعاد اليهم أملاكا اغتصبت منذ ايام كمشتكين واسلافه[٤].

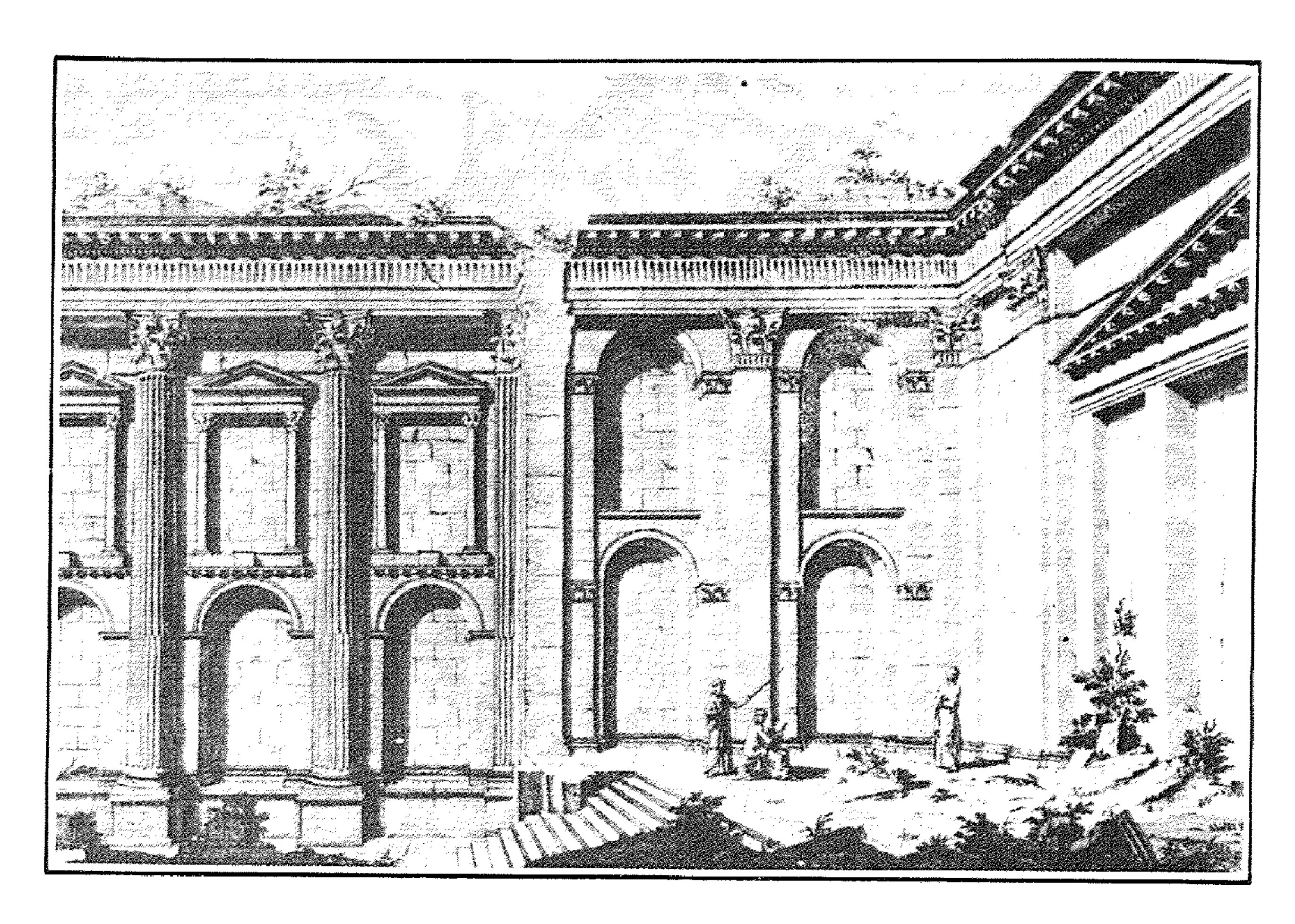
وفي العام نفسه تقدم بغدوين صاحب بيت المقدس لاحتلال بعلبك، فحاصرها بلا جدوى، وعبث بقرى البقاع. فسار اليه (طغتكين) وأجرى صلحا معه، على أن يأخذ المسلمون ثلثي غل البقاع، وتأخذ الفرنجة الثلث الباقي[٥].

بعلبك ودولة البوريين

ان الأتابك طغتكين هو مؤسس دولة البوريين لكنها اخذت اسم ولده تاج الملوك بوري الذي غادر بعلبك — وقد خلف عليها ابنه شمس الدولة محمد — يوم وفاة والده في ٨ صفر سنة ٥٢٢هـ/١١٢٧م، لتسلم ملك دمشق[٦]. وهو أول حاكم لبعلبك ارتقى عرش دمشق.

وفي عام ٥٢٦هـ/١١٣١م توفي تاج الملوك بوري صاحب دمشق وقد أوصى بالملك لولده، شمس الملوك اسماعيل، وخص بعلبك وأعمالها بولده شمس الدولة محمد[٧]. ووقعت النفرة بين الأخوين، حين طمع (محمد) بحصني اللبوة ورأس بعلبك، وكانا من نصيب اسماعيل، فاستمال مستحفظيهما، وتسلمهما واقام فيهما الجند لدرء الأعداء. فغضب اسماعيل وأنب اخاه على فعله، وكاتبه في اعادتهما فرفض. تظاهر اسماعيل بالمسالمة وأعد جيشا للانتقام، وأراد ان يأخذ اخاه على حين غرة. فسار آخر ذي القعدة «طالب جهة الشمال، ثم عاد مغربا فلم يشعر من بحصن اللبوة الا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فطلبوا الأمان، فبذله لهم، وتسلم الحصن من يومه»[٨].

ومال الى رأس بعلبك وفاجأ حاميته وتسلمه، ثم اوكل امرهما الى من يحفظهما، وقصد بعلبك، وقد استعدت لمقاومته، وجمع شمس الدولة الذخائر والمؤن في القلعة وشحنها بالرجال، فحصرهم شمس الملوك وقاتل اهل البلد على السور، فملك البلد بعد قتال عنيف وضحايا كثيرة، لكن القلعة صمدت أمام جيوشه، ولم تسقط تحت ضربات المجانيق. واستعر القتال، حتى أدرك شمس الدولة محمد شدة الأمر، فأرسل الى اخيه يطلب الصلح، مقرونا بحفظ حقه الذي ورثه من والده. فأجاب اسماعيل مطالبه واقره على بعلبك واعمالها، وقفل شمس الملوك الى دمشق مؤيدا منصورا[٩]، فساسها بسوء تدبير، وأظهر من الظلم ومصادرات العمال، وسلب الأموال، واشاعة الفتن والدسائس ما أقلق اصحاب ابيه وجده، فتآمروا عليه، ونفذت والدته المؤامرة، اذ اشارت الى غلمانها فقتلوه سنة ٥٢٩هـ. وتملك بعده اخوه (شهاب الدين محمود)[١٠] الذي أبقى أمر بعلبك بيد اخيه (شمس الدولة محمد). وبعد عام وقعت فتنة بدمشق بين صاحبها شهاب الدين والجند بقيادة الأمير (يزاوش)، فحاصروا دمشق ثم ساروا الى شمس الدولة في بعلبك يحرضونه على اخذ الملك من اخيه. وعاثوا فسادا في النواحي المحيطة بالشام ولما خشي شهاب الدين ان تسير اليه جيوش بعلبك بقيادة اخيه شمس الدولة يسانده (بزاوش) مع المماليك والتركمان، اخذ يراسل المتمردين ويلاطفهم، ورضخ لشروطهم ومطالبهم، فغادروا بعلبك في شعبان سنة ٥٣٠هـ. وعادوا الى دمشق[١١]. وفي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م قتل شهاب الدين محمود بن بوري غيلة في فراشه. فكتب اعيان دمشق ورؤساء الجند الى اخيه جمال الدين (شمس الدولة) محمد بن بوري صاحب بعلبك، يطلعونه على الحدث، ويستدعونه ليملك بعد اخيه. ودّع جمال الدين بعلبك وسلمها الى ابنه مجير الدين ارتق، وما أن دخل دمشق وجلس للعزاء بشقيقه حتى وفد اليه الجند، واعيان الرعية، وبايعوه



ملكا عليهم وانصرف الى توطيد حكمه، فاختار (معين الدين أتز) مدبرا لشؤونه[١٢]. وكانت والدة محمود بن بوري الملك المقتول (زمرد خاتون) قد تزوجت من أتابك زنكي. فلما بلغها النعي وهي بحلب أرسلت الى زوجها زنكي في الجزيرة الفراتية تنبئه الأمر، وتمنت عليه ان يقصد دمشق ويثأر لولدها. ولاقى التمني هوى في نفسه لأنه كان يطمع بدمشق وبعلبك فجهز جيشه واتجه الى بلاد الشام. وسبقته اخبار الغزو الى دمشق وبعلبك فاستعد الناس في المدينتين «واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه، الا وبذلوا الجهد في تحصيله»[١٣].

لجأ زنكي الى الرشاوى، والمراوغة، وتحريض «مقدمي الأحداث والزناطرة»[١٤] واطمعهم في الصلات والهدايا. ومع ان بعضهم قد استجاب له، وجد وضعه حرجا امام دمشق فتركها ويمم الى بعلبك.

روى ابن الاثير ان السبب الذي حمل الاتابك زنكي على العدول عن دمشق الى بعلبك هو طلبه لجارية جميلة كانت محظية معين الدين أنز سيرها الى بعلبك بعد ان تزوج أم جمال الدين (شمس الدولة) محمد بن بوري ارضاء لها. ولما قصد زنكي دمشق ارسل الى انز الهدايا والوعود المعسولة مقابل تسليم المدينة فأبى ان يخون سيده ابن بوري. واراد زنكي ان يكيد له بسبي محظيته فتوجه الى بعلبك ليأخذ المدينة والجارية. وقف زنكي امام اسوار بعلبك في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣هـ. فأغلقت ابوابها دونه[١٥]. وجد في محاصرتها، ونصب عليها اربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهارا حتى شارف سكانها على الهلاك. فطلبوا الأمان، وسلموا المدينة، وبقيت القلعة، وفيها حامية من شجعان الأتراك. قاتلوا اياما بلا جدوى. اذ لم تصلهم امدادات من دمشق، وطلبوا الأمان من زنكي فأقنعهم فسلموا اليه القلعة[١٦] ولما نزلوا منها، وملكها غدر بهم، وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل.

فصل أبو شامة عملية الغدر، ونجاة القلة من الأمراء رواية عن يحيى بن ابي طي الحلبي قال: «واتفق ان الأمراء لما نزلوا من (قلعة) بعلبك افسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولى قتلهم (صلاح الدين



محمد بن ايوب الناغبساني) فحكى انه احضر اليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له امرد كأنه فلقة قمر. فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك الا صلبتني قبل ولدي لئلا اراه يعالج سكرات الموت. وبكى. وكان نجم الدين ايوب واقفا، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في اطلاقه. فقال: ما افعل خوفا من المولى اتابك. فذهب نجم الدين الى اتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله فاذن بإطلاقه واطلاق من بقي من الجماعة. ووهبه نصف بعلبك، وقيل ان نجم الدين ورد على اتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكا، واستقر فيها هو وأهله..»[17].

نال زنكي مبتغاه فأخذ الجارية وتزوجها، ونقلها الى حلب، فلم تزل بها الى ان قتل زنكي فأعادها ابنه نور الدين محمود الى انز فكانت عاملا مهما في المودة بين الاثنين[18].

لا بد من مقارنة تتابع الأحداث في فتح بعلبك بين رواية ابن الأثير في (الكامل) وبين أبي شامة في (الروضتين):[19]

١ — في الكامل: وقع حصار بعلبك في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣هـ. وسقطت في غرة محرم ٥٣٤هـ. وهذا يعني ان الحصار دام بضعة عشر يوما. اما أبو شامة فجعله من احداث سنة ٥٣٤هـ ودام شهورا عدة[20].

٢ — في الكامل تم احتلال بعلبك في عهد شمس الدولة محمد بن بوري في الروضين احتلال بعلبك وقع بعد وفاة شمس الدولة وفي عهد ولده (مجير الدين أرتق).

٣ — ان سبب مهاجمة بعلبك لدى ابن الأثير هو طلب جارية (معين الدين انز). في حين علله أبو شامة بقوله «لما دخل مجير الدين دمشق اقطع بعلبك معين الدين آيز (انز) فأرسل إليها نائبه، وتسلمها، فلما علم زنكي ذلك سار الى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة..»[21].

إن التأمل المتعمق في سير الأحداث لاستجلاء غوامض التناقضات يكشف ان الأسباب التالية تضافرت كلها فدفعت بالأتابك زنكي عن دمشق الى بعلبك:

١ — مناعة دمشق لكثرة الجند المدافعين عنها.

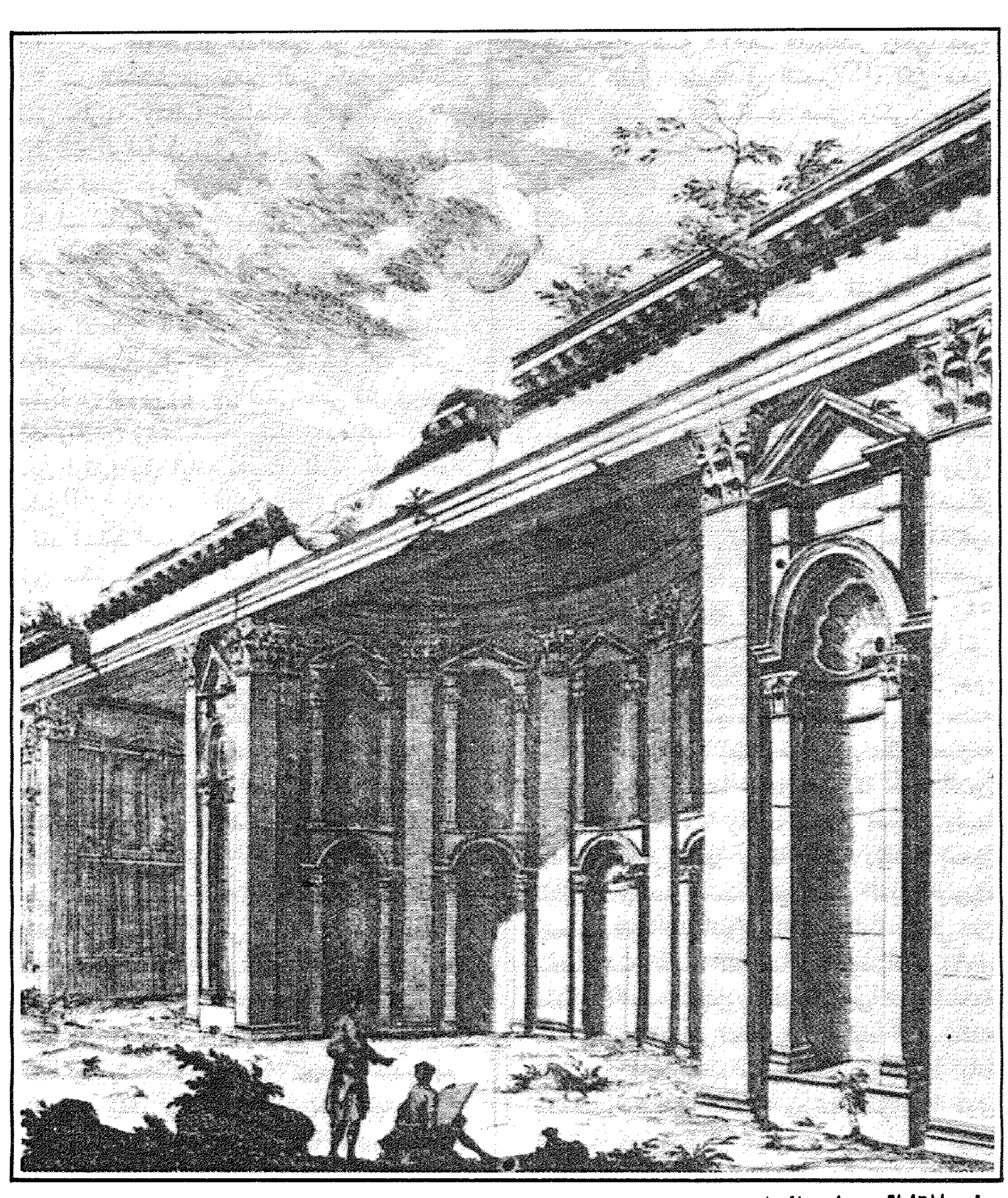
٢ ــ قلة الجند المدافعين عن بعلبك.
٣ ــ الضغط على معين الدين انز، واغاظته بسبي جاريته. وسلب اقطاعاته في بعلبك.
٤ ــ الرغبة في نوال الجارية الفاتنة (والمراة الجميلة لعبت دورا في حروب العالم (طروادة)).
٥ ــ بعلبك مفتاح دمشق وخصوصا اذا غدت قاعدة عسكرية لمهاجمة الشام.

وهناك شبهة ثالثة لا بد من كشفها وردت في (صبح الأعشى) للقلقشندي اذ قال: بعد شمس الملوك اسماعيل ملك اخوه شهاب الدين محمود بن ثوري (بوري) فبقي حتى قتل في سنة ثلاث وثلاثين وخمسماية، وملك بعده ابنه (مجير الدين ارتق) وفي ايامه تغلبت الفرنج على ناحية دمشق[٢].

لقد اسقط اسم شمس الدولة محمد بن بوري الذي حكم بعد اخيه شهاب الدين محمود. ثم اخطأ مرة ثانية عندما جعل مجير الدين ارتق، ابن شهاب الدين محمود، بينما هو ابن شمس الدولة محمد.

اقام زنكي في بعلبك حتى ربيع الأول[٢٣] يدبر شؤونها، ويعمر ما تشعث من اسوارها، ليدرأ عنها اخطار الفرنجة، ومحاولات البوريين لاستردادها. وهكذا انفصلت بعلبك عن دمشق، وهذا الانفصال ارتدى أبعادا استراتيجية، لأن زنكي اتخذ بعلبك قاعدة عسكرية ينطلق منها لمهاجمة دمشق. عبأ زنكي قواته في بعلبك، وقادها باتجاه دمشق، فنزل على داريا في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٣٤هـ وهناك التقت طلائع الجيشين. وبعد مناوشات انهزم الدمشقيون وانكفأوا يتحصنون داخل اسوار مدينتهم. فطاردهم زنكي وحصرهم. فخرجت اليه جموع من جند المدينة واحداثها ورجالة الغوطة فأوقع بهم وقتل منهم كثيرا،وأسر بعضهم. وهم لامتلاك دمشق[٢٤] لكنه تردد في دخولها حرباً. وفضل المفاوضات. فأوفد الى صاحب دمشق شمس الدولة، وبذل له بعلبك وحمص مقابل تسليم دمشق. اجتمع اعيان الدولة، وحذروا محمد بن بوري عاقبة الصلح لأن شيمة زنكي الغدر والقتل[٢٥]. ومافعله في أهل لعلبك ما زال يرهبهم ويخيفهم، ويشهد على سوء نواياه. وصدف ان مات شمس الدولة محمد ابان الحصار في الثامن من شعبان سنة ٥٣٤هـ فاستبشر زنكي خيرا وشدد القتال طمعا في النصر[٢٦]. لكن معين الدين انز ــ الحاقد على زنكي، بسبب الجارية ــ نصب على دمشق مجير الدين آبق (ارتق) ابن شمس الدولة، وهو ثالث حاكم لبعلبك تملك دمشق، وتولى انز تدبير دولته، «وراسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته»[٢٧]. مل زنكي الانتظار امام اسوار دمشق، فتركها وقصد حوران، ثم عاد الى بعلبك ليدفع عنها خطر الصليبيين الذين وصلوا البقاع[٢٨]. ارتاح في بعلبك، ومنها اخذ يرصد تحركات عسكر دمشق، ويستعد ثانية لمفاجأتها، فنازلها سحرا، ولا يعلم به أحد من اهلها، فلما اصبح الناس ورأوا عسكره، خافوا، وارتج البلد، واجتمع العسكر والعامة على السور، وخرج الجند والرجالة فقاتلوه ودحروه فعاد خائبا[٢٩]. وظلت دمشق هاجس زنكي الأول يتشوق لدخولها فشرع سنة ٥٤٠ يحشد المجانيق في بعلبك، ويستعد لمهاجمتها لكن تحركات الفرنج واتصالات معين الدين انز بهم، جعلته ينسحب باتجاه حمص، ويتخلى عن حلمه الهاجس[٣٠]. ظلت بعلبك مع زنكي حتى مصرعه سنة ٥٤١هـ. عندها اهتبل الفرصة مجير الدين ارتق لاستردادها، وكانت موطن صباه وفيها ولد[٣١]. سار اليها برفقة مدير دولته (معين الدين)، وحصر مستحفظها نجم الدين ايوب، ونصب عليها المجانيق، ولما ابطأ أبناء زنكي عن نصرته سلم القلعة في جمادى الأولى سنة ٥٤١هـ مقابل بعض القرى من ناحية دمشق، مع الاقرار لحقه بثلث بعلبك الذي تملكه ايام زنكي[٣٢]. اقام مجير الدين في بعلبك اياما يستعيد ذكريات الماضي، ويرتب شؤونها فولى قلعتها ضحاكا بن قيس بن جندل بن قيس البقاعي، وأبقى على المدينة نجم الدين ايوب[٣٣]. ثم قفل عائدا الى عاصمة ملكه في الثامن عشر من جمادى الآخرة.

هكذا رجعت بعلبك الى سلطة البوريين، ودام حكمهم لها هذه المرة تسع سنوات تقريبا (٥٤١ ــ ٥٤٩هـ) (١١٤٧ ــ ١١٥٥م). وقد زارها معين الدين انز سنة ٥٤٣هـ، والتقى فيها نور الدين محمود بن زنكي الذي قدم على رأس نجدة لدفع الصليبيين عن حصار دمشق[٣٤]. وفي



هذه المقابلة تسلم (أنز) محظيته التي سباها زنكي من بعلبك فأعادها اليه نور الدين محمود في المدينة نفسها. وكانت فاتحة عهد جديد بين الاثنين، فتحالفا وسارا معا الى حصن (العريمة) واستعاداه من الفونس الفرنجي[٣٥]. ويبدو ان معين الدين قد خلف على بعلبك ابان زياته مستحفظاً جديداً هو عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، ذكر القلانسي انه «في سنة ٥٤٥هـ، ابعد يوسف حاجب مجير الدين ارتق من دمشق الى بعلبك، فأكرمه عطاء واليها»[٣٦].

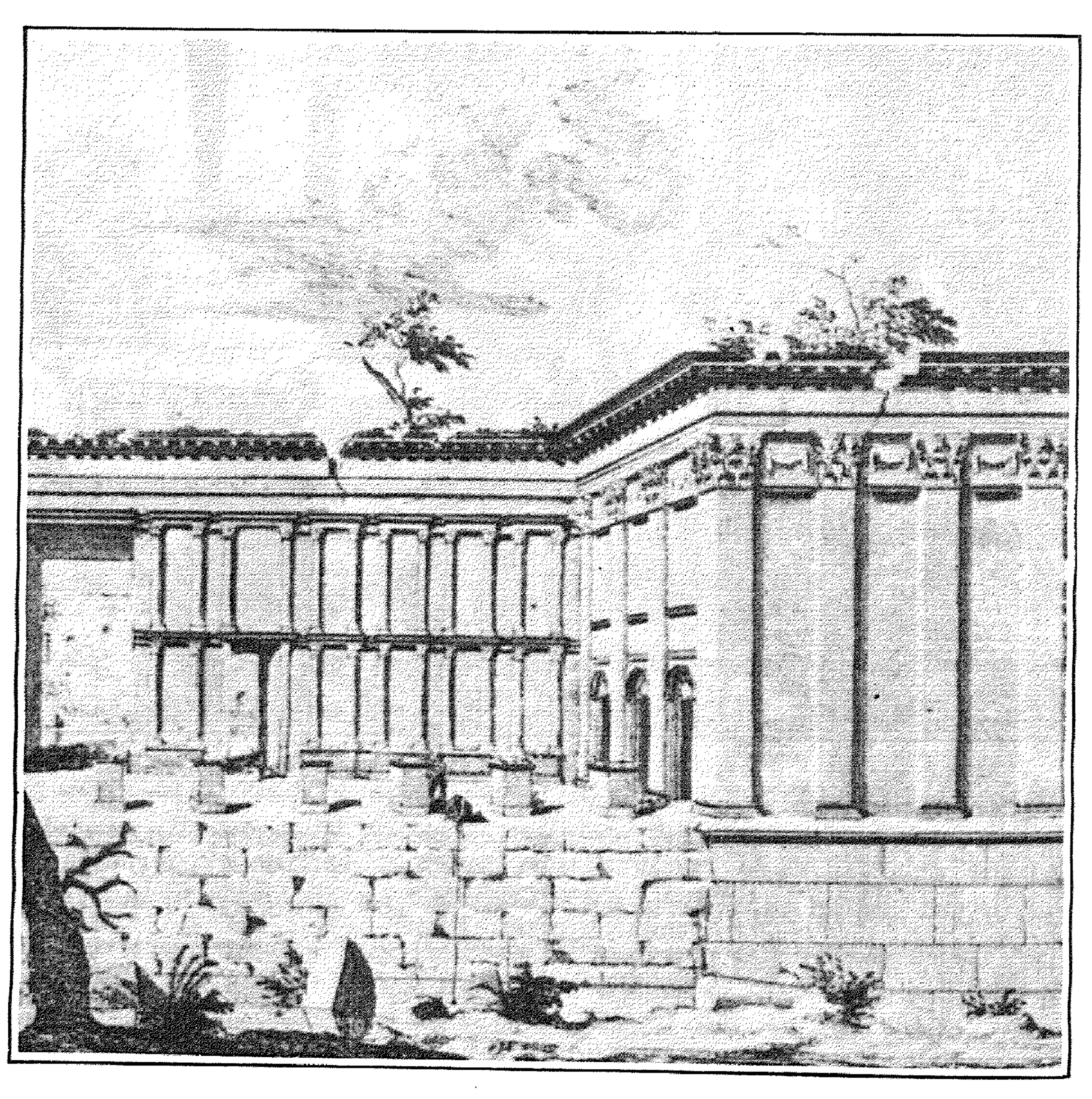
وفي اوائل شهر رمضان سنة ٥٤٦هـ، أواخر كانون الأول ١١٥٢م، هاجم الفرنج بجموع غفيرة قرى البقاع، واستباحوها، ونهبوا المواشي وأسروا الرجال، فتصدى لهم والي بعلبك عطاء وتكاثر عليه المسلمون وصدف ان سقط ثلج عظيم ثبط الافرنج وشل حركتهم، فأدركهم جند بعلبك،

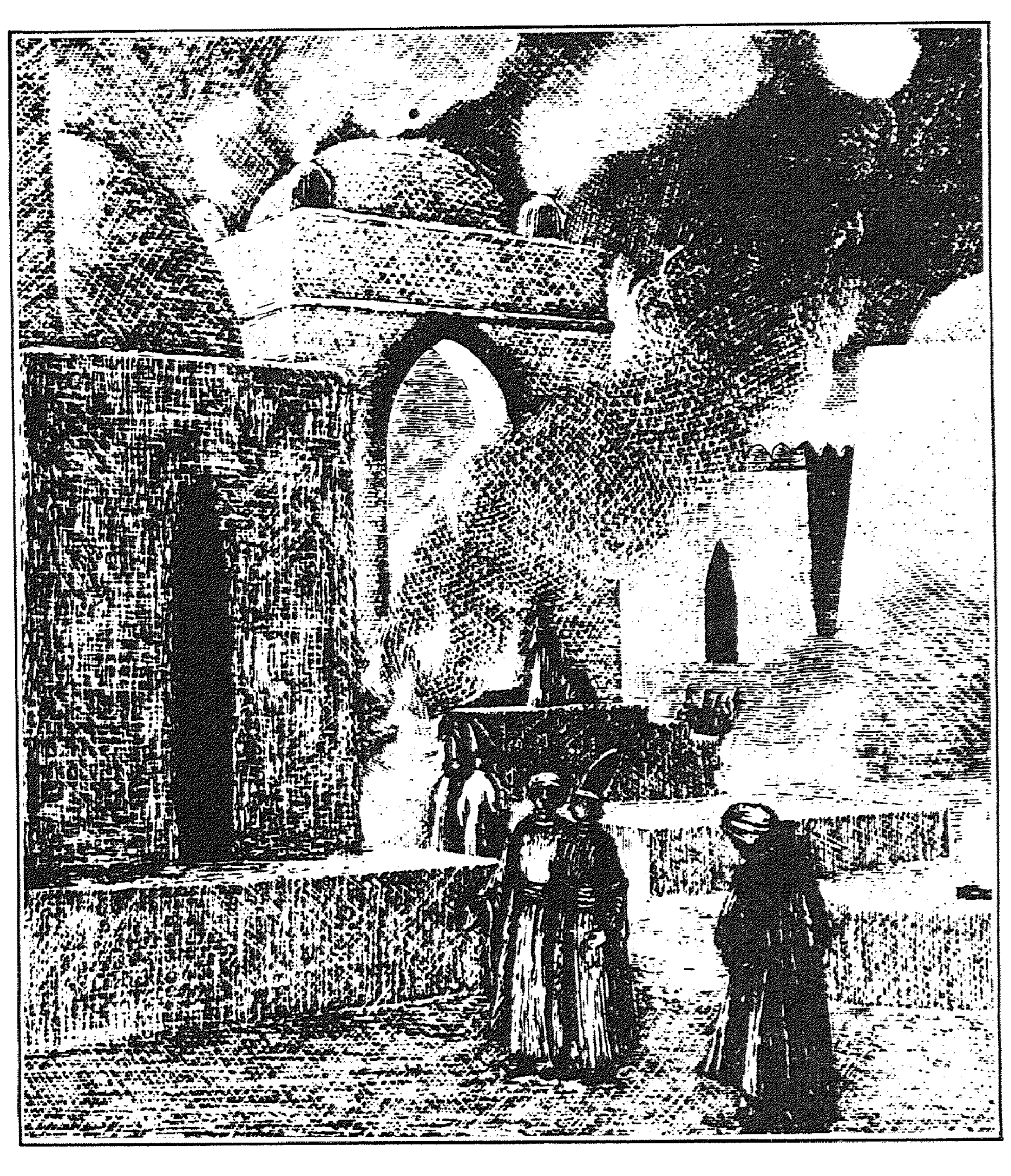
وفتكوا بهم، واستخلصوا من الأسرى والمواشي بقية سلمت من الهلاك بالثلوج[٣٧]. هذه الحادثة أوردها ابو شامة لكنه لم يذكر إسم عطاء بل قال: «وصدف وجود فرقة من عسكر دمشق في بعلبك عند نجم الدين ايوب، فضم اليهم جماعة من اصحابه وامر عليهم ولده شمس الدين، فخرجوا يطاردون الغزاة واتفق ان سقط ثلج كثيف، فتورط فيه الفرنج، وادركهم شمس الدولة بجنوده فقتل معظمهم وخلص الأسرى»[٣٨].

أرى التناقض بين الروايتين كامناً في الشكل وليس في المضمون. لأن عطاء كان والي القلعة، ونجم الدين على المدينة وابان الغارة الصليبية اتفق الرجلان على خروج الجيش بقيادة شمس الدلة بن نجم الدين ايوب، ومكثا في المدينة ولم يخرجا لأن الغارة لم تكن من الحجم الذي يقتضي خروجهما.

ظل عطاء على بعلبك حتى جمادي الثانية سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م. عندما زاره مجير الدين واتفق معه على أن يزر له[٣٩] واستصحبه الى دمشق لينوب عنه في تدبير الأمور والأعمال، ويعاونه على مصالح البلد[٤٠]. وخلف على بعلبك ضحاكا البقاعي للمرة الثانية.

في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م رغب نور الدين محمود في احتلال دمشق التي صدت والده مرارا، فتودد الى مجير الدين وأكثر من بعث الوفود التي تحمل الهدايا. وكان نور الدين يعلم



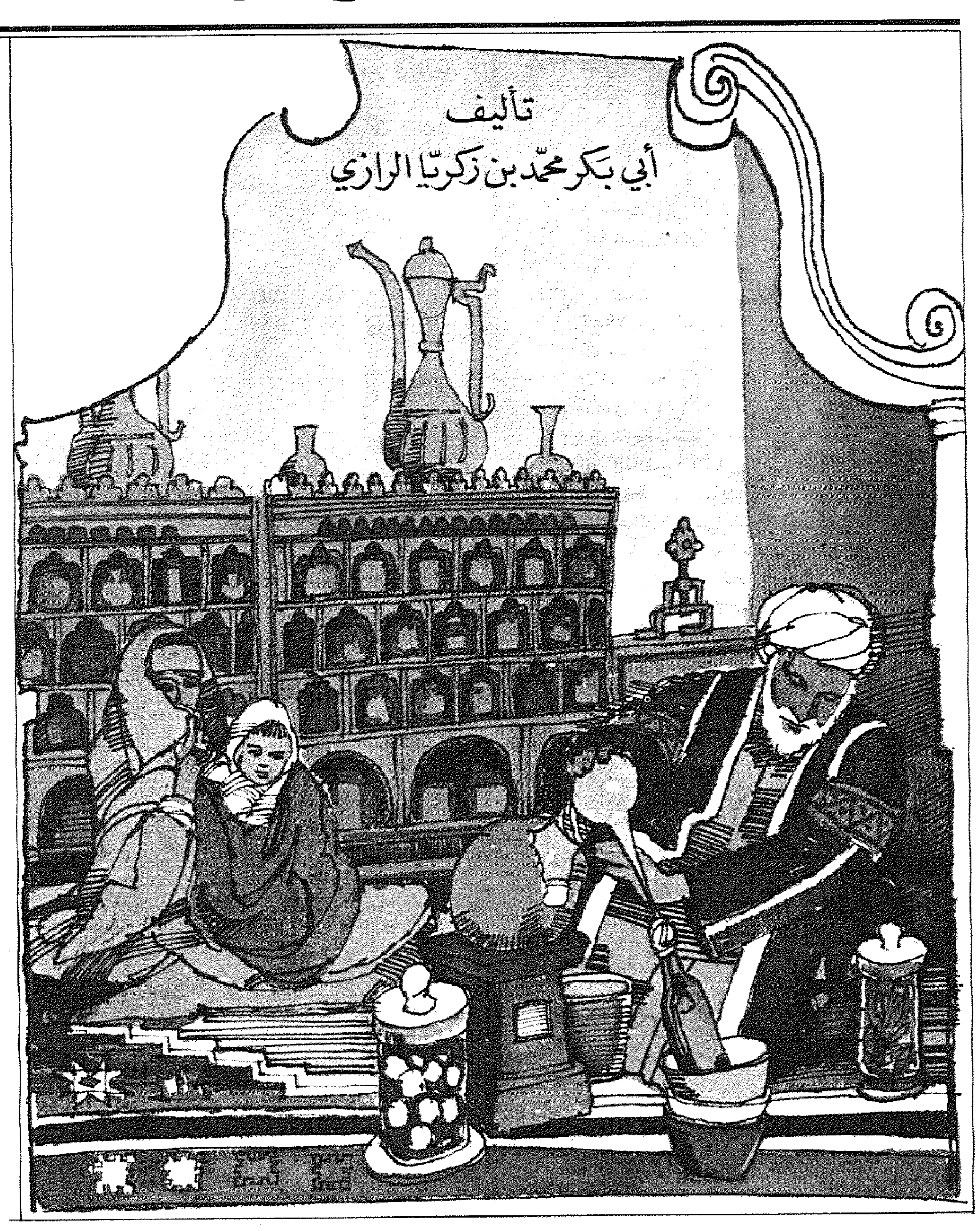


أن مفتاح دمشق هو القضاء على صاحب بعلبك عطاء السلمي،وكان شهما شجاعا. عمد نور الدين الى الحيلة وأفسد بدهائه ما بين مجير الدين ووزيره عطاء اذ كتب الى مجير الدين «قد فقر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه»(٤١) لعلم نور الدين انه لا يتم له امر في دمشق مع وجود عطاء. انطلت الحيلة على مجير الدين واستدعى عطاء ليقتله فقال له: لا تقتلني فان الحيلة قد تمت عليك، وذهب ملكك وسيظهر لك ما أقول. لكن مجير الدين نفذ وعيده(٤٢) ولما خلا الجو لنور الدين حاصر دمشق فاستنجد صاحبها بالفرنج وبذل لهم بعلبك مقابل ردع نور الدين عن دمشق. وبعد عشرة ايام من الحصار سقطت دمشق، وغادرها مجير الدين الى حمص ومنها الى بغداد حيث أشاد داراً قرب المدرسة النظامية، وأقام هناك حتى وفاته(٤٣). ■

الهوامش

(١) ابن الاثير: الكامل، ١٠/٣٧٥.
(٢) نفسه: ١٠/٣٧٦.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٥/١٢٨.
(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ١٦٦ ــ ١٦٧.
(٥) ذيل تاريخ دمشق: ١٧١.
(٦) الكامل: ١٠/٦٨٠؛ أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر: ٢/٢٤٠.
(٧) الكامل: ١٠/٦٨٠؛ أبو الفداء: ٣/٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر: ٢/٦٠.
(٨) ابن القلانسي: ٢٣٥؛ الكامل: ١٠/٦٨٠.
(٩) الكامل: ١٠/٦٨١؛ ابن القلانسي: ٢٣٦؛ ابو الفداء: ٣/٧.
(١٠) الكامل: ١١/٢٠؛ ابو الفداء: ٣/٩.
(١١) الكامل: ١١/٣٩؛ ابن القلانسي: ٢٥٤.
(١٢) الكامل: ١١/٦٨؛ ابو الفداء: ٣/١٤، ابن الوردي: تتمة المختصر: ٢/٦٧.
(١٣) الكامل: ١١/٦٩.
(١٤) ابو شامة: الروضتين: ١/٣٣.
(١٥) الكامل: ١١/٦٩؛ القلانسي: ٢٦٩؛ ابن الوردي: ٢/٦٧.
(١٦) ابو شامة: ١/٣٣؛ القلانسي: ٢٧؛ ابن الوردي: ٢/٦٨.
(١٧) ابو شامة: ١/٣٤.
(١٨) الكامل: ١١/٦٩؛ ابو الفداء: ٣/١٥، ابن الوردي: ٢/٦٨.
(١٩) ابو شامة: الروضتين: ١/٣٣.
(٢٠) نفسه: ١/٣٤.
(٢١) ان روايات ابن القلانسي (٢٧٠)؛ وابي الفداء (٣/١٥)، وابن الوردي (٢/٦٨) تتوافق جميعها مع رواية الكامل.
(٢٢) القلقشندي: صحيح الاعشى: ٤/١٦٥.
(٢٣) الكامل: ١١/٧٣.
(٢٤) نفسه: ١١/٧٤.
(٢٥) ابو شامة: ١/٣٣.
(٢٦) ابو الفداء: ٣/١٥، ابن الوردي: ٢/٦٨.
(٢٧) الكامل: ١١/٧٤.
(٢٨) الكامل: ١١/٧٤.
(٢٩) الكامل: ١١/٧٥.
(٣٠) ابن القلانسي: ٢٨٢.
(٣١) ولد المظفر مجير بن شمس الدولة محمد بن بوري، في بعلبك ابان امرة ابيه عليها. وولي دمشق بعد أبيه خمس عشرة سنة. توفي سنة ٥٦٤هـ (الذهبي، العبر ٤/١٨٥).
(٣٢) ابو شامة: ١/٤٧؛ ابن القلانسي: ٢٨٧؛ ابو الفداء: ٣/١٩؛ ابن الوردي: ٢/٧٣.
(٣٣) ابو شامة: ١/٩٩.
(٣٤) الكامل: ١١/١٣١.
(٣٥) الكامل: ١١/١٣١.
(٣٦) ذيل تاريخ دمشق: ٣١١.
(٣٧) ابن القلانسي: ٣١٧.
(٣٨) ابو شامة: الروضتين: ١/٨٤.
(٣٩) كان عطاء السلمي شهما شجاعا فوض اليه مجير الدين شؤون دولته بعد ابي البيان حيدرة بن علي الصوفي (الذهبي: العبر في خبر من عبر: ٤/١٨٦).
(٤٠) ابن القلانسي: ٣٢١.
(٤١) ابن القلانسي: ٣٢٦.
(٤٢) الروضتين: ١/١٩٥؛ الذهبي: العبر: ٤/١٨٦.
(٤٣) الكامل: ١١/١٩٨.

رسالة في أمراض الأطفال



□ عملية تحضير الأدوية، برع العرب في إعدادها خلال عصور طويلة.

والعناية بهم

نقلها للانكليزية: صوموئيل اكس. رادبل
نقلها للعربية وعلق عليها:
د. محمود الحاج قاسم محمد


صورة زجاجية للرازي.

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي

ولد بالري سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م). وعاش في بغداد ودفن في الري سنة (٣١٣هـ/ ٩٢٥م)، اشتهر بالطب والكيمياء، أعظم اكلينيكي انجبته الحضارة العربية الاسلامية، ظل حجة الطب في اوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي وتولى رئاسة بيمارستان الري في اول عهده ونزح الى بغداد، حيث عينه عضد الدولة رئيسا للبيمارستان العضدي، وكان دقيق الملاحظة معنيا بتدوين المشاهدات والتجارب، بارعا في التشخيص المقارن. الف نحو ٢٢٤ كتابا ضاع منها الكثير. اشهر تاليفه في الطب النظري، كتاب المرشد أو الفصول. رسالة في الجدري والحصبة والمنصوري ورسالته في طب الأطفال. أما أشهر كتبه في الطب العملي فهو كتابه الحاوي.

مقدمة تاريخية



يجمع المؤرخون على أن الرازي كان اول من فصل بين طب الأطفال والأمراض النسائية وجعله يأخذ شكلاً مستقلا بذاته عندما الف هذه الرسالة في حدود ٩٠٠م وأن هذه الرسالة تعتبر وثيقة هامة في تاريخ طب الاطفال وتطوره ليس لكونها اول مؤلف في طب الأطفال يؤلف على شكل مستقل فحسب، بل لأنها تعكس بوضوح المستوى الرفيع الذي كان قد وصله هذا العلم عند الأطباء العرب ولاحتوائها التجارب التي خاضها الرازي مؤلفا وطبيبا ممارسا.

لقد عولج موضوع امراض الأطفال قبل الرازي عرضيا من قبل ابقراط (٤٥٠ق.م.)، وجالينوس (٢٠٠ ب.م.)، أما سورانوس من معاصري جالينوس عندما كتب كتابه الكلاسيكي في الامراض النسائية والتوليد فأدخل فيه علاج الاطفال، ومنذ ذلك التأريخ حصل الارتباط التقليدي بين طب الاطفال والامراض النسائية في المؤلفات الطبية، الى أن جاء الرازي برسالته هذه وجعل علم طب الاطفال علما مستقلا بذاته.

إن هذه الرسالة لا توجد منها على علمنا اية نسخة باللغة العربية الان ولا نعلم فيما اذا كان الرازي الفها باللغة العربية أم الفارسية، كما يقول رادبل (Radbill)[1] وإن كنا نميل الى كونها الفت بالعربية إذ أن الرازي، كما هو معروف، قد الف أغلب كتبه القيمة في الطب بالعربية.

ترجمت هذه الرسالة للاتينية قبل ظهور الطباعة من قبل سومون في مدرسة جيراد كريمونا (١١١٤ ــ ١١٨٧م)، الا انها نسبت الى جيراد كريمونا. كما ترجمت الى العبرية. اول كتاب مطبوع ظهر في طب الاطفال، كان كتاب

(بيكالادوس) واسمه (De Egitudinium Infantium) في سنة ١٤٧٢م الذي اعتمد كليا في تأليفه على رسالة الرازي هذه.

رسالة الرازي نفسها ظهرت في الطباعة في سنة ١٤٨١م وبعد ذلك اعيد طبعها عدة مرات وفي العادة كانت تدمج مع كتابه المنصوري او فصول الطب لابن الهيثم.

ومن الحقائق الأكيدة ان جميع كتب الأطفال التي الفت في اوروبا من القرن العاشر حتى السابع عشر سارت على غرار النسخة اللاتينية لرسالة الرازي. في العصر الحديث ترجم بايبر (Peiper) بعض فقراتها للألمانية، وستيل (Still) وروهرا للانكليزية إلا أنه ليس هناك ترجمة كاملة منشورة في الطباعة.

سنة ١٩٥٩، ترجمت الى الايطالية في جملتها هذه الترجمة التي اعتمدنا عليها، قام بها رادبل، هي اول وأكمل ترجمة انكليزية لرسالة الرازي في طب الأطفال، وترجمها عن النسخة الايطالية، مانزا (Manza) لسنة ١٤٩٧م، والتي هي بحوزته، ونشرها في مجلة طب الأطفال الاميركية سنة ١٩٧١.

وإنه لما حز في نفسي ونحن نقترب من نهاية سنة الطفل الدولية ومن بداية القرن الخامس عشر الهجري، ان اللغة العربية لغةالأم، بالنسبة لهذا السفر الثمين لا زالت تفتقر لها وأن لغات عالمية مختلفة احتوت ترجمات لها منذ امد بعيد، الأمر الذي دفعني الى خوض غمار الترجمة لأول مرة، على الرغم من معرفتي المتواضعة لفقه اللغة الانكليزية.

لقدكانت ترجمة الاصطلاحات الطبية واسماء العلاجات الى اللغة العربية من الصعوبات التي لاقيتها، فقد كان لزاما علي أن اقارن مدلولها مع كتب اخرى في نفس الموضوع لأنتقي الكلمات التي اعتاد الأطباء العرب في تلك الحقبة استعمالها، وارجو أن اكون قد وفقت في مسعاي، وإلا فحسبي انني قمت برسم صورة قريبة لكتاب فقد أصله العربي لأملأ بذلك فراغا في المكتبة العربية ولتكون هذه الصورة بديلا للقارىء العربي، لحين العثور على الأصل العربي إن شاء الله، والله من وراء القصد.

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

الرسالة

□ الباب الأول ـ في القروح التي تعرض في الصبيان:

تعرض القروح (السعفة) في الصبيان على الأكثر في الوجه والرأس، وتتولد نتيجة زيادة الدم والرطوبة في الجلد[٢]، علامته: قرحة صغيرة يسيل منها ماء فتفترش في الوجه والرأس. ويصحب ذلك حكة وصراخ وسهر مما يدفع الصبي الى تمزيق جلده.

ابتدىء في معالجة هؤلاء الأطفال باصلاح غذاء المرضعة، ثم احلق رأس الطفل بالنورة وضع عليه (Atriplex) لأنه على الأغلب تشفى كلية بذلك وحده، حيث أن الأوراق تسحب السم الى الخارج..

او آخر، ضع على الراس مرهم، مرهم للقروح التي تعرض في رؤوس الصبيان، خذ:

اسفيداج الرصاص (٣)	٥ دراهم
مرداسنج	٥ دراهم
رماد حطب الكرم	٣ دراهم
شمع	نصف اوقية

اذب الشمع بدهن الورد ثم دقه مع العلاج واخلطه مع بيضتين مشويتين واطلي به رأس الطفل.

□ الباب الثاني ـ في الجرب في الصبيان:

ان المرض المسمى الجرب هو نوع من القروح، يظهر فيها نوع من القشور، ويكون الجلد مخدشا نتيجة للحكة الشديدة، ويجرى من هذه القروح مادة شبيهة بالعسل

العلاج، يكون بقشط الراس يوميا وغسله بحبق الماء ونبات المرزنجوش ثم طلائه بالدهن التالي، خذ:

مرداسنج	مثقالين
اسبيذاج	مثقالين
كبريت	مثقال
بورق	مثقال
دهن الورد	جزئين
خل	جزء واحد

اخلطهم وأذبهم مع دهن الورد والخل حتى

يحصل لديك مرهم، واطلي به صباحا ومساء واغسل الرأس بالسائل المذكور سابقاً.

□ الباب الثالث ــ في كبر الراس في الصبيان:

يولد الصبيان برأس كبير وبعد الولادة يزداد في الكبر أكثر مما يجب، وقد شاهدت طفلا كبير الرأس طولا، وسعة لدرجة ان كان من الصعوبة حمل الرأس على الجسم ولم يتوقف تضخم الرأس حتى توفي الطفل. ان مثل هذا الكبر يعرض في الرأس، اما من ريح ينتشر في عظم الرأس[٤] أو من تجمع ماء محصور داخل الرأس لا يجد له منفذا للخروج[٥]. في معالجة ذلك، ابدأ بتنقية المرضعة بمادة (Artriplex) وتؤمر باجتناب كل غذاء يولد ريحا وفضلا غليظا، ثم تبدأ في معالجة الطفل بأن تسعفه بهذه الأشياء مثل دهن اللوز المر أو دهن اليانسون والأحسن دهن الناردين أو محلول السماق. إذا بريء الطفل بذلك اكتفي به.

وإذا لم يتشاف فعندئذ تتخذ له عصائب من اللبان والاسكنجبين والعنزروت وصمغ اللون، اذا بريء لا تعمل شيئاً آخر وإذا لم يبرأ، خذ القصب ودقه مع قشوره حتى يحصل نوع من المرهم، وامزج مع هذا قليلا من اللبان وضعه على الراس كله بعد حلاقته واتركه عليه عدة ايام. هذا العلاج يصلب الراس ويرجعه الى خلقه الاعتدال، ثم اسعط الطفل بمرارة الذئب أو دماغه وقليلا من المر أو العنبر، اعمل ذلك في اي شهر ترغب.

صغر الرأس اذا حدث من الولادة ليس إلى برئه حيلة[٦].

□ الباب الرابع ــ في انتفاخ البطن في الصبيان:

يحدث انتفاخ البطن في أغلب الأحيان لدى الصبيان الذين لديهم تضخم في الرأس[٧].

علاج ذلك، هو أن تأخذ، المر والصبر والزعفران وتمزجها مع ماء الهندباء وتطلي به الرأس، اما اذا هزل الجسم في حالة انتفاخ البطن المصحوب مع تضخم الرأس، خذ:

سمسم	٥ دراهم
جوز ولوز	٧ دراهم لكل منهما
رازيانج	مثقال واحد

تدق جميعها ويستخلص منها الدهن ويسعط منه الصبي ربع درهم[٨] ويدهن رأسه. وكذلك تسعط المرضعة به وتسقى منه شيئاً مع الحليب.

□ الباب الخامس ــ في العطاس في الصبيان[٩]:

العطاس يحدث من الدماغ أو من أغشيته. وعلامته ان تغور العينان بافراط ويتبعه حمى عالية.

علاجه، يكون بأن يوضع على هامته اوراق البقلة الحمقاء أو قصاصة قرع مع دهن الورد وطحين الشعير أو اطلي الرأس بمح البيض والدهن.

□ الباب السادس ــ السهر في الأطفال:

يعرض السهر في الصبيان في الدرجة الأولى من أسنانهم من رداءة اللبن.

علاج ذلك، يكون بأن يسعط الطفل بدهن البنفسج ودهن الزعفران. أو دهن الشبث مع عصير الخس وأن يطلي الرأس والمعدة ببعض هذه الدهون. ويجب أن تهتم باصلاح اللبن، اعطي الطفل من شراب الخشخاش واطلي صدغيه وجبهته بدهن الافيون والزعفران.

□ الباب السابع ــ في الصرع في الصبيان:

الصرع يكون على نوعين، اما يولد الطفل مصابا به بسبب سوء مزاج طبيعي يغلب على الدماغ رطب أو عفن. أو يحدث عرضيا لهؤلاء الأطفال. وعلامة كونه طبيعيا، ان الطفل يولد مصابا به. وعلامة كونه عرضيا هو حدوثه بعد الولادة. علاج النوع الولادي يكون بملاحظة الغذاء لأن الطفل حينما يتجاوز هذا الدور يشفى منه ولكن اذا لم تتحسن حالته فإن هذا البلاء يرافق الطفل حتى الممات. وعلاج النوع العارض يكون بالحذر من فساد اللبن، فعلى سبيل المثال يجب ان يعنى بتنقية رأس وجسم المرضعة وأن تجنب الاغذية التي تولد البلغم، وأن لا يرضع الطفل الا مقدار ما يستطيع هضمه أو حتى أقل



□ طبيب يعاين مريضاً يعاني من لسعة حية، عن طريق قتلها ومن ثمّ اكلها مع بعض الثمر.
«كتاب الادوية» لبسدوجالين.

من ذلك وسعطه بسعوطات حارة ودعه يشم حلتيت وقطران وادلكه بدهون حارة وعلق حول عنقه نبات الفاوينا واربط حجرة خضراء على رجله وإذا ما استمر ذلك فأعط الترياق الكبير.

□ الباب الثامن — ام الصبيان:

يتابع هنا الكلام حول علة خاصة تسمى القرين الولادي أم الصبيان. تحدث هذه العلة للأطفال في الدور الأول من حياتهم. علامته صراخ أو خوف شديد عند النوم وحمى عالية بسبب قلة النوم وتفوح من فم الطفل عفونة وسبب ذلك هو رضاعة الطفل أكثر مما يستطيع هضمه.

علاجه: اصلاح الحليب وأن يعطى الطفل سدس الدرهم من الـ (Diasmuscum Diapliris) مع الحليب يومياً. واحسن علاج في هذه الحالة الترياق الكبير.

□ الباب التاسع — في الرطوبة العارضة في اذان الصبيان:

يتابع هنا عن سيلان الرطوبة في اذان الصبيان تحدث هذه العلة في الادوار الأولى من الحياة من رطوبة الدماغ.

علاج ذلك: يوضح فتيلة من السلك القديم في اذن هؤلاء الأطفال وعندما تتشرب بالافرازات، ارمها وابدلها بأخرى. قد يشفى بصورة جيدة نهائياً بذلك. وإذا لم يشف خذ صوفا مبلولا بشيء من شب مذاب، وضعه في الاذن فإن الرطوبة تجف. وخذ الزعفران والبارود، أو خذ زعفران ونطرون وأذبهما في شيء من خل وماء وقطره في الأذن.

□ الباب العاشر — في جريان السم من الأذن:

هنا يعقب للتحدث عن السم. ويحدث ذلك للأطفال من بثرة أو قرحة في الأذن، لذلك يكتفي بتقطير عسل مغلي مع الماء لأن ذلك ينظف السم في الأذن. أو خذ اوراق الآس والعفص وانقعه مع الخل وقطره في الأذن.

□ الباب الحادي عشر — في امراض العين في الأطفال:

يعقب هنا للتحدث عن اوجاع العين في الأطفال تحدث امراض مختلفة في أعين الأطفال

من بينها انتفاخ في العين وانسداد الأجفان. يحدث ذلك عرضيا من تأثير المواد التي تضعها الأم على رأس الطفل مثل الحناء وما شابه ذلك فيسيل قسم من الفائض الى الأسفل من الرأس الى العين. ويحدث في الصدفة احيانا نتيجة سيلان القيح الساخن أو البارد الى العين.

علاج النوع الذي يصحبه احمرار في الوجه وحمى في الجبهة ان تأخذ:

عصير عنب الثعلب	درهم
اوراق الورد	درهم
زعفران	درهم ونصف
مرة	درهم ونصف

اسحقها وامزجها مع ماء الهندبان وحليب المرأة. وضعها فوق العين والجبهة. غير ذلك يوميا حتى تنفتح العين ان ذلك يعطي نتائج حسنة في الأطفال. إذا لم يكن اي احمرار في العين وحمى في الجبهة خذ المر، والزعفران، والصبر وورق الورد وامزجها مع شراب جيد وضعها فوق العين..

وقد حصلت على نتائج افضل بالتجربة(١٠) وذلك بادخال قليل من العنبر في الأنف وطلائه بحليب المرأة. اذا احدثت إصابات اخرى في عين الطفل مثل الجرب والبهق وما شابه عالجه في العلاجات المذكورة والموصوفة للبالغين والشباب ولكن بمقادير اقل.

□ الباب الثاني عشر — في الحول:

يعقب هنا للتحدث عن العلة التي يبان فيها الطفل أو ينظر محولا قائلا هذه الحالة اما تكون ولادية أو تحدث بعد الولادة.

علاج ذلك يكون بوضع سراج في الليل في الجهة المعاكسة للعين. وان تعلق دمية جميلة ملونة بألوان مختلفة فوق السرير عندما يكون راقدا أو جالسا في السرير حتى يستقيم النظر.

□ الباب الثالث عشر — في امراض الأسنان:

يتكلم هنا عن الأوجاع التي تحدث للأطفال اثناء خروج الأسنان.

قال جالينوس: ان الأسنان اذا نبتت سريعا كان نباتها أيسر وأقل وجعا غير انها تكون رديئة ضعيفة وإذا نبتت ببطء كان نباتها شاقا موجعا الا انها تكون قوية، وإن كان نبات الأسنان في الربيع نبتت بسرعة وبأذى قليل وان كان في الشتاء اشتد عليهم الا ان اللثة لا ترم وإن كان في فصل القيظ عرضت لهم الام قليلة. وقد يحدث في هذا الوقت خراج صغير للأطفال في اللثة أو الفك أو الأنسجة الرخوة. وحكة في الأذن مع سيلان رطوبة ودم. ومن يحدث له مثل ذلك من الأطفال يصحب ذلك فيهم حمى، واختلاف أو اعتقال الطبيعة.

علاج ذلك: عندما تكون اللثة متورمة يجب تدليكها بالاصبع قليلا ثم بزيت الزيتون أو دهن الدجاج أو مخ الارنب أو لبن كلبه وضع بابونج ويانسون على رأس الطفل وضمد فك الطفل بلزقة محللة.

اما اذا زاد الوجع عند نبات الأسنان: خذ زبدة طرية، دهن الأمجاد امزجها مع بعضها وضعها فوق الموضع. أو خذ زبدة من حليب البقر ونخاع عظم الفخذ واطل بها الموضع. عندما يظهر رأس السن ضع صوف نظيف على الرأس كله مع الرقبة ورش ماء ساخنا على الصوف يوميا. اذا حدث اختلاف عالجه كما سنقول.

□ الباب الرابع عشر — في القروح العارضة في افواه الصبيان:

يعرض للصبيان في الدرجة الأولى من اسنانهم قروح في الفم لرداءة الحليب أو غلظه. هذه التقرحات إما تزداد بصورة حادة سريعة وشديدة أو تبقى كما هي. علامة النوع الشديد هو احمرار مع وجع شديد وسيلان اللعاب. وعلامة النوع البسيط هو أن التقرحات تنقلب الى لون ابيض مع وجع بسيط ويكون اللعاب الذي يسيل داخل الفم كثيرا.

علاج النوع الشديد من التقرحات: هو اصلاح لبن المرضعة بالأطعمة الباردة والرطبة أو خذ قليلا من النشا وحله بماء الورد واطلي به. وضع في فم الطفل ماء التفاح البري أو ماء الرمان. اذا كان النوع الحاد اقل شدة، امزج مع هذه عصارة الخس أو البرتقال أو البزرقطونا.

علاج التقرحات القليلة الصديد والمائلة الى البياض هو أن تأخذ:

المر	درهم واحد
الزعفران	درهم واحد
سكر	ضعف ذلك

دقه وضعه في الفم.

اذا اسودت التقرحات او تعفنت يجب أن تعالج بالأدوية التي توصف للكبار.

□ الباب الخامس عشر — في القيء في الصبيان:

يحدث القيء في الصبيان في الدرجة الأولى من اسنانهم من أسباب متعددة؛ اما لكثرة ما يتناولونه من اللبن عما يستطيعون هضمه، أو لرداءة اللبن،وإضافة لذلك اذا كان الطفل ذا معدة رطبة أو ضعيفة[١١].

علاج ذلك، هو أن تقلل رضاعهم وأن تفحص القيء إذا كان فيه رائحة حادة أو اخلاط، فخذ اللبان سدس درهم مع شراب (الفجل) ثلث درهم. دقها وامزجها مع شراب الورد واعطه للطفل أو دع الأم تأخذ قليلا من الكمون والسماق وتضعها في فم الطفل. او ما عدا ذلك انصحها ان تعطي الطفل شراب الرمان المتخذ بالنعناع.

اواخر / جربته / خذ

عو	نصف درهم
مصطكي	نصف درهم
عفص	سدس درهم

اطحنها مع بعضها وامزجها مع شراب الورد وقليلا من الطحلب واعطه للطفل قبل الرضاعة. وضع على معدة الطفل اللبائخ التالية:

مصطكي، صبر، شجر النط، عفص، لبان ذكر، خبز محمص، من كل منها كميات متساوية امزجها وضعها فوق المعدة. فانها علاج مجرب للقيء وسيلان اللعاب من افواه الصبيان.

اذا لم تكن رائحة القيء حامضا بل حاد والحرارة مائلة للطبيعة، أو اللون للشحوب أعط الطفل: رب السفرجل أو التين أو اقراص، منها: أقراص مفيدة لقيء الأطفال، خذ:

ورد	٤ دراهم
سخام	٤ دراهم
عفص	درهمين
حبوب نبات الحميض	درهم
حبوب الرجلة	درهم
خرنوب	نصف درهم

اطبخها في قدر فيه ماء من ساقية الحقل أو ماء الرمان لحد درهم واحد، وأعط الحبوب للطفل مع شراب الورد وضع فوق المعدة لبيخة من النوع المفيد للقيء والاختلاف الذي يحدث في الأطفال.

خذ طحين الشعير، وعوسج، قشور الرمان من كل واحد كمية متساوية، امزجها مع ماء الورد وضعها فوق المعدة.

□ الباب السادس عشر — في الاختلاف (١٣) العارض للصبيان:

يعرض الاختلاف في الصبيان على الوجه الأكثر عند قرب نبات الأسنان كما ذكرنا سابقا، او من سبب البرد عند لفه بالقماط أو من سبب تعفن الحليب من الصفراء أو البلغم علامة كونه من الصفراء هو إذا كان لون براز الطفل ليمونيا ذا رائحة حادة ويخرج بدون توقف. علامة للبرد والبلغم ان يكون البراز أبيض وفيه فقاعات واذا لم يكن البلغم لزجا فان البراز يأتي سريعا.

العلاج: هو أن يسقى الطفل شراب الورد، او عصير التفاح أو الرمان مع النعناع وأن يسقى الطفل (Spodium) موضوع في ماء أو يأخذ خميرة ويحلل في ماء ويرشح، ويضاف سدس درهم (Spodium)، ثلث درهم عفص، ونصف درهم زعفران ويسقى للطفل.

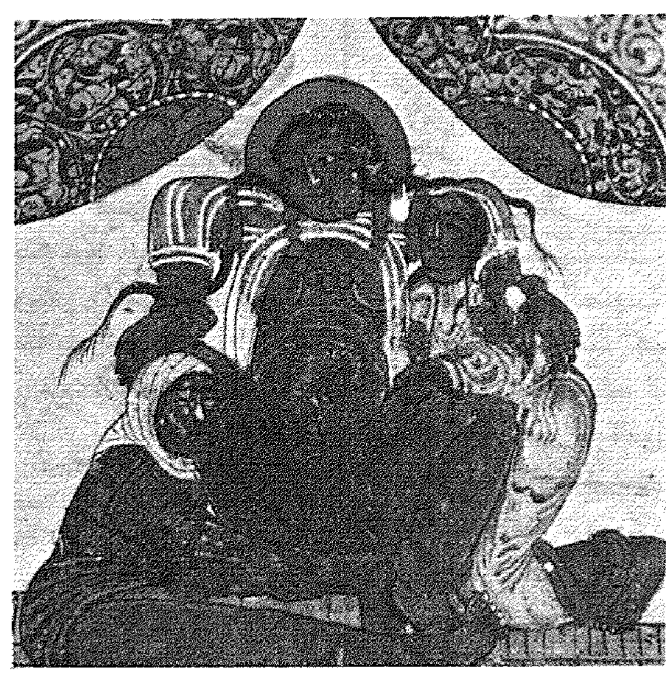
آخر: خذ بذور الحميض والبنفسج وامزجها مع البيض المشوي واسقها للطفل. أو أعط بعض العلاجات التالية: خذ

بزر الحماض	٤ دراهم
قشور بزر الزبيب المقلو بالبلوط	٤ دراهم
حب الخشخاش الأبيض	درهمين
اوراق زعفران	درهمين

دقها وأعط الطفل منها مع رب السفرجل أو شراب الورد.

اوضع على المعدة لبائخ قابضة، خذ:

خلاصة السماق ودبس مع طحين الشعير



□ إن أكثرية الوثائق المصورة التي تعكس لنا الحياة اليومية العباسية خلال القرن الثالث عشر تعود إلى رسوم منمنمات الرسام العربي «الواسطي» الذي ابدع في تصوير «مقامات الحريري» وهنا نموذج يمثل «عملية الولادة». (المقامة ٣٩).

او طحين الذرة مع ماء وضعها، إذا بطل الاستطلاق ذلك جيد وإلا فخذ:

طلح	درهم
اسبيداج	درهم
افيون	سبع دراهم

اعطها على شكل لبيخة وضعها فوق المعدة وفي الحال يتوقف الاستطلاق.

ومهما كان سبب الاختلاف سواء من البرد او البلغم أسق الطفل ثمن درهم عفص مع عصير التين أو ربع درهم لبان ذكر. لبيخة تعمل على الامساك وتفيد جيدا معدة الطفل: خذ زعفران، مر، شمع، امزجها مع بعضها مع شراب وضعها فوق المعدة.

□ الباب السابع عشر — في اعتقال الطبيعة[١٥] في الأطفال:

يعرض الاعتقال كثيرا للأطفال.

علاج ذلك: أن تعطي المرضعة قليلا من الخيار البري وفي اليوم التالي امرها ان ترضع الطفل. أو خذ أجرا ترابيا واعمل منه مراهم وضعه على الطفل. أو خذ روث فأر الحقل ودقه مع دهن كلية العنزة واعمل منه شياف وادخله. واذا حدث ميل للاعتقال في الشهر الثاني وكان مصحوبا بحمى ولم يستطع القيء، فخذ عنزروت ثلث درهم واسحقه مع حليب امه، أو احقنه بدهن البنفسج.

□ الباب الثامن عشر — في سعال الأطفال:

يعرض السعال للأطفال في الدرجة الأولى من اسنانهم لأنهم غير قادرين على سد الحنجرة واللسان لعدم نضوج الصدر والأعضاء. علاج ذلك بالمداواة والحمية. وان هؤلاء الأطفال لا يعالجون بالعلاجات القوية والحادة.

خذ بدلا من ذلك لوزة الأرض الحلوة، ذوبها مع الشمار وامزجها مع الحليب واسقها للطفل. اما إذا كان مع السعال بحة ويبوسة فخذ طحين السفرجل وانقعه في ماء ساخن ثم افصل القسم الجيلاتيني واغله على نار مع دهن اللوز واحفظه اذا كان مصحوبا مع حمى. امزج معه الرمان الحلو.

علاج الأطفال للسعال المصحوب بحمى، خذ:

الخشخاش الأبيض	نصف درهم
كثيراء بيضاء	نصف درهم
قثاء مقشور	درهم واحد

امزجه مع محلول خلاصة المواد.

علاج آخر لسعال الأطفال: خذ الزبيب اليابس منزوع العجو. اغله في مغرفة حديد واحرص عليه من أن يحترق، وحركه حتى يبرد ثم ذقه، وخذ منه جزءا ومن الفانيذ جزءا فاخلطهما واطعم منه الطفل صباحا ومساء بمقدار البندقة.

اخر السعال البرد: خذ المر، امزجه مع دهن اللوز واعطه للطفل. اذا كـان الصدر محتقنا بالسوائل خذ صمـغ الكثيراء والقثـاء بمقدار متسـاوي من كل واحـد واخلطه مـع البيض المشوي واستعمله. واذا حدث ضيق في التنفس خذ بزر الكتان دقه واعجنه مع العسل. أو خذ بزر القطن وامزجه مع البيض المشوي. إذا كان مع السعال اختلاف أعـط شراب الآس المغلي بـالحليب أو مغلي التمـر مع الغـذاء العـادي او الحليب وأعطه للطفل[٦٦].

□ الباب التاسع عشر ـــ في الحكة والسحج في الأطفال:

الحكة والسحج تعرض في الأطفال في منطقة الورك من حدادية البول. وقد يظهر على جسم الطفل احيانا قروح مختلفـة من رداءة اللبن نفسه. بعض هذه القروح تكون بيضاء وبعضها سوداء وتكون قسم منها مؤلمة جدا وقسم اخر غير مؤلمة اطلاقا. اذا كان النوع ا سود مصحوبا بحمى فان ذلك ينذر بالموت.

العلاج المعتاد هو أن تبدأ باصلاح اللبن، وان تضع الطفل في حوض ماء حار لاخراج الفضول من داخل الجسم الى سطح الجلد. واعـط الطفل ايضا علاجات تخرج الفضول من داخل الجسم الى سطح جلد الطفل مثل خلاصة التمر أو التين او ماء الفينول. وعندما تتأكد ان جميع الفضول خرجت، حمم الطفل يوميا بمحلول خلاصة ورق الورد والآس ومـا اشبه، ثم أخرج الطفل من الحمام وادهنه بدهن الورد.

واذا كـانت القروح يـابسة، حممـه بدهن البنفسج، واذا كانت رطبة من الافرازات المؤذية الكثيرة ضع عليها اسفيداج ممزوجا مع شمع ودهن الورد.

اذا كـان هنـاك حكـة والطفـل أكبـر من ٦ ـــ ٧ أشهـر حممه في محلول من خـلاصة البنفسـج اليابس والشعـير الصدفي والخطمية وحلبه، وفينول والقرع. ولكن لا تدهن الطفل بأي نوع من الدهان، واسق المرضعة عصير أو تمر الأملج أو الحمضيات وحذرها من كل ما هو حلو ومالح من الأكل وكذلك المأكولات التي تسخن الدم.

اذا حدث اصابات اخرى اثنـاء المعالجـة، رشهم ببودرة الذرة، السخام، الحلبة، الورد، الآس وطحين الشعير.

□ البـاب العشرون ـــ في الدود العـارض للأطفال:

ليس من الصواب اعطاء الأطفال علاجات قوية ليشربها ضد هذه الافات، ولكن يجب ان يختار من بينها تلك التي تستعمل خارجيا.

علاج لاخراج الدود من الأمعاء: خذ كمون، دقه مع مـرارة ثور ولطخ به السرة.

آخر: خذ ترمس درهم واحد، شيـح، توت الخليج، مقادير متساوية من كل واحد، وحللها مع صفراء الثور واعـط منها درهم يشربهـا يوميا، أو زيت الزيتون، أو دع الطفل يأكل اللوز الحلو.

□ الباب الحادي والعشرون ـــ في ورم السرة ونتوها العارض للصبيان:

يعرض ورم السرة في الصبيان من بكائهم بكثـرة وعصـرهم أو من السعـال الشـديـد، أو صدفة، وقد يحدث من حادثة أو عند ضربه عمدا.

علاجه: أن تأخذ ترمس وأن تعمل قطعا من الكتان وتحرقها وتمزجها مع الشراب وتلطخها على السرة وتضع قطعـة قماش عليهـا تحت الملابس. وإذا كانت من النوع التي تصغر أكـو السرة حول حلقتها[١٧] وليس في المكان الذي تصغر منه لسبب رقة الجلد. اذا لم ترغب في علاجات قوية استعمل العلاجـات التي سوف نذكرها في باب الفتق.

□ البـاب الثـاني والعشـرون ـــ في فتق الأطفال:

سبق وأن تكلمنا في الباب السابق عن الطرق التي يحدث فيها الفتق لا نحتاج لاعادة القول وسوف نتكلم عن العلاجات المهمة للأطفال.

لزقة تساعد على التئام الفتق في الأطفال: خذ خمسـة عشر مثقـال من الشب، مثقـالين من العفص، دقهم وامزجهم مع الشراب حتى يثخن وضعه على المكان وضع عليه اسفنجة مبلولة في

الخل والماء. عند سقوطها ابدلها بأخرى.

علاج آخر لطيف: ضع قليلا من الغراء على قماش وضعه على المكان واجعله يلتصق اطول ما يمكن، وإذا سقطت ابدلها بأخرى.

□ الباب الثالث والعشرون — في الحصى المتولد في مثانات الصبيان:

الحصى الذي يتولد في مثانة الأطفال يحدث حرقة وشدة الوجع وعسر البول ويجد الصبي حكة في احليله وغالبا يكون الاحليل قائما.

علاج ذلك: ان تحمم الصبي يوميا بماء حار وأن تعطيه العلاج التالي:

علاج مدرر ومفتت الحصى: خذ لبان ذكر، سعد مقدار متساوي من الاثنين واعجنه بالعسل واعـط منها بمقدار البندقة صباحا ومساء.

علاج أكيد ضد اوجاع الحصى وعسر البول: خذ سبع جوزات واسحقها بقشرهن وخذ باقة كرات غيرمغسول فدقها عليه واعصر ماءه في قدح زجاج وصفه واسقه للطفل كل صباح لسبعة ايـام. اذا سكن الألم ونـام، ادهن الاحليـل والخصي بـزيت زيتون قـديم أو بدهن الحبـة الغالية.

□ الباب الرابع والعشرون — في الشلل في الأطفال:

يحدث الشلل في الأطفال اما في طرف واحد أو في الجسم كله، وتمنع الطفل من المشي أو أي نوع من الحركة. ويحدث من سبب رطوبة لطيفة تشل العصب.

علاج ذلك: اذا لم تكن ولادية هو أن تسقي المرضعة شروب معمول من أدوية لاذعة واجعل غذائها يابسا، مثل اشياء مشوية وأن لا تتناول الحليب أو لحم ضأن أو سمك أو شراب وقبل أن يرضع الطفل آمرها ان تضع الطفل في حمام وأن تدهن مفاصله بدهن الخروع واستعمل يوميا المعاجين التالية:

معجون ركبة جالينوس للأطفـال المصابـين بتشنج في جميع الجسم، خذ حبق الماء، الورد، قرفة، مستكي، مسمار، ارتيكا، جـدوار، كبش قرنفل، من كل واحد مثقال، عود الصندل، مقدار درهم واحد، مسك نصف درهم.

اخلط هذه العلاجات مع البلسم وامزجها مع العسل أعـط درهما أو درهما ونصفا يوميا.

إذا كان التشنج في كل الجسم: ضع فوق الجزء الخلفي للعمود الفقري لزقة والتي يمكن عملها هكذا:

خـذ شمع درهم واحـد (   ) درهم واحد، زيت الزيتون قدر الحاجة وامزجها.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١) مقال: The first treatise on pediatrics, by Sammuel X. Radbill, American Journal of Disease of Children, November 1971, Vol. 122, No. 5.

(٢) بالنسبة للرازي جميع انواع الطفح يحدث نتيجة التخمر في الدم والذي ينتج عنه مواد غريبة تقذف للخارج خلال مسام الجلد في شكل طفح. نظريته هذه تطورت فيما بعد الى النظرية الحديثة حول الانزيمات والخمائر.

(٣) الرازي أول من استعمل الرصاص في الأمراض الجلدية واستمر استعماله حتى اليوم علما بأنه قد يؤدي احيانا للتسمم بالرصاص.

(٤) على الاغلب يقصد بذلك ما نسميه اليوم الارتشاح المصلي أو الدموي والذي يتقعر اثناء الكبس.

(٥) يكـون بذلك الرازي قـد ميز استسقـاء الدماغ الداخلي.

(٦) ملاحظة صائبة ودليل على تميزه بين الولادي منه والمكتسب.

(٧) ربما يشير بذلك للمصابين بالكساح.

(٨) جاء في الترجمـة الانكليزيـة ٤ دراهم والصحيح ما ذكرنا قياسا لما جاء في الكتب المماثلة وفي نفس المرض والوصفة.

(٩) على الأكثر يقصد بذلك التهاب الدماغ أو التهاب السحايا.

(١٠) اشارة صريحة لقيامه بتجربة العلاجـات وعدم التقيد بآراء السابقين.

(١١) الأسباب التي ذكرها صحيحة ومطابقة لما نقوله اليوم ولكن بتعابير مختلفة.

(١٢) مثال آخر على تجربة العلاج عند الرازي.

(١٣) الاختلاف، الاستطلاق = الاسهال.

(١٤) علاج حسن وصحيح.

(١٥) اعتقال الطبيعة = الامساك.

(١٦) تقسيمه لأنواع السعال ووصف العلاجات المختلفة لكل نوع تقسيم جيد.

(١٧) مع كون هذه الطريقة اهملت علميا الا انها لا زالت مستعملة في بعض قطاع العالم.

اغتيال ملك

☐ الملك بعد أن صرع.

وغوسلافيا

د. رياض العالي



٩ تشرين الأول ١٩٣٦ الساعة الرابعة والربع، في مرسيليا!.. كان موكب ملك يوغوسلافيا، اسكندر الأول، يتقدم على الكانوبيير وكان في سيارة ديلاج سوداء فخمة، ينكشف غطاء قسمها الخلفي، وجلس فيه، الى اليمين الملك، وإلى شماله لوي بارتو وزير الخارجية، ويقابله، على مقعد معكوس، الجنرال جورج. وعلى جانبي الشارع، حشود ضخمة، ترقص وتهتف: «عاش الملك».

فجأة، انبثق من الرصيف رجل يهتف «عاش الملك!»، واندفع نحو العربة. لم يفكر احد في ايقافه. كان على كل حال، قد صعد درجة السيارة، واستل مسدساً، وراح يطلق على الملك، الذي انزلق سريعاً من الحياة الى الموت.

لماذا اريد قتل ملك يوغوسلافيا؟ ولماذا قتل بهذه السهولة؟ تلك هي الأسئلة التي طرحها الكثيرون، عشية حادث الاغتيال!

الحكاية قديمة جدا! إنهم سلاف الجنوب، الذين يشكلون اليوم جمهورية يوغسلافيا! في يوغسلافيا شعوب قلما اتفقت في ما بينها. من هذه الشعوب: الصرب، والكروات والسلوفين. ولم يكن يؤلف بينهم، في القرن التاسع عشر، الا الرغبة الجامحة في التخلص من السادة الحكام، سواء كانوا أتراكا أو نمساويين.

عام ١٨٠٤، تزعم ثورة الصرب الوطنية، رجل يدعى جورج كاراجورجيفيتش. وقد اغتيل بعد أعوام من ذاك. وقد أمر باغتياله ميلوش اوبرينوفيتش الذي كان يدعي امارة الصرب وراثياً. ومنذ ذلك الحين والعائلتان في حرب مستمرة، مما أتاح لعدة انقلابات واغتيالات.

عام ١٨٨٩ اعلن اسكندر أوبرنوفيتش الأول ملكا على صربيا. عام ١٩٠٠ تزوج دراغا الجميلة، وهي ابنة مهندس تشيكي. وكان الصرب يكرهون الاثنين. عام ١٩٠٣ اغتيلا في قصرهما في بلغراد. وبعد أربعة ايام اعلن بيير كاراجورجيفيتش ملكاً.

في عهد بيير الأول ملك صربيا، اغتيل الأرشيدوق فرنسوا فرديناند في سراجيفو. فوجدت صربيا نفسها تواجه عدوين هما النمسا وهنغاريا. واندلعت الحرب العالمية الأولى وانفجر الخلاف بين سلاف الجنوب. وقاتل الصرب الى جانب فرنسا والانكليز والروس، بينما قاتل الكروات والسلوفين الى جانب النمسا. مع ذلك كان الجميع يطمحون الى الاستقلال، ولكن بطرق



□ الكولونيل بيولي على فرسه يضرب القاتل فلادا بسيفه. بعد ان صرع القاتل الملك ووزير الخارجية الفرنسية بارتو والجنرال جورج.

مختلفة، فالصرب يحاولون الحفاظ على شخصيتهم، بينما الطرفان الآخران يريدان ضم صربيا اليهما.

حين أعلنت الهدنة، عام ١٩١٨، صفق العالم لولادة المملكة الجديدة المكونة من الصرب والكروات والسلوفين، تحت اسم يوغسلافيا. وتوج عليها بيير الأول ملك صربيا. ولكن المرض حال دون استطاعة هذا الملك الحكم، فتولى ابنه الكسندر كل المسؤوليات، وكان يتمتع بمحبة كبيرة بين الفرنسيين، منذ الحرب.

لقد نشأت مملكة فدرالية، ولكن الكسندر لم يكن لينسى انه صربي. كان الكروات يشعرون بهذا الواقع، لذلك لم تنقطع انتفاضاتهم، توكيدا لشخصيتهم المستقلة. وقد زاد من حدة موقفهم ضد الملك الأمر الذي صدر عنه باعدام بعض المتمردين في زغرب. فرد الكروات بمحاولات اغتيال وانتفاضات عنيفة. فتفاقم الاضطهاد، بالمقابل، وجرى الدم غزيرا. فشعرت بلغراد ان العنف لا يجر الا العنف، واطلقت سراح المساجين. ولكن كرواتيا طالبت باستقلال ذاتي، ضمن نطاق الفدرالية اليوغسلافية.

توفي بيير الأول، وأعلن الكسندر الأول ملكا. وسارت يوغسلافيا على طريق البرلمانية، وبدا ان العقبات زالت من مجال تقدمها، حتى كان يوم ٢٨ حزيران ١٩٢٨، حين أطلق النائب الصربي راشيشتش، الرصاص على خمسة نواب كروات، بينهم القائد راديتش، فأرداهم قتلى.

ترك النواب الكروات بلغراد الى غير رجعة، احتجاجا على مقتل رفاقهم، وتوكيدا على انه لا لقاء بينهم وبين الصرب.

هل قام راشيشتش بهذا الاغتيال الجماعي، في قلب البرلمان، من تلقاء ذاته؟ يقال ان الملك الكسندر كان وراء الحادث، أو على الأقل بموافقته. لأنه كان يبغي التوحيد التام لا الفدرالية، ولأنه كان يكره الديمقراطية — في ما يقال — والواقع انه اتخذ حادث البرلمان حجة ليلغي الدستور ويحل البرلمان، ويحكم حكما مطلقا.

الارهاب

كان على الكروات الخضوع التام، عن رضى او قهرا، وقد اعتقل قادتهم، ومنعت صحفهم، وبدا انه قضي على حلم الاستقلال الذاتي. وحرموا حق المطالبة بحقوقهم، أو الكتابة الى السلطات، أو الحوار حولها. ولم يجدوا امامهم الا الارهاب. وهم يعرفون معنى ذلك، فقد جربوه في تأسيس عدة جمعيات ارهابية، ابرزها (O.R.I.M.)، والكف السوداء. وكان زعيم (O.R.I.M.) ميخايلوف، الذي عرف ببطشه وجرأته. وقد أعيد الاتصال به لتنظيم الصفوف، بواسطة آنتي بافليتش.

كان بافليتش محامياً برجوازياً متزوجاً وله ثلاثة اطفال. وكان يشعر انه كرواتي فحسب، لا يشده الى يوغسلافيا شيء. انتخب نائباً عام ١٩٢٥، وعرف بميله الى الاستقلال الذاتي. ولكنه بعد مجزرة البرلمان، غدا يدعو الى الاستقلال التام، فحسب. ثم انصرف الى قيادة المقاومة. وقد اضطر الى الهرب الى فيينا، وحكم عليه بالاعدام غيابيا. وانشأ هناك «اوستاشا» (الثورة) وراح ينظم الصفوف في هدوء واتقان، وجعل على رأسها قائدا اعلى، وكان هو القائد. وكان على الثوار ان يطيعوه طاعة عمياء، وأن يقسموا يمين الولاء المطلق في الحياة والموت.

التقى بافليتش ميخايلوف في صوفيا. عرض ميخايلوف عليه المال والسلاح، والمدربين. وقد بدأت (O.R.I.M.) تدرب الثوار على القتل. وقدم لبافليتش مرافقاً، هو سائقه فلادا جورجيف، المشهور بعنفه وشراسته وقدرته على القتل دون رحمة.

طالب الملك بطرد بافليتش من النمسا، فعبر الحدود الى ايطاليا، والتقى الكونت شيانو، وزير الدولة للدعاية، وصهر موسوليني. فرحب به ترحيبا كبيرا، ذلك ان العلاقات بين ايطاليا ويوغوسلافيا كانت سيئة جدا. وقد قدرت السلطات الايطالية ان قيام كرواتيا مستقلة، ستضعف حكم الكسندر.

في تلك الفترة هاجر اكثر من مليون ونصف المليون من الكروات الى النمسا وهنغاريا، وأميركا اللاتينية، وأميركا الشمالية. وتدفق المال على بافليتش من المتبرعين. وبدأ رفاقه يتدربون في ايطاليا وهنغاريا، على هدف، هو عبارة عن دمية تمثل الكسندر الأول.

وخلال عامي ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ انفجرت قنابل في كل انحاء يوغسلافيا. وعام ١٩٣٣ اجتاز فصيل من الثوار حدود يوغسلافيا لاثارة الجمهور، ولكن الجيش صدهم الى ما وراء الحدود.

المحظية الغيورة

١٩٣٣، تسلم هتلر السلطات في المانيا، ولم يكن يخفي اهدافه. كان يود ان يلغي معاهدة فرساي. وبالتالي فان كل دولة انشئت بموجب تلك المعاهدة، لا يعترف هتلر بقيامها. ويوغسلافيا احدى تلك الدول. وقد استقبل بافليتش في المانيا استقبالا حافلا، ورحب به روزنبرغ فيلسوف النازية، وسهل له فتح مكتب لحركة «الثورة» الكرواتية. وأصبح من السهل على بافليتش ان ينشىء حكومة منفى، ووكالة صحافة، وصحيفتين، واحدة بالكرواتية، وأخرى بالالمانية. وأعلن في الصحيفتين ان الكسندر الأول محكوم بالاعدام. وحدد موعد الاعدام، يوم ١١ أيلول ١٩٣٣، ومكان الاعدام في زغرب، ومن سيقوم به، وقد درب السائق فلادا اثنين للقيام بالاعدام، وذلك في أحد معسكرات «الثورة» في ايطاليا. وكان رئيس المعسكر شخص يدعى برسيك، وكانت له محظية، كان يخدعها، فحملتها الغيرة على افشاء السر. وما كاد الثائران يصلان الى زغرب حتى اعتقلا، فاضطرا تحت التعذيب الى الافصاح عن كل ما يحدث، وعن كل ما يعرفانه عن تنظيم بافليتش. وقد أعدما شنقا. ووجهت يوغسلافيا احتجاجا شديدا الى روما وبرلين. فأقسم موسوليني انه سيمنع عمل جماعة بافليتش، الذي غادر ايطاليا الى المانيا، وأدرك ان عليه ان يبدأ من الصفر.

تغير جديد

حدث تغير في الخطط، فقد تسلم أمر اغتيال الكسندر، أوجين كفاترنيك ـ المدعو ديو ـ حفيد أوجين الأول، ملك كرواتيا في القرن التاسع عشر. وقد رأى أوجين ان اغتيال اسكندر في يوغسلافيا

شبه مستحيل، لذلك لا بد من الاتجاه الى موضع آخر.

في هذا الوقت اعلن عن رحلة لالكسندر الى فرنسا. فلماذا لا يضرب الثوار ضربتهم هناك؟

اختير للاغتيال السائق فلادا، الذي عرف باسم جيورجيف، ولكن اسمه الحقيقي فلاديمير ديمتري كريم، وقد ولد في ١٨ تشرين الأول ١٨٩٦ في كامينيكا، في مقدونيا.

استدعاه اوجين، وأطلعه على رغبته في اغتيال الكسندر في فرنسا، ووظف معه ثلاثة مساعدين، اختارهم مساعد بافليتش من معسكر ناجي كانيتزا، وكانوا معروفين بتجارب سابقة في الاغتيال والقاء المتفجرات. وأمرهم ان يسافروا الى زوريخ حيث سيلقاهم رئيسه لمهمة صعبة! ولم يسأل أي منهم عن المهمة، بل تقبلوها بكل طاعة. وسافروا عبر ميونيخ الى زوريخ.

اللقاء في زوريخ

على رصيف زوريخ، يوم ٢٨ أيلول ١٩٣٤، كان ثمة رجل يراوح خلال مائة متر، وينتظر، وقد ارتدى معطفا طويلا، واعتمر بقبعة رخوة رمادية. وكان اوجين كفاترنيك نفسه. قريبا منه، كان يقف فلادا السائق.

ولكن، لماذا قرر الكسندر الأول زيارة فرنسا؟ تقررت الزيادة اثر اقتراح وزير الخارجية الفرنسية لوي بارتو، الذي كان هاجس الخطر الألماني يقلقه، لذلك حاول توثيق الصلات بكل القوى المعادية لالمانيا. وشاء أن يقيم حلفا للدول المحيطة بألمانيا من كل جهاتها. لهذا أيدت فرنسا ترشيح الاتحاد السوفياتي لعصبة الأمم. ورغب بارتو في التقارب بين السوفيات ويوغسلافيا. ولكن الكسندر كان يكره السوفيات لأنهم اعدموا صهره رومانوف، كما يكره الايطاليين. غير ان بارتو نصحه ان يتجاوز احقاده في سبيل المصلحة المشتركة. وكان من شأن زيارته باريس ان تضع النقاط على الحروف.

نزل بوسبيشيل وريتش وكرايل، الثوار الثلاثة، على رصيف زوريخ، فتقدم منهم اوجين وفلادا وسلما عليهم. ومضى الجميع الى لوزان ونزلوا في فندق بالمبي، وسلم أوجين كل واحد جواز سفر جديدا، تشيكيا.

قرر اوجين ان يسافر فلادا وكرايلي الى فرنسا بالقطار، بينما يجتاز الآخران بحيرة ليمان الى ايفيان، يرافقهما اوجين.

التقى الجميع في بلغارد، وانطلقوا منها الى فونتينبلو. وفي ممر القطار اعلنهم اوجين الهدف الحقيقي للرحلة.

سافر الجميع الى باريس، وحلوا في فنادق مختلفة، وذلك في ٣٠ أيلول. وكان الملك سيصل الى مرسيليا في التاسع من تشرين الأول.

اما الأسلحة فقد ابلغهم اوجين انه سيلقاهم في فندق سانت — آن، ليسلمهم اياها. اما من سينقلهما فزوجان هما جان وماريا فوندراسك. كما ابلغهم ان فلادا وكرايلي من سيقومان بالاغتيال، بينما يتولى الآخران الحراسة، او الاغتيال عندما يفشل الأولان. وحتى لو نجا الملك في مرسيليا فان على روسبيشيل وريتش اغتياله في باريس.

مساء السادس من تشرين الأول، سافر كفاترنيك، وفالدا، وكرايلي بالقطار الى افينيون. ومع فجر السابع سلكوا بالسيارة طريق اكس ان بروفانس. ونزلوا في فندق مودرن.

الثامن من تشرين الأول ركبوا القطار الى مرسيليا. وكان كفاترنيك قد حصل على مسار موكب الملك في مرسيليا من احدى الصحف. لذلك عمد منذ وصوله الى درس الأماكن على الطبيعة. وحدد مكان الانطلاق قرب البورصة، في شارع كانبير.

المساء، ترك كفاترنيك مرسيليا الى اكس آن بروفانس بعد ان وجه الى فالدا وكرايلي الكلمات الحاسمة التالية: «غدا تقضيان على الكسندر. غدا تتحرر كرواتيا».

الساعة ٢٢ ترك اوجين كفاترنيك اكس الى افينيون، وركب القطار الى باريس، ولكنه نزل من القطار، وركب قطارا آخر الى سويسرا.

ماذا فعل الملك

السادس من تشرين الأول، كان الملك على وشك ركوب الطراد «دوبروفنيك»، أجمل قطع البحرية اليوغسلافية. وكانت الى جانبه، زوجته الجميلة الفتية، ولكنها كانت خائفة، فسألته ان يصحبها الى دير قريب لتطلعه على هواجسها،

◻ فلادا قاتل الملك.



فقد كانت تشعر بهاجس قتله كلما سافر الى مكان. ولما كانت تعاني من اضطرابات في المرارة، وكان دوار البحر يثير تلك الاضطرابات، فقد فضلت السفر بالقطار، على ان يلتقيا في ديجون.

وبعد ان غادر الملك المرفأ تلقى برقية من زوجته ترجوه فيها ان يكون حذراً. فأجاب: «مهنتنا ان نواجه المؤامرات».

حين ظهر الطراد في المياه الفرنسية، استقبل على ظهر الطراد الملحق الفرنسي السيد كنوبل، الذي كان شديد التفاؤل، وقد خاطب الملك بقوله: «ستجد في فرنسا اربعين مليون صديق». ورد الملك: «وربما بعض اعدائي الأكثر شراسة».

في مرفأ بونيفاسيو تقدمت البحرية الفرنسية لاستقبال الطراد. وكان مشهدا بديعا تمتع فيه كل من كانوا على أرصفة المرفأ.

كان وزير الخارجية بارتو يتساءل: أيجب عليه ان يسافر الى مرسيليا لاستقبال الملك، ما دام وزير البحرية فرانسوا بيتري سيكون هناك؟

فجأة، تناول بارتو سماعة الهاتف واتصل ببيتري وكلفه ان ينوب عن الحكومة في استقبال

الملك. وقبل في البداية. ولكنه بعد قليل اتصل ببارتو وقال له: «علي ان استقبل الملك في البحر، اما على البر فيجب عليك انت ان تستقبله».

وهكذا حل بيتري وبارتو والجنرال جورج، صباح التاسع من تشرين الأول الساعة العاشرة وعشر دقائق. وكان مدير الأمن العام قد سبقهم الى مرسيليا مساء الثامن من الشهر نفسه. اما الجنرال بيتوار فكان متشائما. كان كولونيلا حين جرى الاغتيال، وكان ملحقا عسكريا في يوغسلافيا، وقد أغرق وزارة الحربية الفرنسية ببرقيات يؤكد فيها ان ثمة مؤامرة اغتيال تحاك ضد الملك، وأنها ستنفذ في فرنسا. ولكن احدا لم يكترث.

ابعدت السلطات الفرنسية اكثر من مائتي اجنبي عن مرسيليا. ومنح المفتش العام سيسترون الصلاحيات الكاملة لحماية الملك. وقد استعرض صور عدد ممن اشتركوا في اغتيالات سابقة، من الكرواتيين، ومن بينهم فلادا كريم.

وكان مسار الملك قد حدد. يصل حوالي الساعة السادسة عشرة. ينزل من الطراد، يركب سيارة، يتجه ليضع باقة ورد على نصب جنود جيش الشرق الفرنسي. ثم يحضر حفلة كوكتيل في المحافظة، ثم يركب القطار الى باريس.

وقد وضع سيسترون رجل امن كل مترين، في مواجهة الجمهور. ولكن تبين ان المسافة كانت من خمسة الى ستة امتار. كما وضع عدد كبير من الفرسان على طول طريق الموكب. كما عين مرافقان للملك، هما الكولونيل بيولي والكومندان فيغورو.

كان فلادا وكرايلي قد استيقظا باكرا. الواحدة صعدا الى غرفتهما وأخذا سلاحهما، ومن جملته بعض القنابل. وقبل مغادرة الفندق، قالا لمديرته: «نرجو ان تعدي لنا عشاء ممتازاً، فسنعود جائعين».

وصول الملك

وصل الطراد دوبريفنيك. ونزل الملك في ثياب اميرال. وكان قد رفض لبس درع تحت ثيابه يقي من الرصاص.

كان السفير اليوغسلافي قد صعد الى الطراد وقابل الملك، وقال له: «سيدي لا تنزل، لدي معلومات وثيقة ان مؤامرة قد أعدت لاغتيالك». ولكن الملك قال: إن الجماهير في مرسيليا تنتظرني، وبارتو ينتظرني. والكاراجورجيفيتش لا يتراجع.

في هذا الوقت كانت الجماهير تحتشد على الأرصفة حتى تغص بها، وكان فلادا وكرايلي يتجهان نحو المكان الذي حدده لهما أوجين.

وكان بارتو ينتظر على رصيف البلجيك. وجورج ميجا، المصور من قبل وكالة فوكس موفيتون يتخذ مكانه خلف اغصان احدى الأشجار.

اذن، نزل الملك يصحبه وزير خارجيته جيفتش، ويتبعه بيتري. فتقدم بارتو، والأميرال بـرتلو، والجنرال جورج الذي سيرافقه في الزيارة.

همس الملك في اذن وزير خارجيته، وهو يتقدم من السيارة: «السيارة مكشوفة جدا. مما يسهل الأمر على من يريد اغتيالي».

ركب السيارة، وجلس بارتو عن شماله وجلس في مواجهته الجنرال جورج.

تأخرت السيارة اكثر من عشر دقائق عن الانطلاق. ثم تحركت لتنطلق حسب المسار المرسوم، وكانت سيارة برتوان وسيسترون تمضي امامها. بينما يتبعها فصيل من الفرسان. كان الجمهور يهتف بحماسة منقطعة النظير، والمصور ميجا يلتقط الصور، وقد بلغت السيارة مكان البورصة الساعة السادسة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة.

اضطرت السيارة ان تستدير قليلاً لتحيد عن كوخ صغير، اقيم هناك للمراقبة. مما جعلها تقترب كثيرا من الجمهور.

في هذه اللحظة خرج رجل عاري الرأس، اصلع، من بين الجمهور، ومر بسرعة، نحو السيارة وهو يهتف «يحيا الملك»، وصعد «رفراف» السيارة، وأطلق من مسدس اوتوماتيكي، على الملك وبارتو والجنرال جورج. وفي اللحظة ذاتها كان سيف بيولي يضرب الرجل (وكان فلادا) فيخر صريعا. ولكن الشرطة اخذت تطلق في كل اتجاه، فذهب ضحية ذلك عدد غير قليل من الجرحى والقتلى. اما كرايلي الذي كان ينتظر ليطلق قنابله اذا اخفق فلادا، فقد رأى الملك ميتا، واستطاع الهرب خلال الجمهور، حاملا معه قنابله. ■

موقعة العقاب أو هضاب تولوسا

بداية النهاية لدولة الإسلام في الأندلس

محمد عبد العزيز عثمان



بعد أن فتح العرب المسلمون شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) سنة ٩٢هـ/ ٧١١م وتوغلوا في داخلها، تراجعت أمام جيوشهم فلول من جيوش الأسبان المندحرة، لجأت هذه الفلول القليلة إلى الجبال الشمالية المنيعة الوعرة وتحصنت بها، ولم يعر العرب المسلمون هذه الفلول في البداية اهتماما يذكر، مما جعلها تأخذ بأسباب القوة أولا بأول، حتى كونت لها دولا وممالك منها (مملكة قشتالة ومملكة ليون، ومملكة نافار «نباره» ومملكة (راغون).

لم تكن هذه الممالك تستطيع التحرش بالعرب المسلمين في الأندلس (اسبانيا الجنوبية الاسلامية) أيام قوتهم، لا بل أن الدولة الأموية في قرطبة كثيرا ما كانت تتدخل في الشؤون الداخلية لهذه الممالك، التي كان بعضها يدفع الأموال لدولة العرب المسلمين. لكن الحال تغيرت بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة وضعف دولة أبناء المنصور بن أبي عامر وقيام دويلات الطوائف في المدن الأندلسية (٤٠٠ ــ ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩ ــ ١٠٩١م) حيث بدأت الممالك الاسبانية ما يعرف في التاريخ الأندلسي باسم حركة الاسترداد.

سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٨٥ بداية حركة الاسترداد

كان سقوط مدينة طليطلة التي كانت عاصمة قديمة للقوط قبل الفتح العربي الاسلامي على يد الفونسو السادس ملك مملكة قشتاله الاسبانية بداية حركة الاسترداد، لا بل كانت بداية النهاية لدولة الاسلام في الأندلس، لما لهذه المدينة من أهمية استراتيجية، فكان سقوطها سنة ٤٧٨/هـ واتخاذها عاصمة لمملكة قشتالة عامل دفع قوي للمالك الشمالية في مواصلة الحرب ضد اسبانيا الجنوبية، حيث أخذ الفونسو السادس يهدد مدينة أشبيلية عاصمة المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف وأكثرهم قوة، ولما لم يكن المعتمد يمتلك المقدرة على مجابهة قوة الفونسو استنجد هو وبقية ملوك الطوائف بزعيم المرابطين في المغرب العربي يوسف بن تاشفين، الذي عبر على رأس جيش ضخم إلى الأندلس تمكن بواسطته من إيقاف الخطر المهدد للأندلس وذلك بعد الانتصار الرائع الذي أحرزته القوات الاسلامية في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩/ ١٠٨٦م. ثم خلف الموحدون المرابطين في الدفاع عن الأندلس ضد تحديات الممالك الشمالية التي أخذت تنحى في صراعها مع العرب المسلمين منحى جديدا ألا وهو اضفاء الطابع الديني على هذا الصراع مستعينة بالأمم الاوروبية، مستغلة العاطفة الدينية، فبدأ الصراع يأخذ طابع حروب صليبية مقدسة، لا تقل في نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة في الشرق.

أظهر الموحدون صلابة عنيفة أمام تحديات الممالك الشمالية وتمكنوا من إنزال هزيمة بالفونسو الثامن ملك قشتالة وحليفيه ملكي مملكة ليون ومملكة نبارة (نافار) في موقعة الأرك سنة ٥٩١/ ١١٩٥ التي خاضها خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب، والتي زادت من قوة معنوية العرب المسلمين في الأندلس وأخرت محاولات الأسبان في الاستمرار بتنفيذ خطتهم إلى حين.

الفونسو الثامن يستعد لمعركة قادمة

لم يكن انتصار الموحدين في موقعة الأرك حاسما إذ لم يستفد العرب من هذا الانتصار في مواصلة الضغط على الممالك الأسبانية، بل اكتفى الخليفة الموحدي بهذا النصر ورجع إلى مقر ملكه في مراكش بعد أن عقد هدنة مع ملك قشتالة أمدها عشر سنوات، فكانت هذه الهدنة بالنسبة لملك قشتالة بمثابة الاستعداد للجولة القادمة، لذلك عمل على تكوين حلف قوي يضم الممالك الاسبانية الشمالية بالاضافة إلى المساعدات التي طلبها من الدول الاوروبية المجاورة، كما طلب مساعدة البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢٢٦م).

وما أن شعر الفونسو الثامن باستعادة قوته حتى بدأ يتحرش بحدود الدولة الاسلامية قبل انتهاء أجل الهدنة، ففي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٩م سار على رأس جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى حدود اسبانيا الاسلامية وعمل على نسف الحقول ونهب القرى، وفي العام التالي سار مرة أخرى الى الأندلس وخرَّب أراضي جيان وبياسة ووصل إلى مشارف مرسيه ثم عاد إلى طليطله مثقلا بالغنائم.

استعداد محمد الناصر أمير الموحدين وفتح قلعة شلبطره

لدرء الخطر القادم من الشمال توجه أهل الأندلس من جديد بأنظارهم إلى الموحدين الذين يحكمون الأندلس من أجل نجدتهم، فتأهب محمد الناصر لذلك وأعلن الجهاد مؤملاً أن يستطيع بواسطة ما يتجمع لديه من جيش ضخم من تحقيق انتصار ساحق على الممالك الاسبانية، بحيث تقدر الرواية العربية الجيش الذي تجمع تحت إمرته بعد اعلانه الجهاد وعبوره إلى الأندلس سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م بأكثر من ستمائة الف مقاتل، في حين تقدر الروايات الحديثة الجيش العربي الاسلامي ما بين (٥٠٠ الف إلى ٢٠٠ الف مقاتل بين راجل وفارس.

توجه محمد الناصر بعد عبوره إلى الأندلس إلى مدينة أشبيلية حيث أقام فيها إلى بداية سنة ٦٠٨هـ ومن ثم اتجه صوب قلعة شلبتره أو شلبطره (معناها الأرض البيضاء) جنوب قلعة رباح فافتتحها بعد حصار شديد ثم عاد إلى أشبيليه حيث حل فصل الشتاء المطير.

وهكذا كان فتح هذه القلعة بمثابة ناقوس الخطر الذي نبه الفونسو الثامن فاندفع يعد العدة لملاقاة هذه الجيوش الضخمة مستعينا بحلفائه.يصف المراكشي التجمع الذي تكون تحت إمرة الفونسو الثامن بقوله: «وخرج الأدفنش... إلى قاصية بلاد الروم مستنفرا من إجابه من غطاء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن المأن، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية».

اتجهت هذه الجموع الكبيرة بقيادة الفونسو الثامن إلى قلعة رباح التي دخلوها سلما بعد حصار طويل واضطر قائدها وهو أبو الحجاج يوسف بن قاوس إلى تسليم القلعة والانسحاب هو وجنده من دون قتال. وما أن بلغ محمد الناصر خبر سقوط قلعة رباح حتى بدأ بتعبئة جيشه وغادر مدينة جيان باتجاه الضفه اليمنى لنهر الوادي الكبير نحو مدينة بياسه، وقد تمكنت مجموعة جيش المسلمين من احتلال الممرات الجبلية المؤدية إلى مدينتي أبدة وبياسه، كما استطاعوا احتلال الممر المؤدي إلى سهل كولوسا، حيث تجمعت القوات الاسلامية الرئيسية.

تشكيل الجيشين قبل المعركة

قسم محمد الناصر جيشه إلى خمس فرق أو جيوش بشكل أصح. فرقة أمامية تضم عددا ضخما من الجنود المتطوعة. أما القلب فقد ضم خيرة الجند من القوات الاحتياطية من الجند المغاربة والقوات الموحدية النظامية. وكانت الميمنة تضم القوات الأندلسية والميسرة تضم قوات القبائل البربرية، وفي وسط الجيش الاسلامي ضرب محمد الناصر قبته الحمراء يحيط بها حرسه الخاص من المشاة والفرسان والعبيد الشاهرين حرابهم، ومدت من حول هذا السور البشري نصف دائرة من السلاسل الحديدية، حتى أصبح محمد الناصر وكأنه يجلس في حصن منيع دون اختراقه الموت.

أما جيوش الفونسو الثامن المتحالفة فقد قسمت بشكل مشابه حيث كان القلب يحتله ملك

قشتالة الذي عسكر بجيشه في مكان مرتفع يهيمن فيه على حركة الجيش كلها. أما الجناح الأيمن فقد عسكر فيه سانشو ملك ناڤار وقواته، وأما الجناح الأيسر فقد عسكرت فيه مجموعة من القوات. كما وزعت مجموعة من الجند على مجموعة التلال والروابي المحيطة بسهل تولوسا.

نشوب المعركة الحاسمة

وقعت المعركة الحاسمة التي تعرف في المراجع الغربية باسم هضاب تولوسا (Navas-di Tolosa) وتذكرها المصادر العربية باسم العقاب او حصن العقبان في منتصف صفر من سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ تموز ١٢١٢م وابتدأت المعركة بهجوم الفرق الأمامية من المتطوعة المسلمين باتجاه قلب جيش العدو، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق صفوف الفرسان القشتاليين الذين تقدموا باتجاه قلب الجيش الاسلامي، إلا أنهم لقوا مقاومة عنيفة اضطرتهم إلى التراجع والفرار أمام الفرسان المسلمين، لما رأى ملك قشتالة من موقعه المرتفع فوق التلال تطور المعركة على هذا النحو السيء أراد أن يقتحم الميدان بنفسه على رأس صفوة من جنده لينقذ الموقف وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة «أن الساعة قد حانت لتلقى الموت المجيد» تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد. ولكن اعتراض المطران والقوامس، اضطرته إلى الاكتفاء بارسال قوات من أشجع الجنود لدعم الجيش المرتد وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة يثيرون الحماسة في نفوس المقاتلين وانتهزت جماعات من الفرسان الجبليين فرصة وصول الامدادات الجديدة التي أعطتهم معنوية جديدة فواصلوا صمودهم وركزوا هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي احتشدت وراءها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين السلاح بعد أن تحطمت قوة الجيش الاسلامي في كل من الميمنة والميسرة وهرب من المعركة الجند الأندلسيون ولم يثبت في المعركة غير جند الموحدين النظاميين وحرس محمد الناصر الخاص من العبيد والمغاربة، الذين ثبتوا من وراء السلاسل الحديدية بشجاعة فائقة، لكن المهاجمين ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية حيث تمكن بعضهم من اقتحام الدائرة وتحطيمها، لكن الأمير محمد الناصر استمر يذكي الحماسة في نفوس جنده حتى آخر لحظة على الرغم من علمه أن جناحي جيشه قد حطما. يقول المراكشي أن محمد الناصر «ثبت في ذلك اليوم ثباتا لم يُرَ لملك قبله ولولا ثباته هذا لاستؤصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرا». لكنه قرر أخيرا الانسحاب من ميدان الحرب، فاتجه مع مجموعة من أتباعه صوب مدينة بياسة، ولكنه لم يقف بها وتركها تواجه مصيرها على أيدي قوات الممالك الاسبانية التي استمرت في ملاحقة الفارين من أرض المعركة، فكان عدد القتلى من الفارين أكثر بكثير من القتلى في ساحة المعركة، ذلك أن الملوك الأسبان أنذروا بالموت كل جندي أسباني يأسر مسلما، فأعمل الجند القتل بالمسلمين، الذين اذهلتهم الصدمة ولاذوا بالفرار وهكذا نرى مدى الانكسار النفسي الذي أصيب به الجيش العربي الاسلامي في هذه المعركة، فحاقت عليهم الهزيمة والموت الذي كانوا يفرون منه، على خلاف ما كانت عليه الحال في حروبهم السابقة التي شهدت اندفاعهم واستماتتهم في تحقيق أهدافهم.

نتائج المعركة

واصلت الجيوش المتحالفة تقدمها بعد انتصارها في معركة العقاب وسيطرت على مدينتي بياسة وأبده وعاث الجند في المدينتين قتلا ونهبا وتخريبا. تؤكد كل من الروايات العربية والاوروبية على أن عدد القتلى من المسلمين كان كبيرا وصل إلى حدود (٨٥ ــ إلى ١٠٠ ألف مقاتل) حسب تقدير الروايات الاوروبية التي تقلل من خسائر الجيوش الاسبانية بقدر لا يمكن تصديقه عن معركة ضارية مثل معركة العقاب.

نستطيع أن نرجع أسباب هذه الهزيمة التي أجمع المؤرخون المسلمون على أنها كانت بداية النهاية لدول الاسلام في الأندلس إلى عوامل عدة منها:

١ ــ ما أصاب العرب المسلمين من تمزق وانقسامات مما أعطى أعداءهم الفرصة على الأخذ بأسباب القوة والقيام بحرب الاسترداد إذ أخذت المدن الأندلسية الاسلامية تتساقط الواحدة بعد الأخرى بحيث لم يبق للعرب

المسلمين في اسبانيا عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادي سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية، والتي مـا لبثت هـي الأخـرى أن سقـطت سـنـة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبهذا زالت دولة الاسلام في الأندلس نهائيا.

٢ ـ ان الأمير محمد الناصر كانت تنقصه الخبرة والكفاية لمجابهة الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها الأندلس، وبخاصة فيما يتعلق باختياره لقادته ومستشاريه، فكثيرا ما كان يعهد بأهم شؤون دولته إلى رجال عاجزين يوليهم كل ثقته مثل وزيره ابن جامع الذي كان يشك في ولائه للموحدين. كما أنه لم يتبع الخطة التي كان يسير عليها والده في الدفاع عن الأندلس، والتي تعتمد على خطين رئيسيين الخط الأول تقوية الجيش وبناء القلاع والحصون في مناطق الحدود وشحنها بالامدادات من الجند والمؤن. أما الخط الثاني فهو استغلال الخلافات والمنازعات القائمة بين الممالك الاسلامية والتوسل بمحالفة الضعفاء منهم لضرب الأقوياء وإضعافهم. وكادت خطة أبي يوسف يعقوب هـذه تنجح لو أن الأيـام امتدت به. كما أن محمد الناصر أخطأ في معامله أهل الأندلس من جيشه، فقد أقدم على قتل ابن قادس قائد قلعة رباح بسبب تسليمه القلعة من دون أن يسمـع حجتـه، ممـا أوغـر صـدور الأندلسيين لأن ابن قادس منهم.

٣ ـ وعـلى هذا فقـد كان جيش العـرب المسلمين على الرغم من ضخامته يحمل أسباب هزيمته، فلم يكن جيشا موحدا الأهداف حيث تسربت الروح الانهزامية بين أفراده وبخاصة جنود الأندلس الذين ساءهم قتل ابن قـادس فأضمروا الحقد فتركـوا ساحـة المعركـة عند بدايتها.

٤ ـ أما جيوش الممالك الاسبانية والعناصر المتحالفة معها فقد كانت على الضد من ذلك تماما، حيث كانت هذه المعركة التي تخوضها معركة حياة أو موت بالنسبة لها، فملك قشتالة كان يعلم أن تكرار مأساة معركة الأرك معناه الانحدار النهائي للممالك الأسبانية، لهـذا أخذ للأمر أهبته وعدته من أجل الانتصار في هذه المعركة.

٥ ـ أما في أرض المعركـة فقد سيـطرت الجيوش المتحالفة على التلال المحيطة بسهـل تولوسا وبهذا أصبحوا في وضـع استراتيجي أفضل من العرب المسلمين الذين كانوا في أسفل السهل. وكان هذا بعد أن أرشد الراعي القوات الاسبانية على الطريق الفرعي المؤدي إلى سهل تولوسا.

وهكذا كان انتصار جيوش الممالك الاسبانية في موقعة العقاب نذير شؤم، حيث أدخلت الخوف واليأس إلى قلوب العرب المسلمين في الأندلس وأيقنوا بأن النهاية باتت وشيكة. ■

المصادر والمراجع

(١) اخبار المجموعة في فتح الأندلس وذكر أمـرائها، مؤلف مجهول مدريد ١٨٦٧.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهـرة ١٩٦٣.

(٣) صفـة جزيـرة الأندلس، محمـد بن عبد الله بن عبـد المنعم الحميري، تحقيق ليفي بـروفنسـال، القاهرة ١٩٣٧.

(٤) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمـد المقـري تحقيـق محمـد محيـي الدين عبـد الحميـد، بيـروت ١٩٤٩. الأجـزاء الأول والسادس.

(٥) أوروبـا العصور الوسـطى، سعيد عبـد الفتـاح عاشور، الجزء الأول، التاريخ السياسي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٤.

(٦) التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غـرناطة. د. عبـد الرحمن علي الحجي، بيـروت ١٩٧٦.

(٧) الأدب الأندلسي، مصطفى الشكعة، بيروت ١٩٧٤.

(٨) الشعر في عهد المـرابطين والمـوحدين بـالأندلس، د. محمد مجيد السعيد، بغداد ١٩٨٠.

(٩) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، المؤرخ الألمـاني يوسف اشبـاخ، ترجمـة وتعليق محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨، الطبعة الثانية.

(١٠) مـأسـاة انهيـار الوجـود العـربي في الأنـدلس، عبد الكريم التواتي، الدار البيضاء ١٩٧٦.

(١١) الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام ملوك الطوائف، محمد عبد العزيز عثمان، مجلة الجامعة، جامعة الموصل، العدد السابع ١٩٨٠.

(١٢) وقعة الأرك من معارك العرب المسلمين في الأندلس مجـلة آفاق جامعية، جامعة السليمانيـة، العدد الثاني ١٩٨٠.

ندوة حول اسهامات العلماء العرب في علوم «النبات والري والفلاحة»

يستعد قسم التراث العربي التابع للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي في حلب لعقد الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، وذلك في العاشر من شهر ديسمبر المقبل، ولمدة خمسة أيام، في الكويت.

وسيتقدم المشاركون في الندوة ببحوث تبيِّن اسهامات العلماء العرب في علوم النبات والري والفلاحة.

وتهدف الندوة التي ستجمع عدداً من العلماء والباحثين المعنيين بالتراث العلمي العربي إلى ابراز دور العرب في علم النبات، وهندسة الري، وأعمال الزراعة.

العثور على مخطوطات قيمة في صنعاء

تقوم لجنة برئاسة القاضي اسماعيل الأكوع مدير الهيئة العامة للآثار ودور الكتب في الجمهورية العربية اليمنية وعضو المجلس الاستشاري لمعهد المخطوطات العربية بدراسة مخطوطات قيّمة يعود تاريخها الى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وكان خبراء آثار قد عثروا خلال حفريات أثرية في مدينة صنعاء على ثلاثة اكياس كبيرة قرب جامع صنعاء تضم حوالي عشرين ألف صفحة من الآيات القرآنية الكريمة منسوخة بالخط الكوفي.

هذا، ويساعد اللجنة اليمنية في عملها فريق عمل من الخبراء الألمان المتخصصين بترميم المخطوطات.

معارض فرنسية تتحدث عن التاريخ

افتتح في الشهر الماضي في مارسيليا ١٧ معرضا، مكرسة كلها للعلاقات بين مارسيليا ومقاطعة بروفاس الفرنسية والشرق الأوسط. وأوضح جاستون ديفيد عمدة مارسيليا ووزير الداخلية في اطار تقديمه لهذه المعارض انها سوف تروي تاريخ سبعة قرون من التبادل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. وقال عمدة مارسيليا لقد شعرنا بالحاجة الى معايشة تاريخنا مرة اخرى، واشار إلى أن كل شيء قد بدأ مع فرانسوا الأول الذي قرر غداة هزيمة مني بها أن يعيد تنظيم تحالفاته وأرسل مبعوثا الى الخديوي سليمان ومنذ ذلك التاريخ أقامت مارسيليا بواسطة غرفتها التجارية علاقات متميزة مع الامبراطورية العثمانية وقد اكد كولبير فيما بعد امتيازات غرفة التجارة التي كانت ترفع مرتبات السفراء والقناصلة لدى الباب العالي. وكان التجار في مارسيليا بدافع من روحهم وطموحاتهم التجارية يبعثون بأبنائهم الى تركيا لتعلم اللغة ليقوموا فيما بعد بدور المترجمين، وكان احد اهالي مارسيليا هو الذي تولى مهمة الترجمة لبونابرت اثناء الحملة الفرنسية على مصر وكان مملوك لجأ إلى مارسيليا هو الذي علم اللغة القبطية لشامبوليون. وازدهرت التجارة في القرن التاسع عشر وأقيمت مصانع الزيتون والصابون في مارسيليا وكان شاب من مارسيليا يدعى جون شارل (٣٤ عاما) هو الذي أرسل الى مصر لدراسة جدوى شق قناة السويس وقد أتاحت معلوماته امكانية تشجيع مشروع فرديناند دوليسبس.


نابليون بونابرت

افتتاح متحف للفن الاسلامي في القاهرة

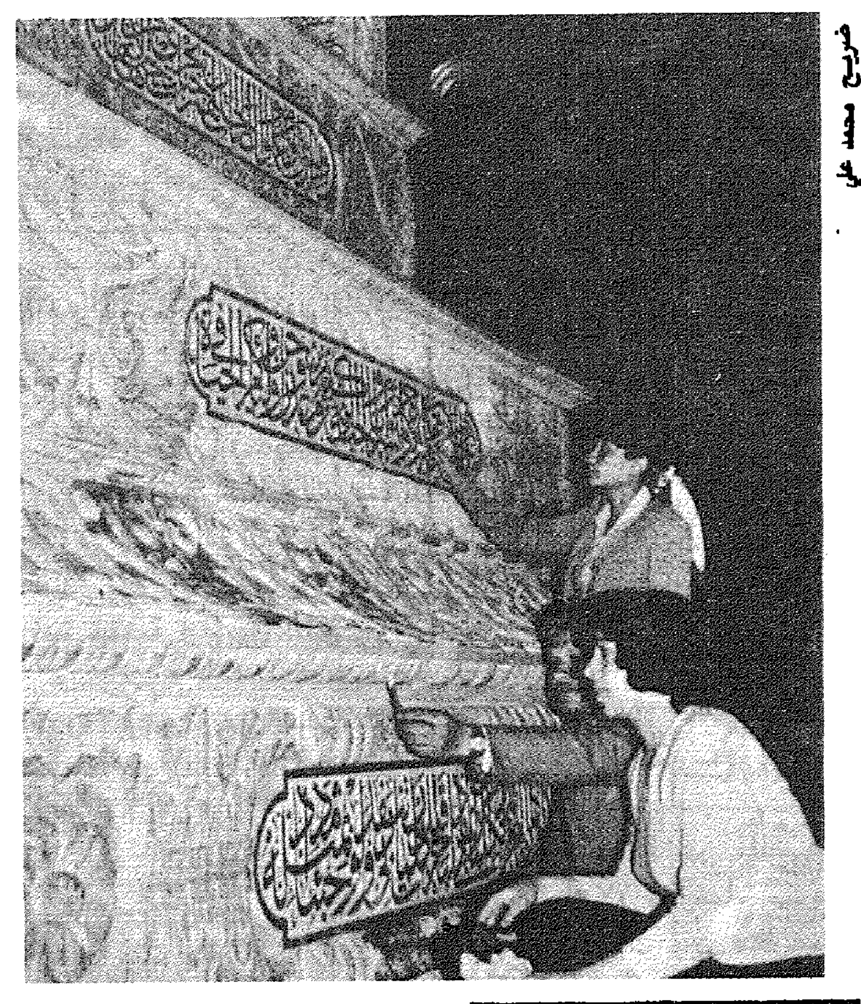
القاهرة: أعلن الدكتور أحمد قدري رئيس هيئة الاثار في القاهرة اثناء افتتاح متحف الفن الاسلامي، وذلك بعد اعادة تجديده وترميمه وتطويره ان المتحف يضم ٨٢ ألف قطعة اثرية. وأضاف انه تم مضاعفة مساحات العرض الداخلي للمتحف حيث زادت المساحة من ألف و٥٠٠ متر مربع إلى أربعة الاف متر مربع كما تم اجراء تغيير شامل في أسلوب العرض المتحفي ومسارات الجمهور داخل المتحف.

وأشار الدكتور أحمد قدري إلى أنه تم تخصيص القاعات العلوية للمتحف لعرض حوالي ألف قطعة من النسيج معظمها مصري عثر عليه في حفائر مدينة الفسطاط القديمة وبعضها ايراني وتركي بالاضافة الى مجموعة من السجاد والنجف من العصر المملوكي والتركي.

وقال انه تم انشاء حديقة أثرية اسلامية لعرض المنحوتات، عرضت بها ٣٠ قطعة من القطع الأثرية من اعمدة وتيجان ويتوسط الحديقة نافورة اثرية تم ترميمها وسلسبيل وواجهة جامع مملوكي.

وأضاف رئيس هيئة الاثار انه تم أيضاً اعداد بطاقات عرض جديدة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية لشرح المعروضات، كما اعدت قاعة جديدة للروائع عرضت فيها مختارات من التحف الاسلامية وتمثل جميع عصور الفن والحضارة الاسلامية.

وذكر انه اقيمت دائرة موسيقية مركزية لاذاعة الموسيقى الكلاسيكية ودائرة تلفزيونية للمعروضات.



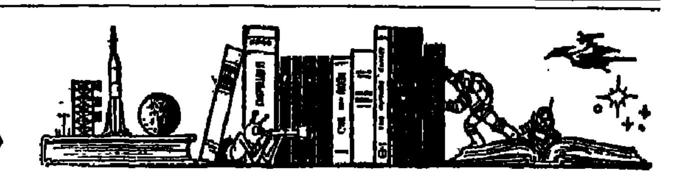
ضريح محمد علي

تنظيف وترميم ضريح محمد علي

حتى يعود ضريح محمد علي إلى ما كان عليه عند دفنه.. تقوم هيئة الآثار حاليا في القاهرة بتنظيف وترميم الضريح من الداخل والخارج واستكمال جميع الأجزاء المفقودة داخله، وذلك ضمن أعمال الترميم التي تتم للقلعة كلها.

يقول محمد فوزي مراقب عام قسم الترميم بالمتاحف اننا أثناء ازالة الأتربة من على رخام الضريح نقوم أيضاً بازالة بعض المواد التي كانت تستخدم منذ فترة والتي ساعدت على لصق الأتربة مستخدمين في ذلك بعض المواد الحمضية غير الضارة بالرخام.

كما نقوم بتنظيف وترميم الترابيزات الخشبية المطعمة بالصدف والموجودة داخل الضريح، وذلك انتظاراً لوصول كمية من الصدف الطبيعي ستكمل بها الأجزاء الناقصة منها..



كتب وردتنا

□ **قضايا التنمية والتحديث في الوطن العربي مصر والمغرب العربي**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... خيري عزيز

□ **قضايا الزوجين النفسانية**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... إميل خليل بيدس

□ **حزن الأرض**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... شعر: مي ناصر بدوي

□ **تساؤلات كونية على دروب البحث العلمي**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... يمنى زهار

□ **الجنى الداني في حروف المعاني**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... الحسن بن قاسم المرادي

□ **كتاب سير الأئمة واخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء**
دار الغرب الاسلامي ــ بيروت .... تأليف: أبي زكريا يحيى بن أبي بكر
حققه: اسماعيل العربي

□ **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**
دار الغرب الاسلامي ــ الطبعة الثانية ــ
بيروت ١٩٨١ .... صنعة: حازم القرطاجي
تقديم وتحقيق:
محمد الحبيب ابن الخوجة

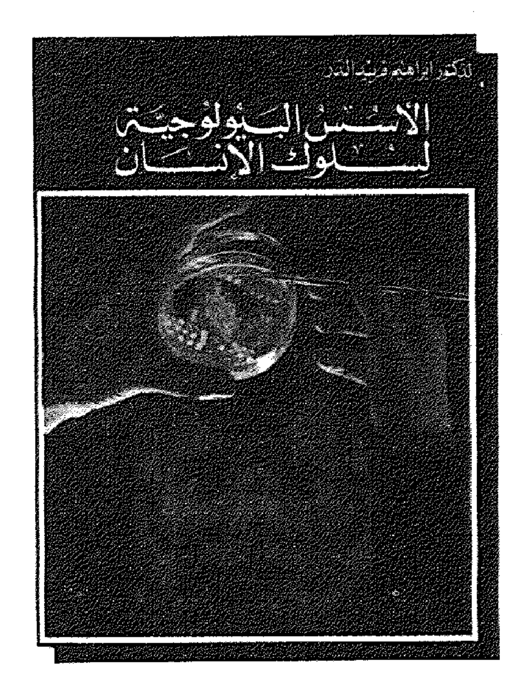
□ **كتاب المحن**
دار الغرب الاسلامي ــ الطبعة الأولى
بيروت ١٩٨٣ .... تأليف: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي
تحقيق: الدكتور يحيى وهيب الجبوري

□ **الاسس النظرية لعلم الاجتماع السياسي**
دار الطليعة ــ بيروت ١٩٨٣ .... د. محمد فايز عبد أسعيد

□ **المنطق والنحو الصّوري**
دار الطليعة ــ بيروت .... د. طه عبد الرحمان

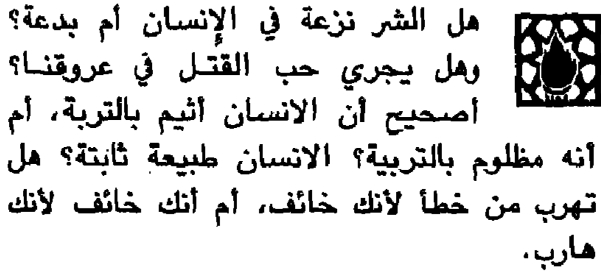
□ **تحليل المدخلات ــ المخرجات**
دار الطليعة ــ بيروت ١٩٨٣ .... د. عصام عزيز شريف

□ **المتنبي والثورة**
دار الفكر اللبناني .... انعام الجندي



الأسس البيولوجيّة لسلوك الإنسان

د. ابراهيم فريد الدّر



هل الشر نزعة في الإنسان أم بدعة؟ وهل يجري حب القتل في عروقنا؟ أصحيح أن الانسان أثيم بالتربية، أم أنه مظلوم بالتربية؟ الانسان طبيعة ثابتة؟ هل تهرب من خطأ لأنك خائف، أم أنك خائف لأنك هارب.

جواب هذه الأسئلة وغيرها من مواضيع تمس الانسان في عمق طبيعته هو مدار هذا الكتاب، أول مصنف في اللغة العربية يعالج شؤون الانسان وشجونه من ناحية علمية، فيقدم الأسس البيولوجية والتربوية المؤثرة في تصرفات الانسان.

في الكتاب اثنان وعشرون بابا، بالإضافة إلى فصول حول (أحكام السلوك) و (تاريخ علم السلوك) و (نهج المقابلة) ذلك النهج العلمي الجديد والذي راده الجاحظ قبل ١١٠٠ سنة، وهو أول عالم بالمقياس العلمي الحديث لعلم السلوك وتصرفات الكائنات.

بعد استعراض أحكام السلوك وتاريخه ومنجزات الجاحظ يبدأ الكاتب بتعريف السلوك ودوافعه وآلياته العصبية (الباب الأول) كما يشرح أنواع التعلم التي يستطيعها الوليد خلال نضجه إلى الرشد. ثم يوجز المؤلف أقسام الدماغ وخلاياه، التي تضبط دوافع السلوك العاطفي (الغرائز) والفكرية (التعليم والاقتباس والخبرة والتجريب) مرفقا صورا ملائمة للبحث (الباب الثاني).

اما الباب الثالث فهو تعريف علمي لمعنى الغرائز وصفاتها. يصحح المؤلف الفكرة الشائعة حول العواطف فيقول (لا تخجل من عواطفك)، ثم يبين المصنف الأجهزة العصبية التي تصوغ عواطف الانسان، ولقد سماها (جهاز الارب) مع صور في (الباب الرابع)، ثم يستعرض المؤلف شأن الهرمونات والناقلات والأدوية المؤثرة في سلوك الانسان في الباب الخامس.

بعد شرح الأسس العضوية العصبية لسلوك الانسان يبدأ المؤلف في بناء الأطر المقررة لتآليف البشر، فيشرح الحركات والاشارات الهادفة إلى تنمية العلائق بين الكائنات (الباب السادس) ولقد سماها المؤلف بالتقاليد الفطرية.

تفسر هذه الحركات أسباب احتكارنا لمقعد أو طاولة في الأماكن العامة، ولماذا تكثر الزوجة من أسئلتها إلى زوجها كسؤالها (هل تحبني، وماذا نطبخ غدا)، كما تفسر هذه التقاليد القواعد التي بها انطلقت النزعات الاجتماعية.

النزعات الاجتماعية هي غرائز ثابتة قادت إلى بناء العائلة والمجتمع، وحين تفاعلت هذه الغرائز الايجابية مع الفكر تقدمت الحضارة فانتقل الإنسان من مخلوق اجتماعي بالخلقة إلى مخلوق حضاري سياسي بالتدبر والارادة، الأنانية والغيرة (الايثار) وغيرهما من صفات أصلية هي مدار الباب السابع، الذي يوجز أيضاً أسس علم السوسيوبيولوجي، وما يعرضه من تفسير للتنافس بين الأخوة والوالدين. ويستعرض المؤلف في هذا الباب بعض عواقب تطور غريزة الجنس في الإنسان، حتى صارت سبيلا إلى المودة وبناء العائلة والمجتمع. من الطريف ما يذكره المؤلف من اكتشافات جديدة تدل على أن الدماغ يحمل جنس صاحبه، فدماغ الذكر دماغ ذكر، ودماغ الأنثى دماغ أنثى. لكن المؤلف يطمئننا أن الفروق لا تعني فروقا في الذكاء أو المهارات، ولربما كانت العواقب في نواح مسلكية أو مزاجية.

مطلع الحياة الاجتماعية وأنواعها هو مدار الباب الثامن، الذي يتبعه بحث عميق في معنى الأبوة والأمومة، فيشرح أن لا غريزة للأمومة، لكن هناك حركات فطرية ترسخ العلاقة الحميمة بين الطفل ووالديه. وفي الأبواب التالية يستعرض المؤلف قدرات الوليد ومراحل نضجة الذهني والخلقي أو العاطفي، كما أثبتها العالم بياجيه وغيره. الذكاء، والتعلم، والذاكرة، والثواب والعقاب، وأنواع من السلوك المكتسب التي تتحجر، كلها مشروحة بأسلوب هين ومشوق.

ثم يبين المؤلف أثر المحيط والتربية والمنبهات في نمو شخصية الانسان، فيستعرض عواقب الحضارة وتعقدها، وما تسببه من علل وأمراض.

يقول المؤلف «الانسان معجزة، لكنها قابلة للصدع». في هذه الأبواب شرح لبعض أمراض النفس، والمواد الكيماوية الفاعلة في كيان الإنسان.

الأبواب الخمسة الأخيرة هي تمهيد لتفسير أسباب التخبط والدوخان في تصرفات البشر، وما يظنونه يقينا وهو أوهام أو سراب. يبين المؤلف الفرق بين أسباب السلوك ودوافعه، ومعنى الحرية والكرامة، ولماذا يسعى الإنسان أبداً إليهما، ولماذا نسج أدبا بطوليا رائعا. ويحذر المؤلف من مزالق الادراك، ذلك أن الدماغ يعمل بالترجيح والمغامرة والمساومة فتبقى آلية عمله ناقصة أو محدودة، مما يوجب علينا التأني والترفق في معاملة البشر، وأن لا نلوم أو نسرع إلى الظن.

ثم يستعرض المؤلف الصراع التاريخي الفلسفي بين أهل العصر الغابر أمثال كنط وفولتير وروسو. ويتوجه بعد ذلك إلى الوعي وعواقبه، وما توهمه الانسان من معضلات. ويشرح المؤلف الموقف العلمي من فلسفات كالجبرية والارادة.

موضوع الباب الحادي والعشرين (النزعات الاجتماعية، مالها وما عليها). وهنا يسأل المؤلف (إذا كان الانسان محبا الوفا بالنزعة فلماذا العنف والكره بين فئات من البشر؟) جواب هذا السؤال هو في (باب العنف) آخر المواضيع، وفيه يثبت المؤلف أن الشر والقتل والفتنة هي ليست من غرائز الانسان، إنما تحريف لفطرته، بالتلقين وبالتدريب وبالتربية فيبقى (الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره).

«الأسس البيولوجية لسلوك الانسان» مصنف فريد، وأول محاولة علمية لتلخيص ما ثبت حول طبيعة الانسان وتصرفاته. الكتاب دليل علمي لمن يريد التوسع، وهو وثيقة اجتماعية تدل على مواقع الصدع والخلل في موازين المجتمع، وما ينبغي علينا أن نفعله إذا شئنا بناء المجتمع السويّ. فيه من الحقائق ما يسليك وما يغضبك وما لا يعجبك، فأولى بك أن تواجهها، وتمحص فيها وفي نفسك، لعلك تبلغ إلى سكينةٍ ويقينٍ لا غنى عنهما للشخصية السوّية. ■

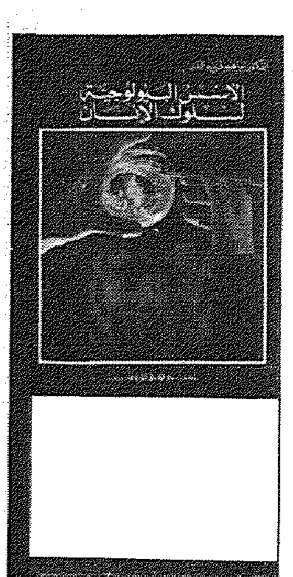
العددان ٦ ـ ٧
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣
ايار (مايو) ١٩٨٣

مجلة
الإنماء
العربي

الفكر الاستراتيجي العربي

صدر حديثاً عن :

الآفاق الجديدة
بيروت



برمجة الموثق في عملية التوثيق
د . محمد قبيسي
١٨ ل. ل.

كلمات المنفلوطي
١٥ ل. ل.

الجنى الداني في حروف المعاني
المرادي
٣٥ ل. ل.

الحرب العالمية الثانية المجلد السابع
٢٠ ل. ل.

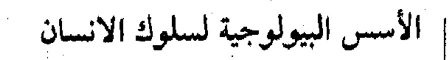
في معرفة النص
د . يمنى العيد
٢٠ ل. ل.

العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون
سمير عبده
١٠ ل. ل.

الشيخ أحمد رضا والفكر العاملي
د . فايز ترحيني
١٥ ل. ل.

جواهر القرآن ودرره
الغزالي
١٥ ل. ل.

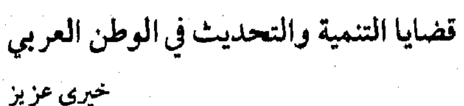
النزلة والتهاب الجيوب
سلسلة (كن طبيب نفسك)
تعريب اميل بيدس
٥ ل. ل.



الأسس البيولوجية لسلوك الانسان
د . إبراهيم الدرّ
٣٥ ل. ل.

كيف أفهم النقد
د . جبرائيل جبور
١٥ ل. ل.

تهذيب اصلاح المنطق
الخطيب التبريزي
مجلد ٦٠ ل. ل.

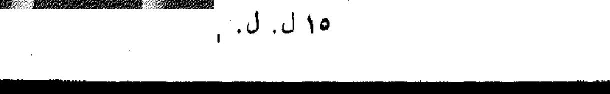


قضايا التنمية والتحديث في الوطن العربي
خيري عزيز
٣٥ ل. ل.

مدارس دمشق في العصر الأيوبي
د . حسن شميساني
٢٠ ل. ل.

الموضوعية والتحليل في البحث الاجتماعي
د . معن خليل عمر
٢٠ ل. ل.

الانسان العربي والعلم
سمير عبده
١٢ ل. ل.



سلامة موسى وأزمة الضمير العربي
د . غالي شكري
١٥ ل. ل.

شارع المقدسي ـ رأس بيروت ـ بناية حنا ـ تلفون ٣٤٩١٧٨/٩ ـ ٣٤٩٦٥٨ ـ ص . ب . ٧٣٠٢ ـ تكلس : درافاق LE ٢٢٣٩٣

اول مجلة عربية للقارئ وللناشر معاً



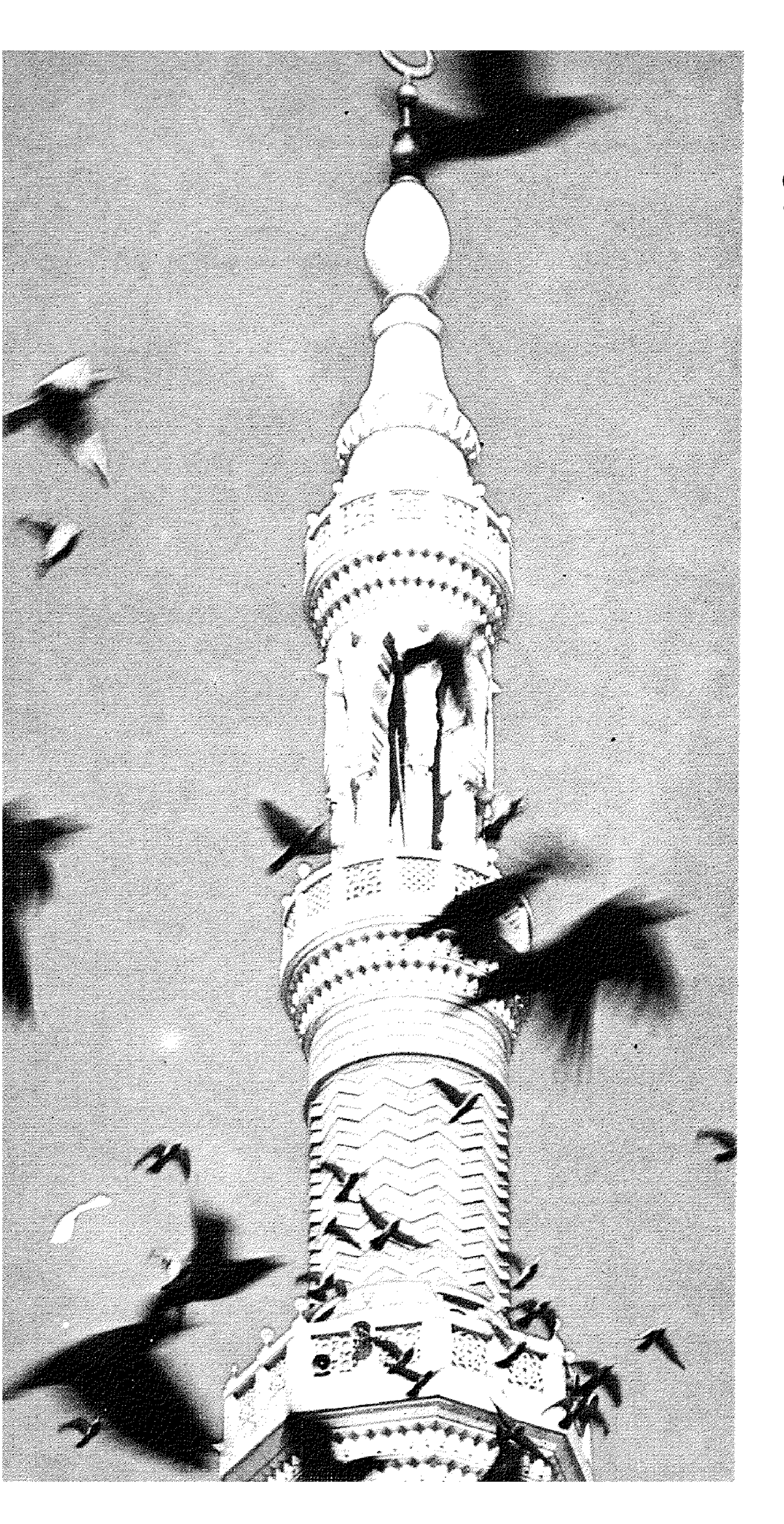
مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الناشرين العرب
تعنى بشئون النشر وقضايا الكتاب

تقرأ في العدد الاول

- المؤثرات الأجنبية في الكتاب العربي
  بشير الهاشمي
- الكاتب والكتاب والتنمية
  خليفة محمد التليسي
- حول تحقيق التراث
  محمد العروسي المطوي
- لمن الأولوية ؟ حقوق المؤلف أم حقوق القراء
  د/ يونس عزيز
- معوقات حركة نشر الكتاب
  د/ عبدالله محمد الشريف
- الكتاب العربي بين التقدم والتخلف
  بهيج عثمان
- وثيقة : النظام الأساسي لاتحاد الناشرين العرب
- أخبار : الكتاب واخباره في الوطن العربي

رئيس التحرير :
خليفة محمد التليسي

توزع في جميع انحاء العالم العربي



مسجد
الرسول (صلعم)
في المدينة المنورة